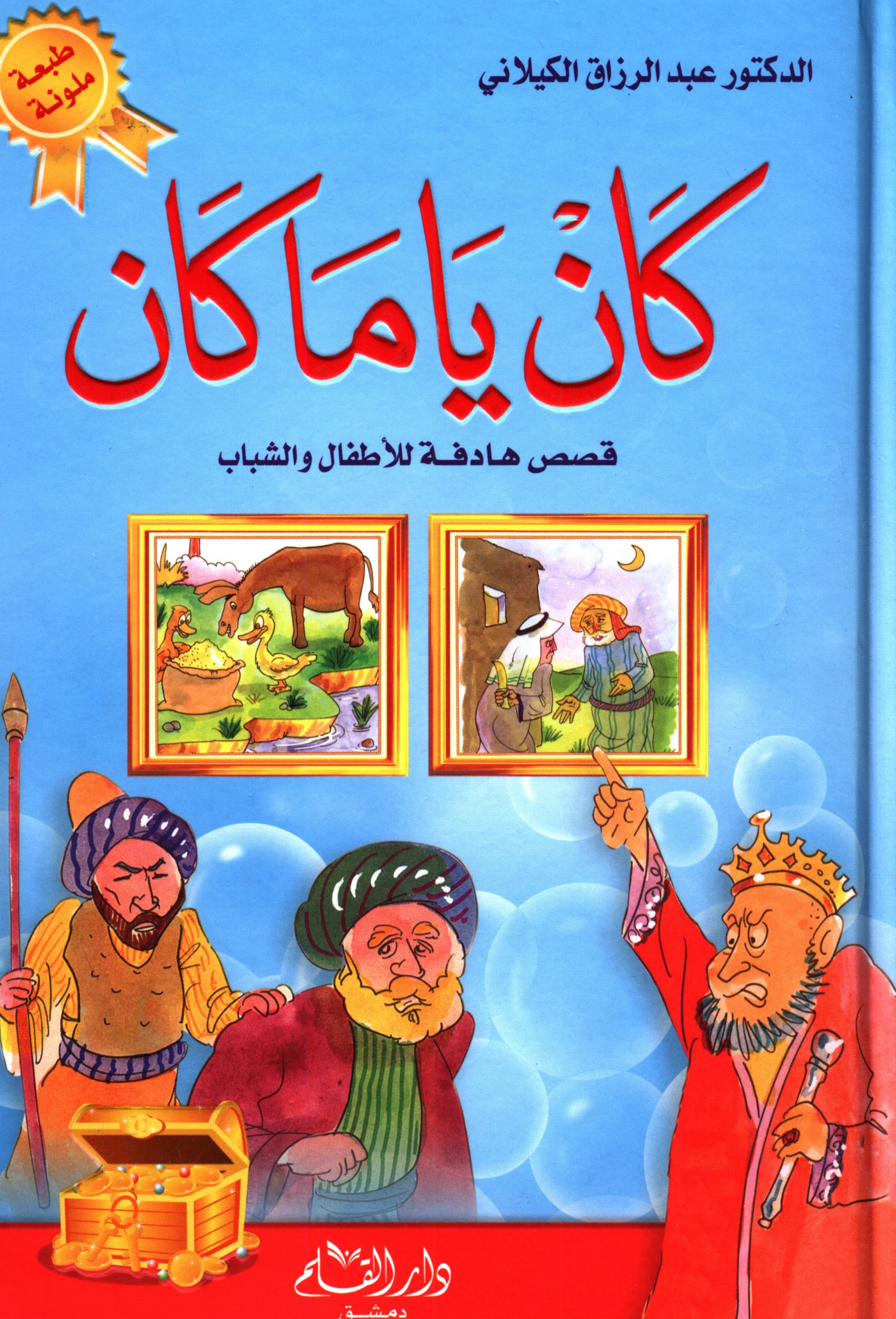


الدكتور عبد الرزاق الكيلاني

كان يا ما كان

قصص هادفة للأطفال والشباب

دار القلم
دمشق





تأليف

الدكتور عبد الرزاق الكيلاني



دمشق

الطَّبعَة الثَّالِثَة

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم ـ دمشق هاتف: ٢٢٢٩٧٠٧ فاكس: ٢٤٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣

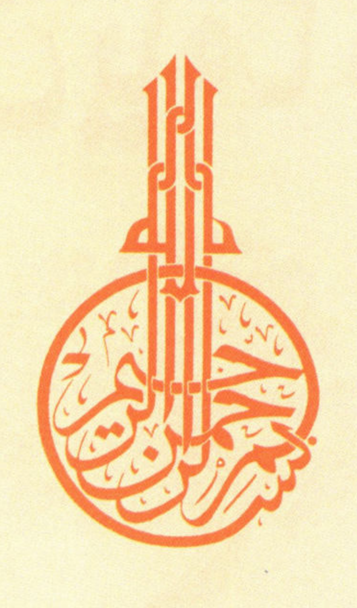
الدار الشامية ـ بيروت هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١) ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

www.alkalam-sy.com

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير ـ جدّة: ٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

كَانَ يَا مَا كَانْ


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى أطفالنا جميعاً..

أمل الأمة، ورجال الغد، وقادة المستقبل.

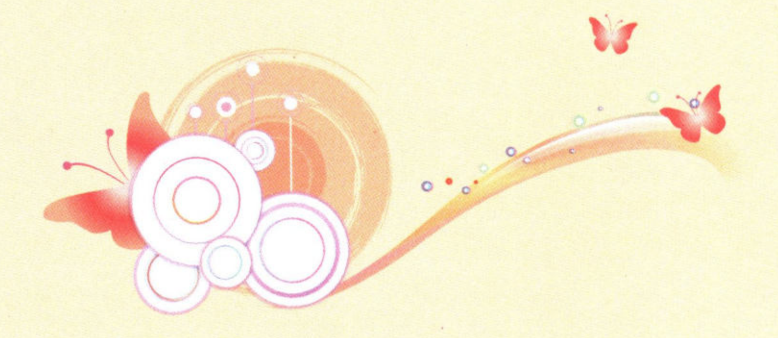
لعلّها تكون منارات هدى تهديهم سواء السبيل..

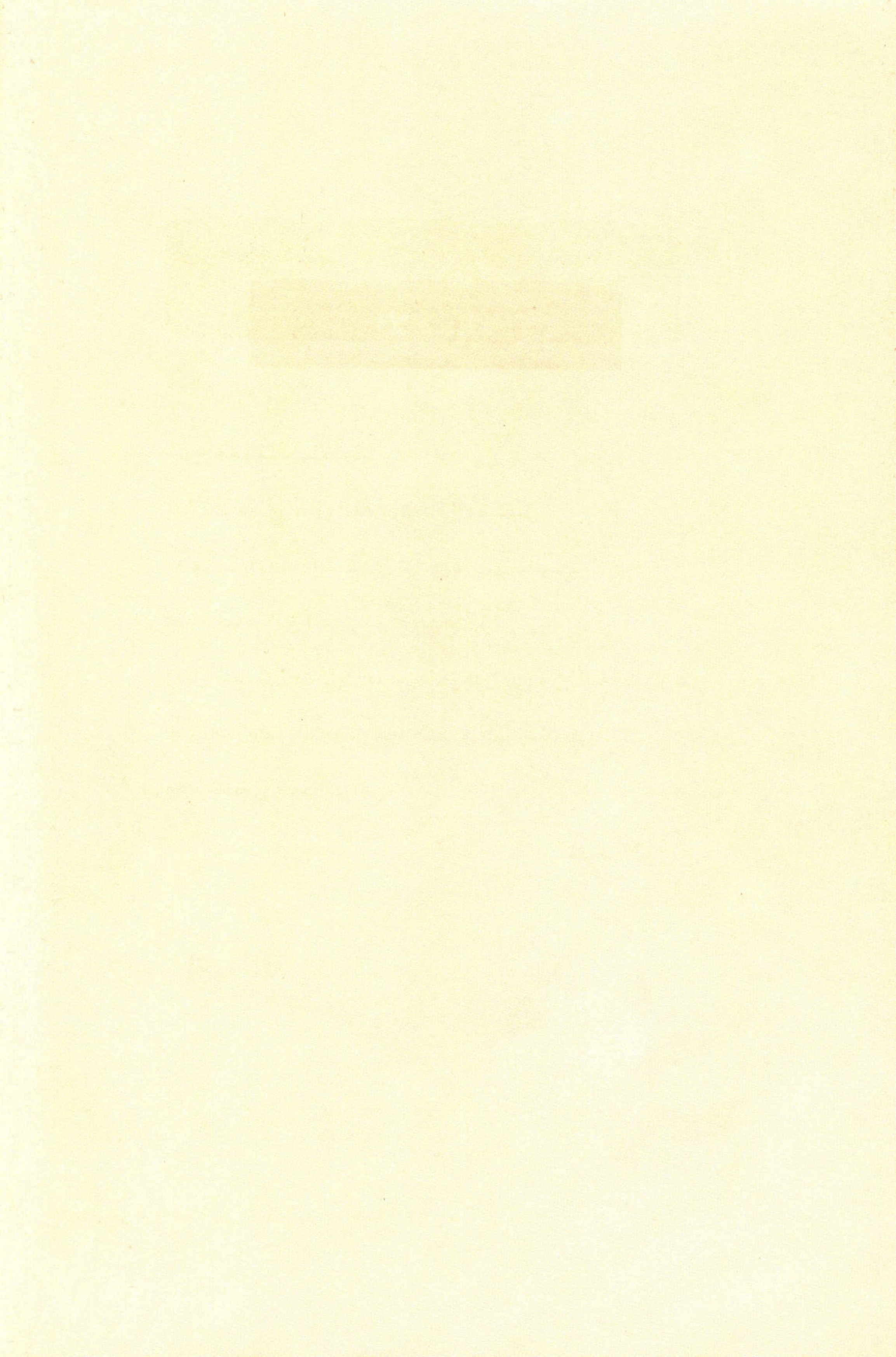
وترشدهم إلى الخير، وتُجَنِّبهم الزَّلَلَ.

ولعلّ الله ﷻ يهدي بها ناساً، يكون لي من الثواب ما هو خير من حُمْرِ النَّعَم، وممَّا طلعت عليه الشمس..

وهو حسبي ونعم الوكيل.

عَبْد الرزّاق







تقديم

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد:

الحديث مع الأطفال جميل، لكنَّ الأجمل منه أن تسمع الحديث من أفواههم بإشاراتهم البريئة، وحركاتهم الطفولية البسيطة.

لكن من أين للطفل هذا الحديث إذا لم يسمعه من غيره؟!..

لذا كانت الحكايةُ أمتعَ شيء للطفل، تلتقفها أذنه، لتستقرَّ في قلبه، ولهذا انتبه الآباء والأمهات لدور الحكاية في تربية أبنائهم التي تكون فيها التسلية والمتعة، بالإضافة إلى الأهداف السلوكية والتربوية.



وما زلتُ أذكر حكايات والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عندما كان يسردها علينا ونحن أطفال صغار، ليرسّخ في نفوسنا معاني الصدق، والأمانة، والنبل، والشجاعة، بحكاياتٍ بسيطة، وأسلوب سهل مفهوم، لكنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ أبى أن تكون هذه الحكايات لنا خاصة، فدَوّنها ونشرها في مجموعة قصصية أسماها (كان يا ما كان).. فلاقتْ إعجاباً ورواجاً، ممَّا دفع الناشر أن يجعلها في كتاب واحد حفاظاً عليها من الضياع.

وقد لاحظتُ السرور بادياً على وجه والدي عند رؤيته لهذه الطبعة بهذا الإخراج الجديد.

واليوم ظهرت الطبعة الثالثة.. ولكنْ لم يكتب لوالدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن تكتحل عيناه برؤيتها؛ فقد وافاه الأجل المحتوم.

لذا فإني أستهلُّها بهذه المقدمة المتواضعة؛ راجياً المولى عَزَّ وَجَلَّ أن يتقبل والدي في عداد المجاهدين بقلمهم، الذين قدموا ما يستطيعون تقديمه في سبيل إيصال الكلمة الصادقة المخلصة لتنير الطريق للأجيال على مرِّ العصور.

وآخر دعوانا أن الحمدُ لله ربِّ العالمين

حماة في ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م **د. محمد أشرف الكيلاني**

المقدمة

الحمد لله وحده، والصَّلاة والسَّلام على من لا نبيَّ بعده.

وبعد:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«كلُّ إنسانٍ تلدُه أمُّه على الفطرة، وأبواه يُهَوِّدانه ويُنَصِّرانه ويُمَجِّسانه، فإن كانا مُسْلِمَينِ فمسلم»** (رواه مسلم)[1].

يأتي الطفلُ إلى هذه الدنيا كصحيفة بيضاء، وعجينة طرية، نستطيع أن نشكّلها كما نشاء ونريد؛ فلنتقِ الله سبحانه وتعالى في أطفالنا، فهم عماد الأمة، وأمل المستقبل، إن صلحوا صلحت الأمة، وإن فسدوا فسدت وانهارت.. وتبدأ تربيتهم، ويبدأ توجيههم منذ أن يولدوا، بتعويدهم على العادات الصالحة، وإرشادهم إلى الأخلاق الفاضلة، وإبعادهم عن قُرَناء السوء، ومواطن الشبهات..

وقبل ذلك كله بأن نكون قدوة صالحة لهم؛ فنحن مسؤولون عنهم، وسيحاسبنا الله سبحانه وتعالى إن أسأنا تربيتهم، أو أهملناها، فنحمل أوزارهم فوق أوزارنا.

---

(١) كتاب: جامع الأصول، شرح الأستاذ عبد القادر الأرناؤوط، رقم (٣٦١٩).

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ، يقول: «كلُّكم راعٍ ومسؤولٌ عن رعيته، فالإِمام راعٍ ومسؤولٌ عن رعيته، والرجلُ راعٍ في أهله وهو مسؤولٌ عن رعيته، والمرأةُ في بيت زوجها راعيةٌ وهي مسؤولةٌ عن رعيتها، والخادم في مال سيده راعٍ وهو مسؤولٌ عن رعيته، فكلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤول عن رعيته» (رواه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود)[1].

وليس شيء كالقصص والحكايات في تأثيرها في الأطفال، فهم مغرمون بها، تراهم يلاحقون أهلهم وذويهم من مكان إلى مكان ليحكوا لهم ويقصُّوا عليهم، لأنهم يميلون إلى المحسوس من الأمور.. فلنستغلَّ هذه النزعة فيهم، ولنخترْ لهم القصص والحكايات الهادفة التي تبيّن لهم الصواب من الخطأ، والخير من الشر.

وقد اخترتُ لهم بعض القصص التي تؤدِّي إلى هذا الهدف؛ أخذت بعضها من القرآن الكريم والحديث الشريف، وبعضها الآخر ممَّا سمعتُه في طفولتي.. وبسَّطت لغتها على قدر ما أستطيع لكي يفهمها الأطفال ويستمتعوا بها.. وجعلتها مسلسلة؛ تبدأ بسيطة ثم تتدرَّج في التعقيد على حسب تقدم الأطفال في السنِّ.

---

(١) كتاب جامع الأصول، رقم (٢٠٢٨).

وإنني أدعو الله ﷻ أن يجعل هذه القصص سبباً لسلوك من يقرؤها سبيل الخير والحق، والتنكُّب عن طريق الشر والباطل.. وعند ذلك أكون قد حصلت على ما أرجوه من الثواب الذي هو خير من حُمُرِ النَّعَم، وممَّا طلعت عليه الشمس، والله ﷻ حسبي ونعم الوكيل.

وأرجو من ذوي الأطفال أن يشجعوا أطفالهم على قراءة هذه القصص، وأن يشرحوا لهم العبر المستفادة منها لعلَّهم يعتبرون بها.

وآخر دعوانا أن الحمدُ لله ربِّ العالمين.

عَبْد الرزّاق الكيلاني

دبي ١٩/شعبان/١٤١٢هـ

٢٢/٢/١٩٩٢م



١ حِكَايَةُ يا باحْ يا باحْ، وحْدَيْ مْدَيْ

كنتُ أرى جدتي العجوز رَحِمَهَا الله، تُجلِسُ أحدَ أحفادها أمامها، وتفتح كفَّه، وتمرّ براحة يدها على راحة يده وهي تقول:

يا باحْ يا باحْ، يا عريق التفاح، يا إيدين فلان (وتذكر اسم حفيدتها أو حفيدها الجالس أمامها) هالبيض الملاح، إجا العصفور ليتوضا، لقى إبريق فضة، هَيْ (وتشير إلى خنصر يد الحفيد) مسكته، وهَيْ (وتشير إلى البنصر) دبحته، وهَيْ (وتشير إلى الوسطى) طبخته، وهَيْ (وتشير إلى السبابة) أكلته، وهَيْ (وتشير إلى الإبهام) بتقول: يا ماما بدِّي نَنِّه (أي: أريد كسرة خبز)، يا ماما بدي ننه، يا ماما بدي ننه، دَبْ دبينه، دَبْ دبينه، (وتدب الجدة بأصابع يدها على ساعد حفيدها حتى تصل إلى عنقه فتكركره فيها، فيضحك ملء فيه).

وكانت أيضاً تُجلِسُ عدداً من أحفادها أمامها، وتطلب منهم أن يمدوا أرجلهم، وتجلس هي أمامهم، وتقول: حْدَيْ مْدَيْ، على رجلَيْ، رحت وجيت، قال شْوَيْ، يا عسكر، يا مسكر، طبِّقْ لي طبق سكر، حَلْفِتْ معلمتي لتعلقني بالشجر، والشجر مليانه فلوس، قيمي رجلك يا قبيحة، يا مليحة، يا عروس. (وعند ذلك تكون يدها تتنقل على أرجل أحفادها، وصاحب الرجل التي تقع يدها عليها عند لفظ كلمة: يا عروس، يكسب الجائزة، وهي قطعة سكر أو حلوى أو شوكولاته).



حكايةُ وليداتِ حسَّانَ

اختبار لعواطف الطفل (باللغة العامية)

قالت لي سِتي العجوز رَحِمَهَا الله، وأنا لم أتجاوز الرابعة من عمري: اجلس لأحكي لك حكاية (وليدات حسان):

كانوا وليدات حسان بيغزلوا طقيق طقيق[١]، راح أبوهم على الطريق، جاب لهم كليب أعرج، بيمشي ويتدحرج، الكلب يقول: توت توت، بدّي نَنِّه[٢]، والنَّنِّه في التنور، والتنور بدّو[٣] حطب، والحطب في الجبل، والجبل بدّو فاس، والفاس عند أبو رباح، وأبو رباح راح ما إجا لشق الصباح، جاب معه حِمْل أناني (قناني) وحمل تفاح؛ قنينة وتفاحة كويسة كويسة لِمين؟ فأقول: إِلِك (لَكِ)، وقنينة وتفاحة معفنة معفنة لِمين؟ فأقول: لليهودي.. وقنينة وتفاحة كويسة كويسة لَمين؟ فأقول: للماما، وقنينة وتفاحة معفنة معفنة لِمين؟ فأقول: للفرنساوي، وقنينة وتفاحة كويسة كويسة لِمين؟ فأقول: للبابا، وقنينة وتفاحة معفنة معفنة لَمين؟ فأقول: للكلب...

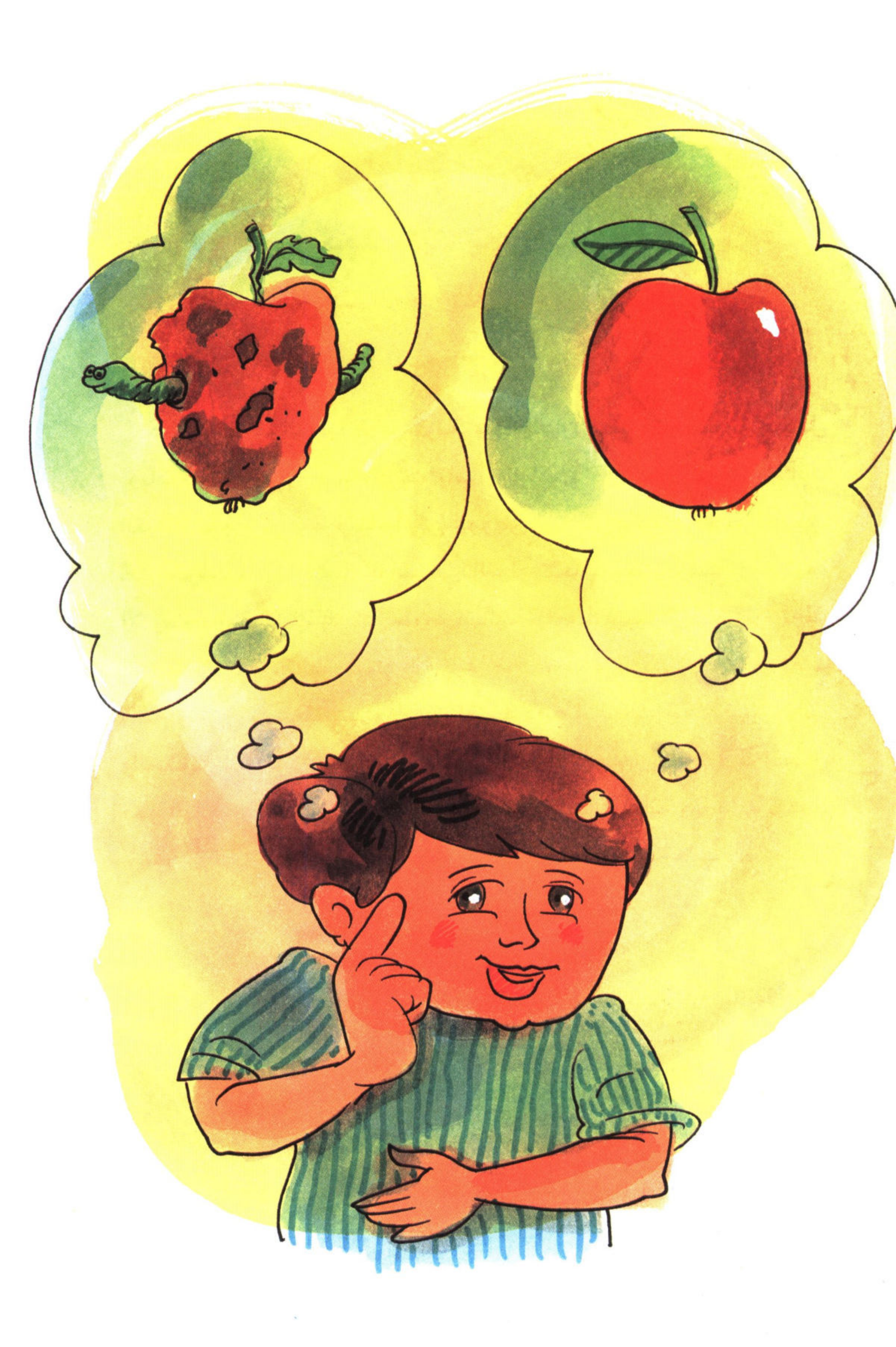
وهكذا نعرف هوى الطفل، ومَنْ يحب، ومَنْ يكره.

---

(١) طقّ في اللغة الفصيحة: صوّت، أو أحدث صوت طقّ طقّ.

(٢) النَّنَة باللغة العامية: كسرة الخبز.

(٣) بدّو: يحتاج.





٣ حكايةُ سنيسل ورباب

جزاءُ مخالفةِ أمر الأمّ

كان يوجد غزالة لها قرون قوية، ولها ولدان صغيران اسمهما سنيسل ورباب، وكان لهم بيت، وللبيت باب، وللباب داقور من الداخل، وكانت الغزالة تخرج كلَّ يوم صباحاً إلى المرعى، وتوصي ولديها سنيسل ورباب قبل خروجها ألا يفتحا الباب في النهار لأحد، وعند المساء أمرتهما ألا يفتحا لها الباب إلا إذا سمعا صوتها، ولمسا ذنبها الناعم من تحت الباب، وكانت عندما تعود كل يوم في المساء تنادي ولديها بصوت ناعم وتقول: يا سنيسل، يا رباب، افتحا لأمكما الباب، الحليب ببزيزاتي والحشيش بقريناتي، افتحا يا وليداتي.. وعندما يسمعان صوتها يتراكضان نحو الباب، فتمد أمهما ذنبها من تحت الباب فيلمسانه ويجدانه ناعماً، فيفتحان لها الباب ويتراكضان نحو أبزازها[1] الممتلئة حليباً، فيرضعان منها حتى يشبعا، ثم ينامان على صدر أمهما قريري العين.

وفي يوم من الأيام علم الذئب بوجود سنيسل ورباب في البيت وأن أمهما تناديهما: يا سنيسل يا رباب افتحا لأمكما الباب، فيفتحان لها، لذلك نوى أن يذهب ويناديهما بهذا النداء لعلّهما يفتحان الباب فيأكلهما، وكان يخاف أن يواجه أمهما لأنه يخاف من قرونها، لذلك انتظر حتى ذهبت إلى المرعى، فذهب إلى بيتهم وقرع الباب وقال بصوت غليظ: يا سنيسل، يا رباب، افتحا لأمكما الباب، فتراكضا نحو الباب، ولكنهما

---

(١) أبزاز: جمع بز (كلمة فارسية) وهو الثدي.



سمعا صوتاً غليظاً غير صوت أمهما الناعم، فقالا: أنت لست أمَّنا، أمُّنا صوتها ناعم، لذلك لن نفتح الباب.

فقال الذئب لنفسه: لم أنجح في هذا اليوم.. وذهب، ثم عاد في اليوم الثاني ونادى بصوت ناعم كصوت أمهما: يا سنيسل، يا رباب، افتحا لأمكما الباب، فتراكضا نحو الباب وقالا: ألمسينا ذنبك، فمدّ الذئب ذنبه من تحت الباب فوجداه خشناً، فقالا: أنت لست أمَّنا، أمُّنا ذنبها ناعم.

فقال الذئب لنفسه: لم أنجح في هذا اليوم أيضاً، وذهب وأخذ لوحاً من الصابون ثم ذهب إلى النهر وصار يغسل ذنبه بالماء والصابون حتى أصبح ناعماً كالحرير، وعاد في اليوم التالي، وطرق الباب ونادى: يا سنيسل، يا رباب، افتحا لأمكما الباب، بصوت ناعم، فتراكضا إلى الباب، وقالا: مدِّي ذنبك لنلمسه، فمدّ الذئب ذنبه الناعم فلمساه ووجداه ناعماً كذنب أمهما، فقالا: لماذا جئتِ في النهار، ولم تنتظري حتى المساء؟!..

قال الذئب بصوت ناعم: امتلأت أبزازي بالحليب فأتيت لترضعاها.. ففتحا الباب فرحين، ولكنهما فوجئا بالذئب يهجم عليهما ويبتلعهما الواحد تلو الآخر، وبعد ذلك ذهب إلى البرية ونام تحت الشجرة بعد أن شبع وانتفخ بطنه.

وفي المساء عادت الأم فوجدت الباب مفتوحاً، فصارت تنادي: يا سنيسل يا رباب، فلا يرد عليها أحد، فعلمت أن الذئب قد أكلهما، وكانت تعرف مكان نومه، فتبعته إلى البرية، فوجدته نائماً تحت الشجرة وبطنه منتفخة بسنيسل ورباب، فضربت بطنه ضربة قوية بقرونها القوية فشقتها، وخرج منها سنيسل ورباب يركضان نحو أمهما، فضمتهما إلى صدرها، وقالت لهما:

ألم أقل لكما: لا تفتحا الباب لأحد في النهار؟!.



حكايةُ الجحيش

جزاء الكذب

كان في قديم الزمان يا أولاد يا كرام، كان يوجد حمار وإوزة وبطة وحمامة يعيشون قرب البحيرة في أهنأ حال، يشربون من البحيرة ويرعون حولها، وفي يوم من الأيام وجدوا كيساً من الحنطة، فقال بعضهم لبعض: إذا أكلنا ما في هذا الكيس فإنه لا يكفينا إلا بضعة أيام، ولكن إذا زرعناه في الأرض فسنحصل على كمية كبيرة من الحنطة تكفينا زمناً طويلاً، خاصة أن المراعي أخذت تخفُّ حول البحيرة.. فوافقوا جميعهم على ذلك، وتعاهدوا على ألاّ يمسوا الزرع الذي ينبت حتى ينضج ويحصدوه.

وهكذا زرعوا الحنطة في الأرض وصاروا يسقونها بالماء، فنبتت وطال الزرع، وصار في رأسه سنابل، ولكن الجحيش (الحمار) استيقظ في إحدى الليالي جائعاً، ولم يجد حول البحيرة ما يأكله غير هذا الزرع، واشتدّ به الجوع، فقال لنفسه: سآكل هذا الزرع وأقول لهم: أنا لم آكله!.. وصار يأكل الزرع طول الليل حتى لم يترك منه إلا القليل، ثم ذهب ونام.



وفي الصباح استيقظت البطة والإوزة والحمامة فوجدوا الزرع قد ذهب أكثره، فقالوا: لم يأكله إلا الجحيش، فأيقظوه وسألوه، فأنكر ذلك وقال: أنا لم آكله، فقالوا: إذن نحلف على هذه البحيرة، والذي يكذب يسقط في البحيرة. فوافقوا على ذلك.

فتقدّمت الحمامة وقالت: حم حم أنا الحميمة، حم حم أكلي حبيبة، حم حم إن كنّي أكلته ولّا شربته يرميني ربي بهالبحيرة، ثم طارت إلى الشجرة ولم تقع في البحيرة.

ثم تقدّمت البطة وقالت: بط بط أنا البطيطة، بط بط أكلي حنيطة، بط بط إن كنّي أكلته ولّا شربته يرميني ربي بهالبحيرة، ثم طارت إلى الشجرة ولم تقع في البحيرة.

ثم تقدّمت الإوزة وقالت: وز وز أنا الوزيزة، وز وز أكلي رزيزة، وز وز إن كنّي أكلته ولّا شربته يرميني ربي بهالبحيرة، ثم طارت إلى الشجرة ولم تقع في البحيرة.

ثم تقدّم الجحيش وقال بصوت غليظ: حيء حاء أنا الجحيش، حيء حاء أكلي شعير، حيء حاء إن كنّي أكلته ولّا شربته يرميني ربي بهالبحيرة، ثم قفز فوقع في البحيرة فغرق فمات.

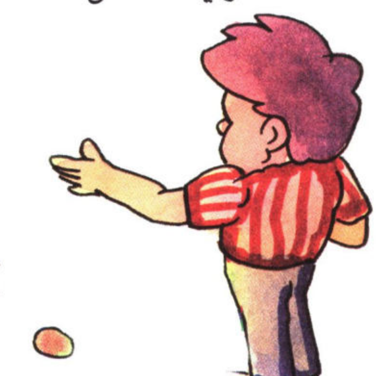
وهذا جزاء الكذّاب.



٥ اللّهُ تَعالى معنا أَيْنَمَا كُنَّا

عادل وصالح تلميذان ذكيان مجتهدان، وصديقان لا يكادان يفترقان عن بعضهما.. هما في صفٍّ واحد، يجلسان على مقعد واحد، يدرسان معاً، ويلعبان ويتنزَّهان في أوقات فراغهما معاً.. وكان والد صالح لا يكفّ عن نُصح ابنه صالح، ويوصيه دائماً بطاعة الله تعالى، والابتعاد عن معاصيه.. ويقول له: إياك أن تعمل عملاً فيه مخالفة لأوامر الله ﷻ، وإياك أن تظن أنه عَزَّ وَجَلَّ غافل عنك وأنه لا يراك، فهو ﷻ معنا أينما كنا، ولا يخفى عليه شيء من أمرنا، وسوف يحاسبنا على كل عملٍ نعمله، بل على كل قولٍ نقوله.

وفي يوم عطلة خرج عادل وصالح يتمشيان في الشوارع والمتنزهات بعد أن أنهوا حفظ دروسهما، ومشيا حتى خرجا من البلدة، وسارا بجانب حائط بستان فيه أنواع الفواكه، من الدراقن والتفاح والمشمش والتين والعنب، فاشتهى عادل أن يأكل شيئاً من هذه الثمار، فقال لصديقه صالح: إنني أشتهي أن آكل شيئاً من هذه الفواكه اللذيذة، فما رأيك؟ فقال له صالح: إنها بعيدة عنا ولا



يمكن الوصول إليها إلا بتسلُّق الجدار، فقال له عادل: أنا سأتسلق الجدار، فقال صالح: قد يرانا صاحب البستان أو أحدٌ من الناس فتكون فضيحة، فقال له عادل: أنا أتسلّق الجدار وأقطف الثمار، وأنت تراقب الطريق؛ حتى إذا رأيت أحداً تنبهني فَأُسارع بالفرار.. واتفقا على ذلك.. وتسلّق عادل الجدار، وأصبحت الثمار في متناول يده، ومدّ يده ليقطفها.

وهنا تذكّر صالح ما كان يقوله له أبوه: من أن الله سبحانه وتعالى معنا أينما كنا، يرى ما نعمل، ويسمع ما نقول، ولا يخفى عليه شيء من أمرنا ولا من أمر أحدٍ من خلْقه، فصاح: إن هناك من يرانا يا عادل!..

فنزل عادل بسرعة ورمى بنفسه من فوق الجدار حتى كادتْ تنكسر ساقه، وعندما وقف على الأرض قال لصالح: أين هو من يراها؟ إنني لا أرى أحداً!.. فقال له صالح: إن الله سبحانه وتعالى يرانا؛ ألا تعلم ذلك؟!..

فخجل عادل وقال: صدقتَ يا صديقي، إن الله سبحانه وتعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وأفضل لنا أن نشتري الفواكه بمالنا ونأكلها حلالاً من أن نسرقها ونأكلها حراماً فيحاسبنا الله تعالى عليها.

العبرة من القصة

وهكذا يا أبنائي لا تنسوا أبداً أن الله سبحانه وتعالى معكم أينما كنتم، يرى ويسمع كل ما تعملون وما تقولون؛ فلا تعملوا عملاً ولا تقولوا قولاً إلا بما يرضيه سبحانه وتعالى، وبذلك تفوزون في الدنيا وفي الآخرة[1].

---

(١) يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير﴾ [الحديد: ٤]. ويقول عزّ وجلّ: ﴿ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم﴾ [المجادلة: ٧].



٦ القِرْدُ والنَّجّارُ

من تَدَخَّل فيما لا يعنيه لقي ما لا يرضيه

من المعروف عن القرد أنه يحبُّ أن يقلّد كل شيء يراه، ولو كان في ذلك ضرر له، ويجرُّه هذا إلى التدخُّل فيما لا يعنيه أحياناً، فيلقى ما لا يرضيه.. كما حصل في القصة الآتية:

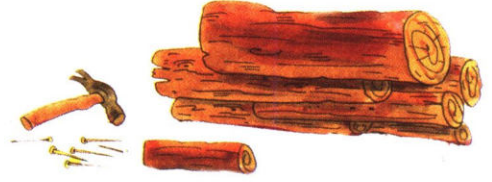
يُحكى أن نجّاراً أراد أن يشقَّ خشبةً طويلةً وثخينةً شقّاً طوليّاً ليقسمها إلى قطعتين متساويتين، ولم تكن المناشير الكهربائية موجودة في ذلك الوقت، بل كانوا يستعملون المناشير اليدوية فقط، لذلك ركّز النجار الخشبة على مسند عالٍ لكي تصبح مائلة فيسهل عليه إدخال المنشار فيها ونشرها، وباشر بنشرها ليشقَّها طولاً.

وكان عملاً شاقّاً متعباً، وكان بقربه قردٌ يراقبه كيف يصنع، وعندما وصل النجار بالشق إلى منتصف الخشبة تعب، فأراد أن يستريح قليلاً، فوضع وتداً من الخشب بين قطعتي الخشبة المنشورة لكي تبقيا متباعدتين فيسهل عليه استئناف العمل عند عودته إليه، وذهب لقضاء بعض حاجته..

فاستغل القرد غيابه، وأراد أن يقلّده في عمله، فقفز إلى الخشبة فركب عليها، ووجهه إلى الوتد، وظهره إلى القسم المشقوق من الخشبة، فتدلى ذنبه في الشق بين قطعتي الخشبة، وصار يحاول نزع الوتد من مكانه لكي يعيد نشر الخشبة كما كان يفعل النجار.

وأخيراً استطاع أن ينزع الوتد من مكانه، فأطبقت قطعتا الخشبة على بعضهما وبينهما ذنب القرد، فتألَّم كثيراً وصار يصيح من شدة الألم، وينط ليخلص نفسه من الخشبة قبل أن يأتي النجار، ولكن ذنبه المحبوس بين قطعتي الخشبة كان يمنعه من الخلاص ويعيده مرة ثانية إلى الخشبة.

وفي هذه اللحظة عاد النجار ورأى ما أفسده القرد من عمله الشاق، فأخذ خشبة من الأرض ونزل بها على ظهر القرد ضرباً، والقرد يصيح ويستغيث وينط ليهرب من النجار، ولكن ذنبه المحبوس لا يدع له مجالاً لكل ذلك، حتى أصابه من النجار أكثر مما أصابه من الخشبة من الألم والعذاب.



العبرة من القصة

هذا جزاء من يتدخل فيما لا يعنيه، وهناك كثير من البشر يتدخلون فيما لا يعنيهم، كالقرود، فيصيبهم ما لا يرضيهم، فإياك يا بني أن تتدخل فيما لا يعنيك، فيصيبك ما لا يرضيك[1].

---

(١) قال النبي ﷺ: «**من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**» رواه الترمذي. رياض الصالحين، رقم (٦٧).

٧ البَطَّتَانِ والسُّلَحْفَاةُ

ضرر الكلام

كان يا ما كان، يا سامعين يا كرام: كانت تعيش بطتان وسلحفاة قرب أحد الأنهار الصغيرة، وكان العشب طويلاً غزيراً حول النهر، وكان ماء النهر غزيراً قويّاً، فكانت البطتان والسلحفاة تسبح معاً في النهر، وتخرج معاً إلى شاطئه، تتمتع بأشعة الشمس الدافئة، وكانت البطتان تأكلان من الأعشاب النامية حول النهر، ومما تجدانه في النهر من فضلات، وكانت السلحفاة تأكل الحشرات التي تجدها في النهر، وتأكل أيضاً من الأعشاب النامية حوله.

وهكذا قويت الصداقة بين البطتين والسلحفاة، وما عُدْن يستطعنَ الافتراق عن بعضهنَّ، وعشن مدة طويلة بأحسن حال.

ولكن هذه الدنيا لا يدوم لها حال، ففي إحدى السنين قلّت الأمطار، فأخذت مياه النهر تقلّ أيضاً شيئاً فشيئاً حتى كادت أن تجف تماماً، ويبست الأعشاب حول النهر، وقلَّ غذاء البطتين والسلحفاة، وعضهنَّ الجوع، فتشاوَرْنَ

مع بعضهنَّ: كيف الحل؟ وكيف الخلاص من هذه المشكلة؟ واتفقنَ أن تطير كل يوم إحدى البطتين لتفتش عن مكان آخر يذهبن إليه.

وهكذا صارت تطير كلَّ يوم إحدى البطتين، تفتش عن مكان مناسب، وتعود في المساء قائلة: لم أجد مكاناً مناسباً، فالأنهار كلّها جفت بسبب قلة الأمطار.

وفي أحد الأيام طارت إحدى البطتين وغابت مدة طويلة، ولم تعد إلاَّ بعد غياب الشمس بوقت طويل، ومنذ وصولها قالت لهنَّ: أبشرنَ؛ فقد وجدتُ مكاناً مناسباً، فيه نهر غزير وعشب طويل، وليس فيه أحد من الحيوانات، ولكنه بعيد في تلك الجبال العالية البعيدة.. ففرحنَ أولاً بوجود المكان.

ولكن بعد ذلك ظهرت لهنَّ مشكلة جديدة ليس لها حل؛ فالمكان بعيد في الجبال العالية، والسلحفاة لا تستطيع السير كل هذه المسافة الطويلة، بل إنها تموت قبل أن تصل إلى هناك.. وقالت السلحفاة للبطتين: كيف تتركانني وحيدة هنا أموت حزناً عليكما، وجوعاً وعطشاً؟! أين ذهبت صداقتنا، والعيش والملح الذي بيننا؟! فقالت البطتان: صدقتِ، يجب ألا نتركك وحدك هنا، ويجب أن نجد حلّاً لهذه المشكلة، فكّري معنا.

وفجأة صاحت إحدى البطتين: وجدتُها، فقالا لها: ماذا وجدتِ؟ قالت: وجدت وسيلة لنقل صديقتنا السلحفاة معنا إلى ذلك المكان البعيد.. فَتِّشا معي عن عصا طويلة قوية. قالا: وماذا نعمل بها؟ قالت: فَتِّشا عنها وبعد ذلك أقول لَكُما، فأخذا يفتشان عن العصا حتى وجدا عصاً

طويلة قوية، فقالت لهما: هذه العصا سأقبض عليها أنا بمنقاري من أحد طرفيها، وتقبض البطة الثانية بمنقارها على الطرف الآخر، وتعضُّ السلحفاة بفمها على منتصف العصا.. وهكذا نطير بالعصا والسلحفاة عالقة بها حتى نصل إلى ذلك المكان البعيد، ولكن هناك شرط مهم جدّاً لكي نصل جميعنا سالمين، وهو ألا تفتح السلحفاة فمها مطلقاً طوال الطريق، وألاَّ تنطق بحرف واحد، لأنها متى فتحت فمها ستقع على الأرض وتموت.. فوافقت السلحفاة على ذلك.

وهكذا حملت البطتان العصا، وعضَّت السلحفاة عليها من وسطها، وطارا بها نحو ذلك المكان البعيد، وكان طريقهن فوق إحدى المدن، فنظر الناس إلى السماء فوجدوا بطتين طائرتين وبينهما سلحفاة، فصاروا يصيحون: يا للعجب! بطتان وبينهما سلحفاة، بطتان وبينهما سلحفاة، بطتان وبينهما سلحفاة، وسمعتهم السلحفاة فغضبت وحبست غضبها أولاً لكي لا تفتح فمها، وأخيراً ضاق صدرها ولم تستطع السكوت، ففتحت فمها لتقول لهم: فقأ الله عيونكم أيها الناس (بعينكم عود أيها الناس)!.. وحالما فتحت فمها سقطت على الأرض وتحطمت وماتت.

أرأيت يا بني، كيف أن الكلام قد يكون فيه الهلاك أحياناً إذا كان لا لزوم له، فالكلام كالدواء، القليل منه مفيد، والكثير منه فيه الهلاك والموت[1].



الكلام يكون أحياناً سبب الهلاك.

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت**» متفق عليه ـ رياض الصالحين، رقم ٣٠٩؛ وقال أيضاً: «**رحم الله عبداً قال خيراً فغنم، أو سكت فسلم**» رواه الديلمي.



٨ السُّلْحُفَاةُ والأَرنَبُ

الجد والعمل، والنوم والكسل

يُحكى أن أرنباً وسلحفاة كانا يعيشان معاً، وفي يوم من الأيام وجدا بطيخة كبيرة، فاختصما بشأنها، كلٌّ واحد منهما يريدها له وحده دون غيره، وأخيراً قال الأرنبُ للسلحفاة: سنضع هذه البطيخة على بعد كيلومتر واحد من هنا، ثم نتسابق أنا وأنت إليها، والذي يصل قبل الآخر إليها يأخذها وحده.

وما أشدّ دهشة الأرنب حين رضيت السلحفاة بذلك، فقد تعجّب وقال في نفسه: هذه مجنونة، فكيف رضيت بذلك؟! وهل تظن أنها ستسبقني إليها، وأنا الأرنب السريع وهي السلحفاة البطيئة؟!.

ووضعوا البطيخة على بعد كيلومتر، وانطلقا من مكانهما ليتسابقا نحوها.. أما السلحفاة فانطلقت بكلِّ جد ونشاط نحو البطيخة، وأما الأرنب فقال لنفسه: دَع هذه المجنونة تسير على هواها، ولماذا العجلة؟! فبقفزتين من قفزاتي الكبيرة أكون قد وصلت إليها وسبقتها، ولآخذ الآن غفوة خفيفة أرتاح فيها، ثم أستيقظ وأقفز قفزات سريعة أصل بها بلحظات قليلة إلى البطيخة

قبل السلحفاة.. وبذلك كان الأرنب هو المجنون لا السلحفاة، ولم يدرِ أن النوم والراحة تكون بعد إنجاز العمل لا قبله، فعلى المرء أن يقوم بالعمل الذي عليه أولاً، ثم يرتاح وينام بعد ذلك، ولكن الأرنب عكس ذلك فكان من الخاسرين.

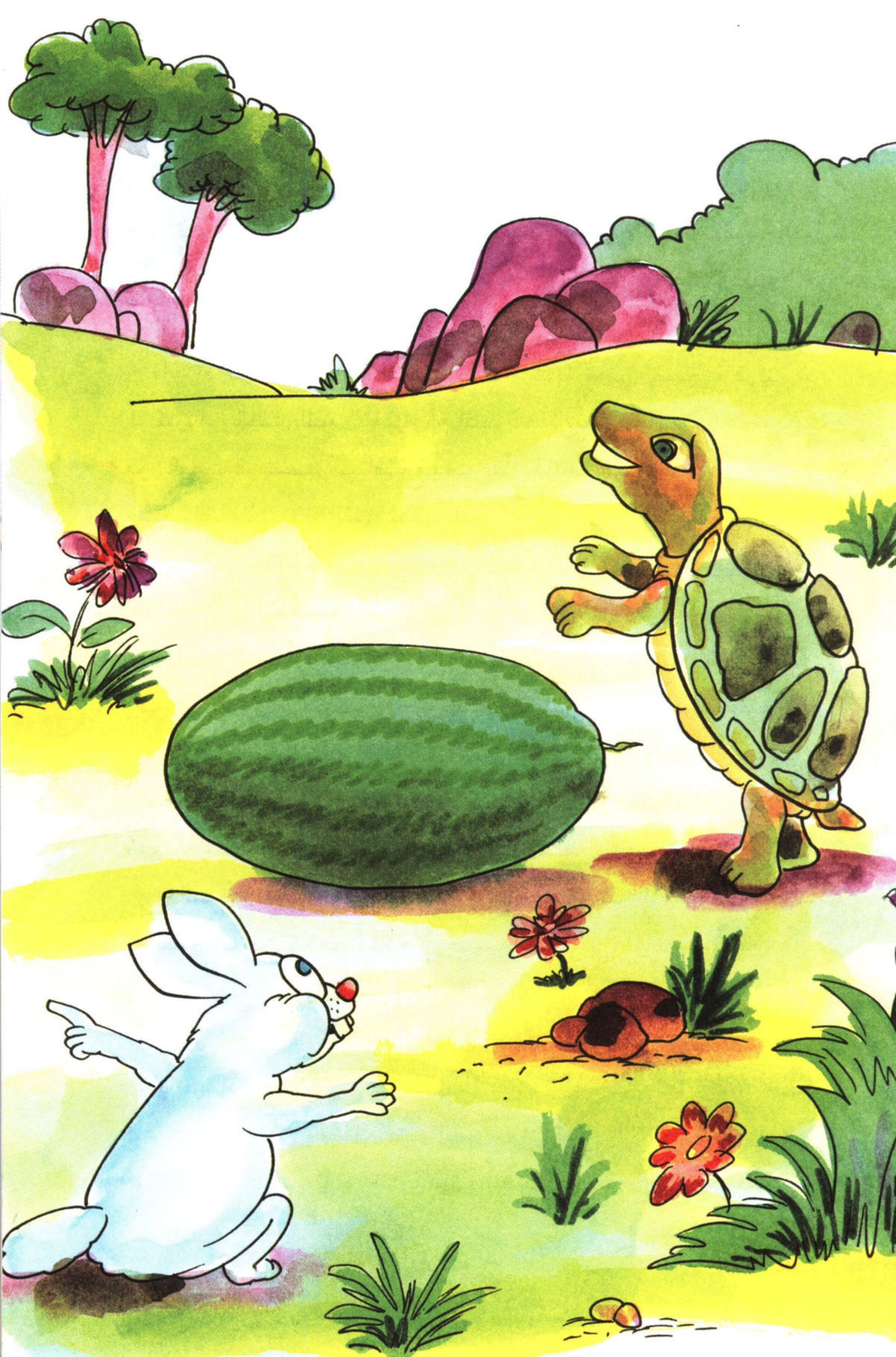
نام الأرنب، وسارت السلحفاة بجدٍّ ونشاط حتى أصبحت قريبة من البطيخة، وطالت غفوة الأرنب، ثم انتبه فجأة ونظر فإذا بالسلحفاة قريبة من البطيخة، فصار يركض ويقفز بكلِّ قوته ليصل إلى البطيخة قبل السلحفاة، ولكن ذلك أتى بعد فوات الأوان، فقد وصلت السلحفاة قبله إلى البطيخة وربحت السباق، وكان ذلك بسبب جدها ونشاطها، وبسبب اغترار الأرنب بنفسه وكسله.

إياك يا بني أن تكون مثل الأرنب مغروراً وكسولاً، تنام عند العمل، وتقوم بعد فوات الفرصة فتكون لك غصة.

وأنت أيها التلميذ! إيّاك أن تؤجل عمل اليوم إلى الغد، وتقول: سوف أحفظ درسي فيما بعد، أو تقول: أنا ذكي، قبل الفحص ببضعة أيام أستطيع حفظ الدروس كلِّها دفعة واحدة، فتضيع الفرصة وتندم عندما لا ينفع الندم، بل احفظ درسك كل يوم في يومه، ولا تؤجله إلى الغد، فتصل إلى الفحص وأنت مرتاح جسماً وعقلاً، وبمراجعة بسيطة تستطيع النجاح، نجاحاً جيداً بإذن الله تعالى.

العبرة من القصة

لا تؤجل العمل، ولا تَسْتَهِنْ بأحد.





٩ حكايةُ البنتِ والخالةِ

نتيجة عصيان الأم

كان في إحدى القرى أم ولها بنت، ولهذه البنت خالة متزوجة في قرية قريبة من قريتهم.. اشتاقتِ البنتُ إلى خالتها فهي لم ترها منذ وقت طويل، فقالت لأمها: إنني اشتقتُ إلى خالتي، وأريد أن أذهب إلى قريتهم القريبة لكي أزورها، فقالت لها أمها: اذهبي إلى هناك في الصباح وزوري خالتك، ولكن يجب أن تعودي إلى هنا قبل المساء لكي تنامي هنا.

فوافقت البنت، وذهبت في الصباح مع الناس الذاهبين إلى القرية المجاورة وهي قريبة، وزارت خالتها ولعبت عندها ونسيت نفسها ونسيت نصيحة أمها بالعودة قبل المساء، فلم تنتبه إلا بعد أن غابت الشمس وأقبل الليل بالظلام، ولم يعد يسير على الدرب أحد، فقالت لخالتها: أنا ما عدت أستطيع العودة إلى قريتنا وحدي في الليل؛ فقد يأكلني الضبع، لذلك سأنام عندك هذه الليلة.

فقالت لها خالتها: وأين تنامين؟ قالت: عندكم في الغرفة، قالت خالتها: لا، إذن تسمعين كلامي وكلام زوجي.. قالت: أنام على باب الغرفة، قالت: لا، تسمعين كلامي وكلام زوجي.. قالت: أنام في المطبخ، قالت: لا، تسمعين كلامي وكلام زوجي.. قالت: أين أنام إذن؟ قالت: تنامين على باب الدار.

قالت: إذا نمت على باب الدار سيأكلني الضبع في الليل، قالت الخالة: ليس عندي مكان إلا على باب الدار، لئلا تسمعي كلامي وكلام زوجي، فنامت البنت على باب الدار، فأتى الضبع وأكلها في الليل. وهذا جزاء من لا يسمع كلام أمه.





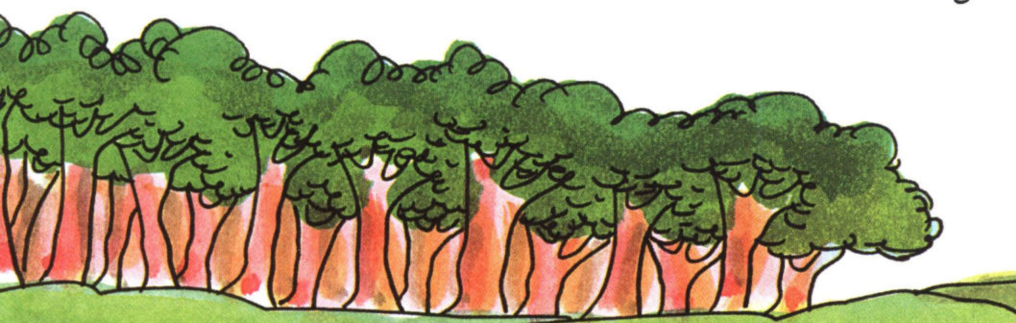
١٠ الجَمَلُ والحِمَارُ

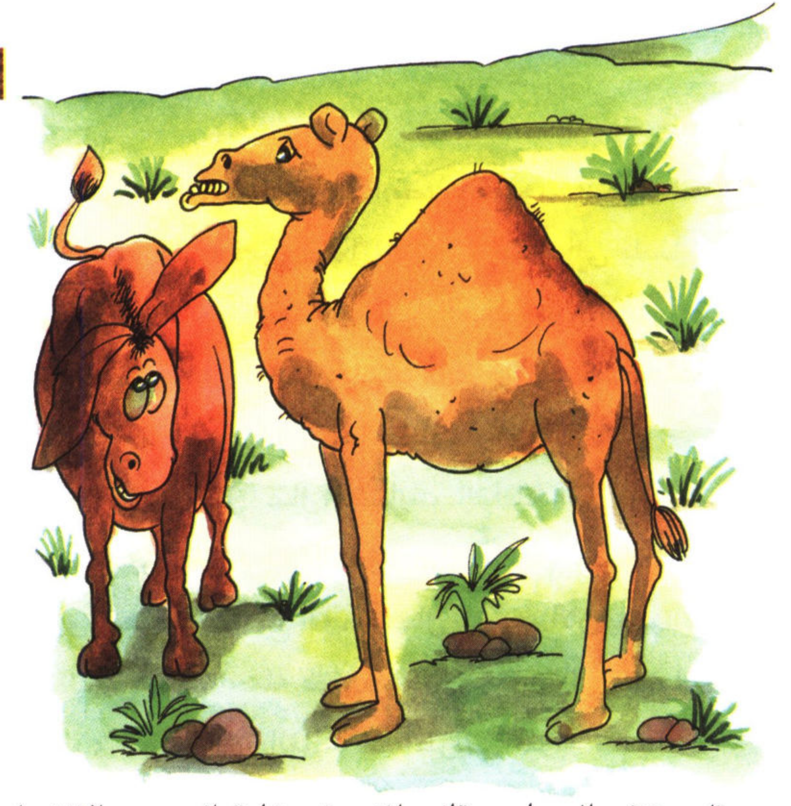
المرافقة موافقة

يُحكى أنَّ جملاً وحماراً هربا من أصحابهما، وترافقا معاً، وسارا حتى وجدا غابة صغيرة من الأشجار، فيها عين جارية، وأعشاب طويلة، وظل ظليل، بعيدة عن عيون الناس والحيوانات، فقالا لبعضهما: لا يمكن أن نجد أحسن من هذا المكان، نأكل من العشب ونشرب من الماء، وننام في ظل الأشجار، ونأمن من خطر الإنسان والحيوان.

ودخلوا الغابة وعاشوا فيها أياماً سعيدة هنيئة، يأكلون ويشربون وينامون ويلعبون، لا يعكِّر صفوهم ضربٌ بالعصا، ولا حمل أثقال ولا أي شيء آخر.

ومرَّت الأيام، وبطر الحمار بعد أن شبع واستراح، فقال للجمل: أنا في غاية النشوة والفرح والسرور، وقد هيَّجني ذلك إلى الغناء.. لذلك سأرفع صوتي بالشهيق والصياح، فقال له الجمل: إيّاك أن تفعل، وإن فعلت ذلك كان فيه هلاكك وهلاكي، فقد يسمع صوتك أحد البشر الذين يمرون بالقرب منّا، فيدخل علينا الغابة ويأخذنا ويعيدنا مرةً ثانية إلى الأسر وإلى الضرب والإِهانة وحمل الأثقال بعد أن أنقذنا الله تعالى من كل ذلك.





فلم يقتنع الحمار، وقال: إنني في غاية السرور والانشراح ولا بد من الغناء.. وأخذ (ينهق) ويصيح!.. وكانت قافلة تمر بالقرب من المكان فسمعت صوت الحمار، فقال صاحب القافلة: إن هاهنا حماراً وهو ضروري لنا وللقافلة، فلندخل ولنأخذه، فدخلوا إلى الغابة فوجدوا الحمار والجمل، وهما في غاية السمن والقوة بسبب الطعام الوفير والراحة، فأحاطوا بهما وأمسكوا بهما، وفرحوا بهما كثيراً لأنهما ضروريان لحمل أثقال القافلة.

وسحب أصحاب القافلة الجمل والحمار وساروا، فقال الجمل للحمار: هل أعجبك هذا؟! نصحتك ألا تغني فلم تقتنع، حتى أوقعنا غناؤك في البلاء والتعب مرة أخرى، أهكذا المرافقة؟! المرافقة يجب أن تكون موافقة.. فسكت الحمار ولم يجب، وماذا يستطيع أن يقول بعد أن وقع البلاء؟!.

وبعد أن ساروا قليلاً تعب الحمار فهو قد اعتاد على الراحة والكسل، فعَتّرس ووقف في الطريق ولم يعد يمشي معهم، فضربوه ودفعوه، ولكنه

بقي معترساً ولم يمشِ، فقال بعضهم: ماذا نصنع مع هذا الحمار العنيد؟ فقال الآخرون: احملوه على ظهر الجمل إلى أن نصل إلى بلدنا فنرى ما نصنع به، عند ذلك أناخوا الجمل وحملوا الحمار على ظهره، فصار الجمل يتميز من الغيظ، وقال للحمار: إن بركات غنائك كلها حلَّت عليَّ وحدي، ولكن بسيطة معك، وسوف أردها عليك.

وفي الطريق صادفهم جبل عالٍ، فسارت القافلة بما فيها الجمل والحمار في طريقٍ ضيقٍ على سفح الجبل، عن يمينهم جبلٌ عالٍ، وعن يسارهم وادٍ سحيق، وهنا حبكت مع الجمل فقال لنفسه: الآن يحلو الانتقام من هذا الحمار اللعين الذي أحمله فوق ظهري، فالتفت إلى الحمار وقال له: إن غناءك الذي غنيته في الغابة قد أطربني طرباً شديداً، وهيج نفسي إلى القفز والرقص، لذلك فإنني سأرقص الآن، فقال له الحمار: أرجوك ألَّا تفعل، أتوسل إليك ألَّا تفعل، إن رقصت فإنني سأقع عن ظهرك وأموت، ألست رفيقك؟! ألم تقل: إن المرافقة موافقة؟! فقال له الجمل: هل الموافقة عليَّ وحدي؟! ألم أتوسل إليك ألَّا تغني لئلا يسمعنا أحد فلم تقبل؟! لذلك لا بدَّ من الرقص الآن.

وأخذ الجمل يقفز ويرقص حتى وقع الحمار عن ظهره فانكسر عنقه ومات.. فتركته القافلة هناك فريسة للسباع، وأخذوا الجمل معهم وصاروا يحملون عليه الأحمال الثقال.

وهذه هي نتيجة الاختلاف، إذْ هلك الحمار وعاد الجمل إلى الشقاء، ولو توافقوا لما حلَّ بهم كل هذا البلاء.



الرفيق قبل الطريق، والجار قبل الدار، والمرافقة موافقة.

١١ الثِّيرانُ الثلاثةُ والأسدُ

الاتحاد قوة والتفرّق ضعف[١]

كان يعيش ثلاثة ثيران في غابة من الأشجار، أحد الثيران كان أبيض اللون، والثاني أسود اللون، والثالث ترابي اللون.. وكان في الغابة أعشاب طويلة يأكلون منها، وعين جارية يشربون منها.. وهكذا عاشوا مدة من الزمن سعداء متفاهمين ومتفقين، لا ينغّص عليهم حياتهم أحدٌ من البشر أو من الحيوان.

وفي يوم من الأيام مرّ من ذلك المكان أسد فأعجبته الغابة، وعندما دخلها رأى الثيران الثلاثة، فسلّم عليهم فردّوا عليه السلام، فقال لهم: هل تقبلوني عندكم ضيفاً بضعة أيام؟ فقال الثيران الثلاثة لبعضهم: وماذا يستطيع الأسد أن يصنع معنا ونحن ثيران ثلاثة أقوياء؟!.. لذلك قالوا له: تفضل، أهلاً وسهلاً بك ضيفاً علينا.

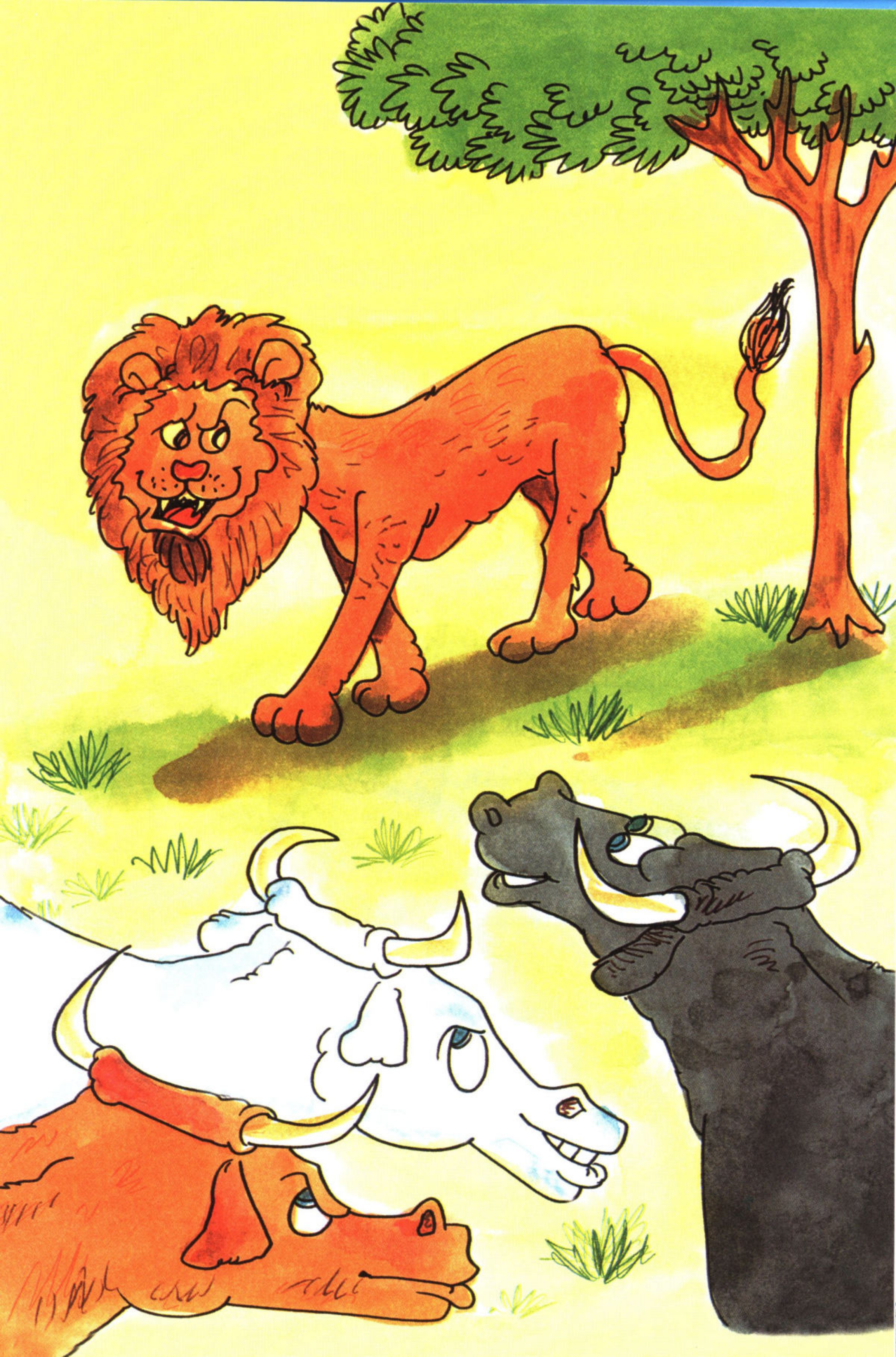
وهكذا عاش الأسد معهم في الغابة، هم يأكلون الأعشاب، وهو يأكل

---

(١) يقول الشاعر:

كونوا جميعاً يا بَني إذا عدا خَطْبٌ ولا تتفرقوا أفرادا

تأبى الرماح إذا اجتمعْنَ تكسُّراً وإذا افترقنَ تكسَّرَتْ آحادا



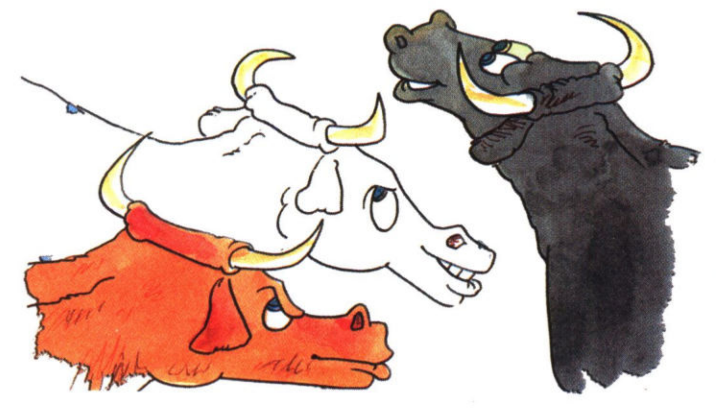
من الغزلان والمواشي التي تعيش في ذلك المكان.. ولا يستطيع الاعتداء على الثيران، لأنهم متحدون ومتفاهمون ومتحابون، لا يفترق بعضهم عن بعض مطلقاً.

ومرّت الأيام، وأخذت الغزلان والمواشي تهرب من ذلك المكان بعد أن رأت الأسد يفتك بها ويأكلها.. وأخذ الأسد يجوع، ففكّر في أكل الثيران، ولكن كيف السبيل إلى ذلك، وهي ثلاثة وهو واحد، لا يستطيع التغلب عليها مجتمعة؟!.

لذلك فكّر في تفريقها عن بعضها، فأخذ يتودد إلى الثورين الأسود والترابي حتى وثقا به وأحبّاه.. وفي يوم من الأيام قال لهما، للأسود والترابي: هذا الثور الأبيض سيفضحنا في يوم من الأيام، لأن لونه الأبيض يظهر بوضوح لكلِّ من يمرّ من هذا المكان.. أما نحن، أنا وأنتما، فألواننا من لون التراب وظلّ الشجر، لذلك إذا مرَّ أحد من البشر في هذا المكان فإنه سيرى الثور الأبيض، وعند ذلك سيدخل الغابة ويقتلنا أو يطردنا منها.. فقال الثوران، الأسود والترابي: صدقت فيما قلت، فما العمل؟..

قال الأسد: دعونا نتخلص منه ومن خطره علينا. قالا: وكيف ذلك؟ قال الأسد: أنا آكله وأخلِّصكم منه.. فوافق الثوران على ذلك، وعند ذلك ذهب الأسد إلى حيث يرعى الثور الأبيض وهجم عليه وافترسه وأكله، والثوران الأسود والترابي ينظران إليه دون أن يخفّا إلى مساعدته.

وبعد مدة جاع الأسد مرة أخرى، فأتى إلى الثور الترابي اللون، وقال له سرّاً: أنت لونك مثل لوني، ومن يرانا معاً يظننا أسدين فيخافنا ويبتعد عنا، أما هذا الثور الأسود، فلونه غير لوننا، وقد يفضحنا بلونه، لذلك أرى أن تدعني آكله فنتخلص منه ومن خطره علينا، ونعيش أنا وأنت كرفيقين متحابين لا يستطيع أحدٌ الاقتراب منّا.. فوافقه الثور الترابي على



ذلك، فذهب الأسد إلى حيث يرعى الثور الأسود وهجم عليه وأكله، والثور الترابي ينظر إليه.

وبعد مدة أخرى جاع الأسد مرة أخرى، فقال للثور الترابي: أنا جائع، ولم يبق غيرك، لذلك سوف آكلك، فقال له الثور: وكيف ذلك؟! ألم تقل: إننا سنعيش كأخوين متحابين؟! فقال الأسد: دعك من هذا، فليس بين القوي والضعيف أخوة ولا حب، وعندما يجوع القوي، فلا بد له من أكل الضعيف!.. ورأى الثور نفسه وحيداً، لا يستطيع مقاومة الأسد، وندم على سماحه للأسد بافتراس الثورين الأبيض والأسود، ولكن لا ينفع الندم الآن، وأيقن بالهلاك، فقال للأسد: قبل أن تأكلني دعني أصيح صوتاً، فسمح له، فوقف وصاح قائلاً: إنما أُكلت يوم أُكل الثور الأبيض.

وهكذا يا أبنائي، عندما تفرقت الثيران استطاع الأسد أن يأكل الواحد منها بعد الآخر.. ولو بقيت الثيران مُتَّحِدَةً لما استطاع أن يأكلها، وهذا ما يفعله الاستعمار واليهود ليقضوا على مخالفيهم، أي سياسة: فرِّقْ تسد، يفرقون الشعوب عن بعضها البعض، وعند ذلك يقضون عليها الواحد تلو الآخر.. هذه هي سياستهم دائماً، وإياكم أن تنسوا ذلك أبداً.

العبرة من القصة

الاتحاد: قوة، والتفرق والاختلاف: ضعف.



١٢ جَزَاءُ الغَدْرِ

كان يعيش في إحدى الغابات ثعلبان، الأول: اسمه صالح، والثاني: اسمه غادر، وكانا صديقين، يصطادان معاً، ويأكلان فريستيهما معاً.. وكان لكلٍّ واحد منهما جُحْرٌ خاصٌّ به وحده.

ومرت الأيام على ذلك بينهما.. وفي أحد الأيام أتى غادر ليدخل جُحْرَه، بعد أن أكل الفريسة هو وصالح وشبعا، فوجد في جحره حية عظيمة قد استولت على الجحر وسكنت فيه، فارتد عن الجحر فزعاً، ولم يستطع الدخول؛ لأنه لو دخل لنهشته الحية وقتلته حالاً، وذهب إلى صالح ليشكو إليه أمره، فدعاه صالح إلى الدخول إلى جحره، وقال له: اسكنْ معي الآن في جحري بينما نفكر في طريقة نُخرج بها الحية من جحرك، فالبيت الضيق يسع ألف صديق كما يقول المثل.

فدخل غادر إلى جحر صالح وسكن عنده مؤقتاً، وعندما دخل رأى جحراً واسعاً نظيفاً، أفضل من جحره بكثير.. فطمع فيه، وصار يفكّر في طريقة يأخذ بها جحر صديقه ويغدر به!.. وهكذا كان صالح يفكّر في طريقة لإخراج الحية من جحر صديقه غادر، وكان غادر يفكّر في طريقة للاستيلاء على جحر صديقه صالح!.. فلننظر ماذا سيكون الجزاء؟.

نام الثعلبان في جحر الثعلب صالح، وأخذا يتسامران قبل النوم واضطجعا ليناما، وفجأة جلس صالح وقال: وجدتُها، فقال له غادر: ماذا وجدت؟ قال: وجدت طريقة لإخراج الحية من الجحر. قال غادر: وكيف نخرجها، أو نقترب منها، وهي حية كبيرة سامة؟ قال صالح: سأقول لك كيف: نجمع حطباً من الغابة، ثم ننقله ونضعه على باب جحرك، ونأتي بعود من الحطب في رأسه نار من خيام الأعراب النازلين حولنا، ونشعل الحطب، فيدخل دخانه إلى الجحر، فإما أن تبقى الحية في الجحر فتختنق بالدخان وتموت، أو تخرج من الجحر فتحترق بالنار وتموت أيضاً.. فوافق غادر على هذه الخطة.

وفي الصباح ذهبا إلى الغابة وصارا يجمعان الحطب ويحملانه بفميهما ويكوّمانه أمام جحر صالح، استعداداً لنقله إلى جحر غادر، وعندما اكتمل جمع الحطب، قال غادر لصالح: اذهب أنت إلى خيام الأعراب لتأتي بقطعة من الحطب فيها نار، وسأحمل أنا الحطب إلى أمام جحري، فذهب صالح لإحضار النار، وعند ذلك استغل غادر غيابه وسحب الحطب إلى فوهة جحر صالح بدلاً من حمله إلى جحره، ودخل إلى جحر صالح وسحب كومة الحطب وراءه حتى سدّ بها فوهة جحر صالح تماماً، ليمنع صالح من دخوله، وجلس هو داخل الجحر ليستولي عليه ويطرد منه صالحاً تماماً.



أما صالح فأتى بعود في رأسه نار وعندما وصل إلى جحر غادر لم يجد شيئاً من الحطب هناك.. فذهب إلى جحره فوجد الحطب لا يزال هناك، ولكنه لم يجد غادراً، فصار يصيح: غادر، غادر، فلا يرد عليه أحد.. فوضع عود النار على الأرض وذهب ليفتش عن غادر، وكان في الأرض أعشاب يابسة، وكانت الريح قوية، فاشتعلت الأعشاب اليابسة بفعل النار والريح، وامتدت النار إلى كومة الحطب التي تسد فوهة جحر صالح فاشتعل الحطب بأجمعه، ودخل الدخان إلى داخل جحر صالح حيث يختبئ غادر، فشعر غادر بالاختناق وحاول الخروج فوجد النار أمامه، فقذف بنفسه فيها فاشتعل شعره واحترق جسمه وتفحَّمَ ومات.. وهذا جزاء الغدر.

وعاد صالح فوجد أن الحطب قد احترق واحترق معه صديقه غادر في فوهة الجحر، فعرف عند ذلك أن صديقه كان مختبئاً داخل الجحر ليستولي عليه، فتأسّف عليه، وقال: أهذا جزاء الصداقة؟! أنا كنت أفكّر في طريقة لإخراج الحية من جحره وإعادته إليه، وهو كان يدبر للاستيلاء على جحري!..

العبرة من القصة

من حفر حفرة لأخيه وقع فيها.

١٣ النَّملَةُ والصَّرْصُورُ

الجدّ والعمل، والغناء والكسل

كلنا رأى النملة تذهب وتروح، تحمل الطعام إلى بيتها، لا تكلُّ ولا تملُّ، نراها تحمل حبة من القمح أو من الشعير، أو ذبابة ميتة، أو قطعة من الخبز أو غيرها، وقد يكون وزن ما تحمله يفوق وزنها مرات ومرات!.. وقد تعجز أحياناً عن متابعة الحمل، فتغيب قليلاً ثم تعود ومعها عدة نملات أُخريات فيتعاونّ جميعاً على حمل أو سحب ما عجزت النملة وحدها عن حمله أو سحبه.

والنمل يعيش في مملكة كاملة، فيها ملكة، وعمال يعملون وينقلون الغذاء ويخزّنونه إلى وقت الحاجة، وجنود يدافعون عن المملكة عند الحاجة.

والنملة تعلم أنها إذا خزّنت الحبوب كالقمح والشعير وغيرها كما هي؛ فإنها ستنبت وتفسد ولا يستفاد منها عند الحاجة، لذلك فهي تقسم حبات القمح والشعير وغيرها إلى جزأين فتبقى سالمة كما هي، ولا تنبت ولا تفسد. أما حبوب الكزبرة فإنها تنبت حتى ولو قسمت إلى جزأين، لذلك تقسمها النملة إلى أربعة أجزاء لكي لا تنبت ولا تفسد! فمن علَّم النملة ذلك؟.. والنمل هو الوحيد بين الحيوانات،

بالإِضافة إلى الغراب، الذي يدفن موتاه في التراب؛ فمن علَّم النملة ذلك؟ إنه الله ﷻ.

ولعلّ كثيراً منّا سمع غناء الصرصور في ليالي الصيف الهادئة، وبخاصة في البساتين والحقول، بصوت حادٍّ طويل، يشبه صوت: زيء، زيء، زيء، زيء، زيء.

وهكذا فالنملة تمضي أيام الصيف كلها في جمع الحبوب والطعام، وتخزينها في بيتها لتأكلها في أيام الشتاء الباردة، لأنها لا تخرج في أيام الشتاء من بيتها خوفاً من البرد.. والصرصور يمضي أيام الصيف كلَّها في الكسل والغناء في الحقول والبساتين، ولا يجمع شيئاً من الطعام لأيام الشتاء الطويلة الباردة، وعندما يأتي الشتاء ويأتي البرد وتنزل الأمطار والثلوج، تجلس النملة في بيتها تحت الأرض تتمتع بالدفء، وتأكل من الطعام الكثير الذي نقلته في أيام الصيف وخبَّأَتْهُ لمثل هذه الأيام، وهكذا تقضي الشتاء وهي دافئة، شبعانة، ريانة، وهذا جزاء الجد والعمل في وقت الجد والعمل، وعندما يأتي الربيع تخرج النملة من بيتها قوية نشيطة لتستأنف عملها من جديد.

أما الصرصور فعندما يأتي الشتاء يختبئ في جحره تحت الأرض، خوفاً من البرد، ولكنه يجوع، ويعضُّه الجوع؛ فهو يحتاج للطعام لكي يعيش، وليس عنده شيء من الطعام، ففي أيام الصيف

الدافئة، بدلاً من أن يجمع الطعام ويخبئه إلى أيام الشتاء الباردة، يمضي تلك الأيام بالكسل والغناء في الحقول والبساتين، (بأيام الحصايد بيكون عم يغني قصايد) أي: في أيام حصاد الحبوب يكون مشغولاً بالغناء، بينما تكون النملة مشغولة بجمع الطعام لأيام الشتاء.

وعندما يجوع كثيراً يذهب إلى بيت النملة ذليلاً حقيراً يطلب منها أن تديّنه شيئاً من الطعام لكي يعيش، على أن يرده إليها في أيام الصيف، فتطرده النملة قائلة: هذا الطعام جمعتُه بعرَقي وتعبي، ولا أفرّط فيه إليك وإلى أمثالك الكسالى، وأنت لا تردّ شيئاً إذا أخذتَهُ، فأنا أعرفك وأعرف أنك (بأيام الحصايد بتكون عم تغني قصايد).

فيعود الصرصور ذليلاً حقيراً، ولكن ماذا يصنع والجوع كافر، إنه يضطر عند ذلك أن يسرق شيئاً من الطعام من أطراف بيت مملكة النمل، وإذا رأته جنود النمل فإنها تهاجمه وتقرصه حتى يموت فتأكله، أو يضطر إلى الخروج من جحره لعلّه يجد شيئاً من الطعام على سطح الأرض، فيواجه البرد والمطر وقد يموت بهما، وهذا جزاء الكسلان الذي لا يعمل في وقت الجد والعمل.

العبرة من القصة

إياك يا بني أن تكون مثل الصرصور الكسلان الذي يمضي وقته باللهو والغناء، فتندم عندما لا ينفع الندم، وكُن مثل النملة العاملة النشيطة التي تعمل بجد ونشاط وقت العمل، ثم تستريح في وقت الراحة، فلا تندم أبداً[1].

---

(١) قال النبي ﷺ: **«ما أكل أحدٌ طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده»** رواه البخاري. رياض الصالحين، رقم (٥٤٢)؛ وقال أيضاً: **«إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه»** رواه أبو يعلى والعسكري.



١٤ حِكَايَةُ المَاش

جزاء الكسل

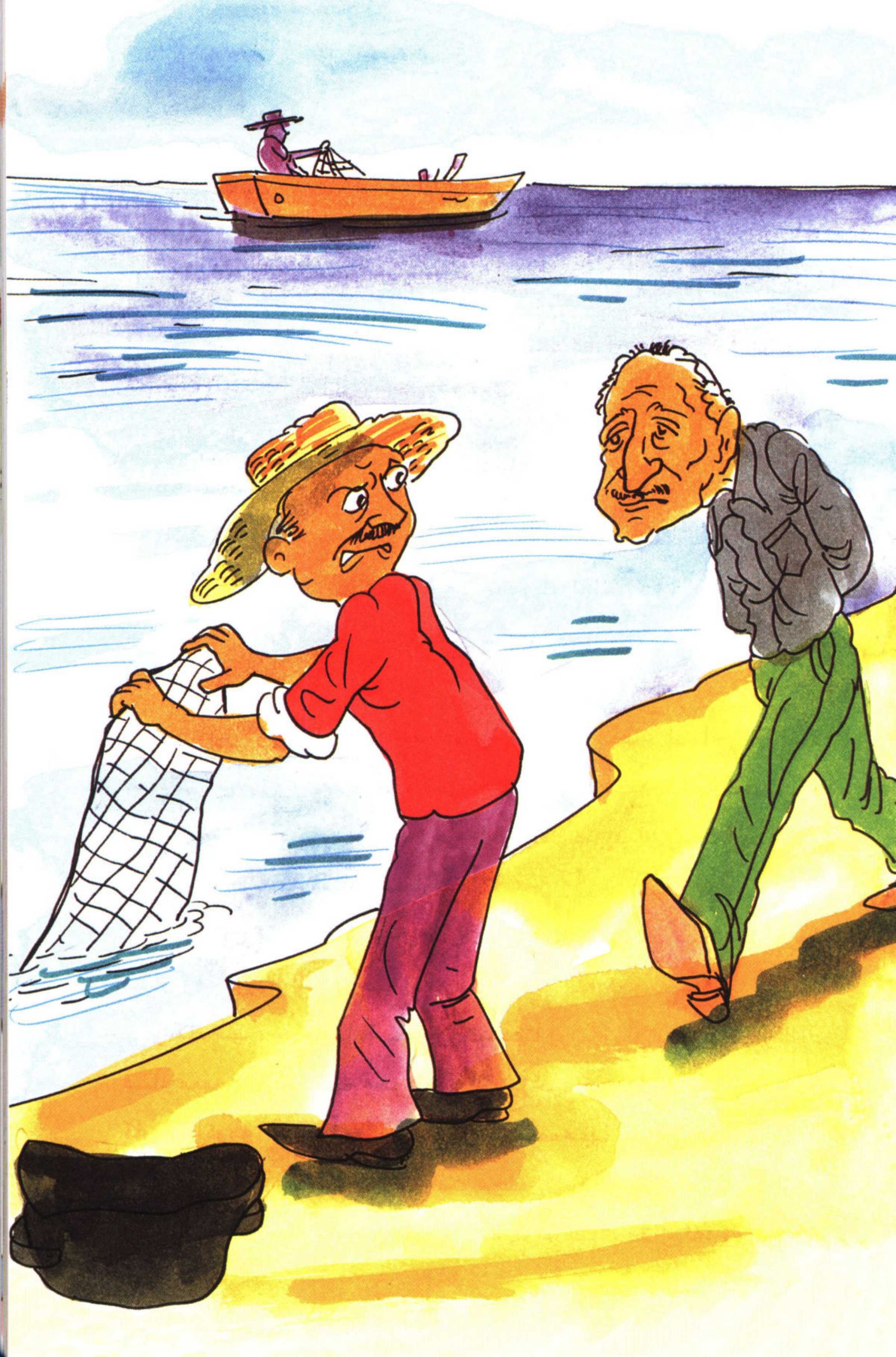
عندما كنتُ صغيراً قالت لي ستي العجوز: اجلس يا بني لأحكي لك حكاية الماش، قلت لها: وما الماش؟ قالت: هو العدس، هكذا كانوا يسمونه في زمن تركيا، فقلت لها: وما هي حكاية الماش؟ قالت:

كان يا ما كان، يا سامعين يا كرام، بعد الصلاة على النبي بدر التمام، وعلى صحابته الكرام؛ كان في (مَرَا)، وزوجها رجل كسلان خيبان، وفي أحد الأيام أرادت الزوجة أن تطبخ (مجدّرة)(١) - أي: كشري - وكان عندها قليل من البرغل، ولكن ليس عندها عدس (ماش)، فقالت لزوجها: قم يا رجل اشترِ لنا (شوية) ماش بدرهم، فقال لها: وأين يوجد الماش؟ قالت: في السوق، قال: السوق بعيد، وأنا أنسى اسم الماش من هنا إلى السوق، فقالت له: لأجل ألَّا تنسى اسم الماش، امشِ وأنت تقول طوال الطريق: ماش ماش ماش.. حتى تصل إلى السوق.

فذهب الرجل وهو يقول: ماش ماش ماش، فمرّ على جسر بيت الشيخ بصياد يرمي بشبكته في الماء ليصطاد بها السمك، فوقف الرجل بجانبه يتفرَّج عليه وهو يقول: ماش ماش ماش.

---

(١) المُجَدَّرَة: طعام يُطبخ من البرغل والعدس، أو من الأرز والعدس، أي: كالكشري في مصر.



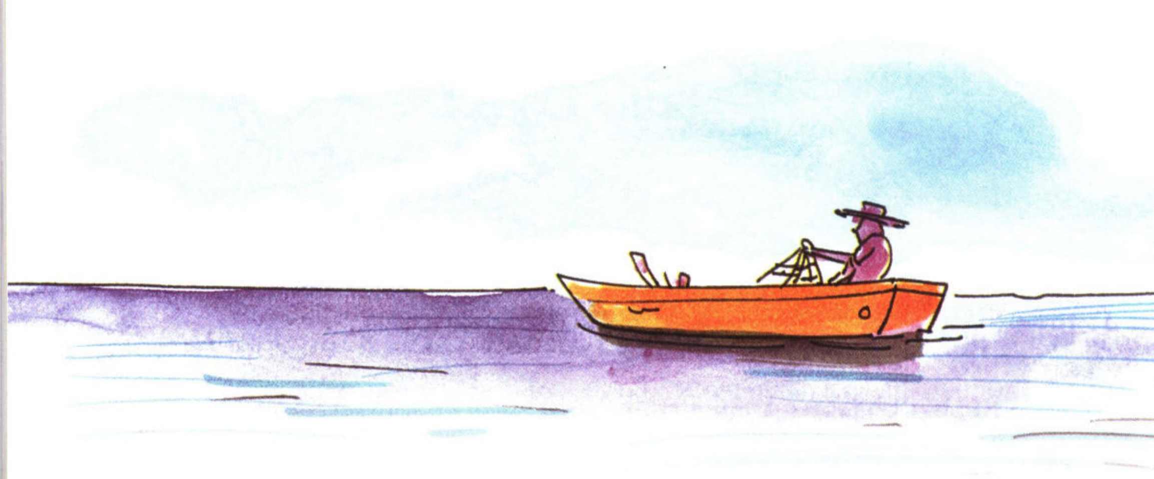
فسحب الصياد شبكته من الماء فلم يجد فيها ولا سمكة واحدة، فشال يده وصفع بها الرجل على وجهه فصاح: أخ، لماذا ضربتني؟! فقال له الصياد: أنت لماذا تقف بجانبي وتقول: ماش ماش ماش؟! لقد نحستني وقطعت رزقي، فقال له الرجل: وماذا أقول إذن؟ قال الصياد: قل: سبعة ثمانية كبار سبعة ثمانية صغار.

فمشى الرجل وهو يقول: سبعة ثمانية كبار، سبعة ثمانية صغار، سبعة ثمانية كبار، سبعة ثمانية صغار.

وأثناء سيره صادف جنازة رجل متوفّى، فسار معهم، والظاهر أن المتوفى كان رجلاً محترماً كريماً محبوباً، لذلك كان أقاربه يسيرون حول جنازته وهم يبكون عليه، فسار معهم الرجل وهو يقول: سبعة ثمانية كبار، سبعة ثمانية صغار، سبعة ثمانية كبار، سبعة ثمانية صغار، فشال أحد أقارب الرجل المتوفى يده وضربه بها على وجهه، فصاح: أخ، لماذا ضربتني؟! فقال له: أنت لماذا تسير معنا وتقول: سبعة ثمانية كبار، سبعة ثمانية صغار؟! ألا يكفيك موت رجل واحد منّا، فتريد أن يموت أيضاً سبعة ثمانية كبار وسبعة ثمانية صغار؟!.

فقال له الرجل: وماذا أقول إذن؟ قال: قل: الله يرحمه كان ما أكرمه، فسار وهو يقول: الله يرحمه كان ما أكرمه، الله يرحمه كان ما أكرمه.

وأثناء سيره مرَّ بجماعة يجرون كلباً ميتاً يريدون أن يرموه خارج البلد، فسار معهم يتفرج عليهم وهو يقول: الله يرحمه كان ما أكرمه، الله يرحمه كان ما أكرمه، فشال أحد الجماعة يده وصفعه بها على خده، فصاح: أخ، لماذا ضربتني؟! فقال له: هل أنت مجنون؟! كيف تقول عن هذا الكلب الميت: الله يرحمه كان ما أكرمه؟! ألا تراه كلباً؟! فقال له: وماذا أقول



إذن؟ قال له: لا تقل شيئاً، ماش، قال: اللّٰه يجزيك الخير، هذا ما تريده زوجتي، لقد ذكرتني به، وذهب وهو يقول: ماش ماش ماش، حتى وصل إلى السوق فاشترى ماشاً بدرهم، وعاد إلى البيت وقد تورّم وجهه وانتفخ من كثرة الصفعات.

وهذا جزاء الكسلان الخيبان.



١٥ بالشُّكْر تَدُومُ النِّعَمُ

وبالبخل والكذب تزول

قالت لي جدتي العجوز: هل تعرف قصة الثلاثة التي حكاها النبي ﷺ لأصحابه لكي يعرفوا: أن النعم تدوم بالشكر والكرم، وتزول بالبخل والكذب؟ فقلت لها: إنني لا أعرفها؛ فما هي حكايتها؟ قالت: قال النبي محمد ﷺ لأصحابه يوماً ما معناه[١]:

كان يعيش في إحدى البلدان ثلاثة رجال: **الأول منهم**: مصاب بالبرص، وهو مرض يصيب الجلد، ويجعل صاحبه قبيح المنظر لا يقترب منه أحد. **والثاني**: أقرع قد سقط الشعر من رأسه، وحلّ محله قشور وقروح رائحتها كريهة. **والثالث**: أعمى.

وكانوا جميعهم يدعون ربهم: أن يشفيهم من أمراضهم، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يختبر صدقهم؛ لذلك استجاب دعاءهم، فأرسل لهم مَلَكاً في صورة رجل، أتى إلى الرجل الأول الأبرص، وقال له: ماذا تتمنى أن تكون؟ قال: أتمنى أن أشفى من برصي هذا لكي لا يهرب مني الناس، وأن يكون لي إبل كثيرة لأنني أحبها كثيراً.. فمسح بيده على جلد الأبرص، ودعا له، فشُفِي من برصه، وأصبح له جلد جميل، وأعطاه ناقة حاملاً.

---

(١) هذه القصة مأخوذة من حديث متفق عليه، رواه أبو هريرة رضي الله عنه، وذكره النووي رحمه الله، في باب المراقبة من كتابه: رياض الصالحين. وجاء في كتاب :جامع الأصول، تحت رقم (٧٨٢٥).



ثم ذهب إلى الثاني الأقرع، وقال له: ماذا تتمنى أن تكون؟ قال: أتمنى أن أُشفى من هذا القرع وهذه القروح في رأسي، وأن يصبح لي شعر جميل ورائحة طيبة، لكي لا يكرهني الناس، وأن يكون لي بقر كثير لأنني أحبها كثيراً.. فمسح بيده على رأسه، ودعا له، فشفي من قرعه، ونبت له شعر جميل، وأعطاه بقرة حاملاً.

ثم ذهب إلى الثالث الأعمى وقال له: ماذا تتمنى أن تكون؟ قال: أتمنى أن يعود إليَّ بصري؛ لكي أرى الدنيا من حولي، وأن يكون لي غنم كثيرة لأنني أحبها كثيراً.. فمسح بيده على عينيه، ودعا له، فعاد إليه بصره، وصار يرى ما حوله، وأعطاه نعجة حاملاً.

وبعد بضع سنوات صار عند الأول (الأبرص) إبل كثيرة من الناقة التي أخذها، وصار عند الثاني (الأقرع) بقر كثير من البقرة التي أخذها، وصار عند الثالث (الأعمى) غنم كثيرة من النعجة التي أخذها.

عند ذلك أرسل الله ﷻ إليهم المَلَك مرة ثانية في صورة رجل؛ لكي يختبر صدقهم وشكرهم للنعمة التي أصبحوا فيها.

فذهب المَلَك إلى الرجل الأول الذي كان أبرص وشفاه الله تعالى، ذهب المَلَك إليه وهو في صورة رجل أبرص قبيح المنظر، فطرق عليه الباب ودخل، وقال له: إنني رجل أبرص مريض كما ترى.. وأنا فقير وضعيف فأعطني جملاً من عندك أقطع به الطريق. فقال له: ابتعد عني ولا تقترب مني؛ فإنك مريض ومنظرك كريه، وأنا عندي نفقات كثيرة؛ لذلك لا أستطيع أن أعطي شيئاً دون ثمنه.. فقال له المَلَك الذي هو في صورة رجل أبرص: كأنني أعرفك، ألست أنتَ الذي كنتَ أبرص فشفاك الله؟ وكنتَ فقيراً فأغناك الله؟ قال: لا، لم أكن أبرص ولا فقيراً، وهذا المال ورثته عن آبائي وأجدادي. فدعا المَلَك اللهَ وقال: اللّهم إن كان كاذباً فأرجعه كما كان، فعاد كما كان: أبرص، قبيحاً، فقيراً، فصار يبكي ويضرب وجهه بيديه، وندم.. ولكن حين لا ينفع الندم.

ثم ذهب المَلَك إلى الرجل الثاني الذي كان أقرع كريه الرائحة وشفاه الله تعالى.. ذهب إليه في صورة رجل أقرع فقير، فطرق عليه الباب ودخل، وقال له: إنني رجل أقرع فقير، وقد انقطعتُ في الطريق، فأعطني

بقرة من عندك أستعين بها في سفري. فقال له: ابتعد عني ولا تقترب مني؛ فإنك أقرع كريه الرائحة، وأنا عندي نفقات كثيرة؛ لذلك لا أستطيع أن أعطي شيئاً دون ثمنه. فقال له المَلَك الذي هو في صورة رجل أقرع: كأنني أعرفك، ألست أنتَ الذي كنتَ أقرع فشفاك الله؟ وكنتَ فقيراً فأغناك الله؟ قال: لا، لم أكن أقرع ولا فقيراً، وهذا المال ورثته عن آبائي وأجدادي. فدعا المَلَك اللهَ قال: اللّهم إن كان كاذباً فأرجعه كما كان. فعاد كما كان: أقرع، كريهاً، فقيراً. فصار يبكي ويضرب وجهه بيديه، وندم.. ولكن حين لا ينفع الندم.

ثم ذهب المَلَك إلى الرجل الثالث الذي كان أعمى وشفاه الله تعالى؛ ذهب إليه في صورة رجل أعمى فقير، فطرق عليه الباب ودخل، وقال له: إنني رجل أعمى فقير منقطع في الطريق كما ترى، فأعطني نعجة من عندك أستعين بها على فقري وانقطاعي. فقال له: يرحمك الله يا أخي، والله لقد كنتُ أعمى مثلك فشفاني الله، وكنت فقيراً فأغناني الله، فخذْ ما تشاء من هذا المال، فهو مال الله. فقال له المَلَك وقد فتح عينيه: احفظ عليك مالك؛ فما أنا أعمى ولا فقير، ولكنّ الله سبحانه أرسلني لأختبر صدقك وشكرك للنعم، فرضي عنك وغضب على صاحبيك.

وقالت جدتي: أرأيت يا بني كيف تدوم النعم بالصدق والشكر والكرم، وتزول بالبخل والكذب؟ فكن دائماً صادقاً كريماً؛ تَعِشْ غنيّاً محبوباً ومحترماً.

العبرة من القصة

تدوم النعم بالشكر ومساعدة الفقراء والمحتاجين.

١٦ جُحَا وابْنُهُ وحِمَارُهُ

إرضاء الناس غاية لا تُدرَك

كان جحا يعيش في إحدى القرى، وكانت عنده دكان يبيع فيها البضاعة، وحمار ينزل عليه إلى المدينة، يشتري منها البضاعة ويحملها على الحمار إلى القرية، فيبيعها ويربح بها، ويعيش من ربحها هو وزوجته وابنه وحماره.



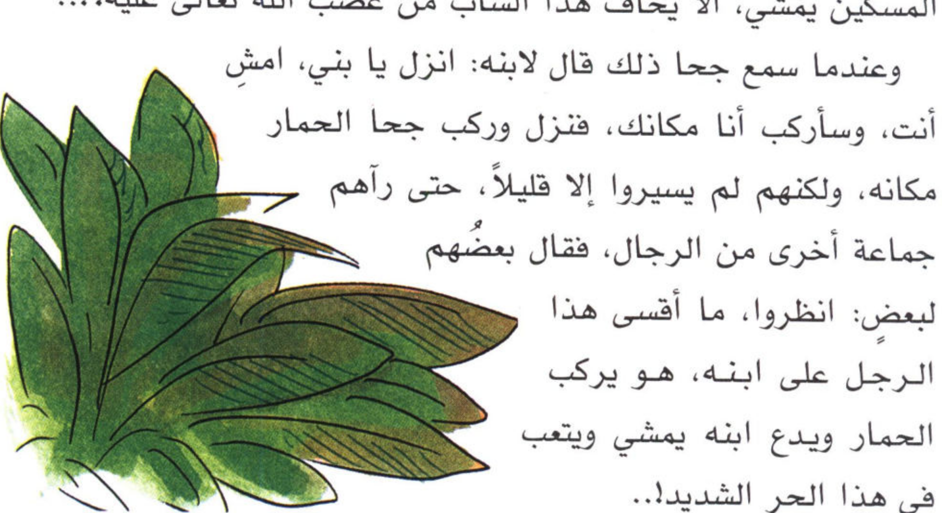
وعندما كبر ابنه وصار عمره نحو خمسة عشر عاماً، صار يطلب من أبيه أن يأخذه معه إلى المدينة ليتفرّج عليها، ثم أخذ يلحّ عليه من أجل ذلك، وكذلك زوجته، فالولد أصبح شابّاً وهو يسمع بالمدينة ولا يعرفها ويريد أن يراها.. وجحا كل مرة يقول له: في المرة القادمة آخذك إن شاء الله تعالى، لأنني أخاف عليك أن تتعب في الطريق. وكان الولد يقول له: ولماذا أتعب؟! وإذا تعبت فمعنا الحمار أركب عليه.

وأخيراً أخذ جحا ابنه معه إلى المدينة، ركب هو وابنه الحمار وساروا في الطريق إلى المدينة، وما أن ساروا قليلاً حتى رآهم جماعة من الرجال، فقال بعضُهم لبعضٍ: انظروا ما أظلم هذا الرجل! إنه يركب هو وابنه معاً على هذا الحمار المسكين، ألا يخاف الله تعالى؟!..

وعندما سمع جحا ذلك، نزل عن ظهر الحمار وترك ابنه وحده راكباً عليه لئلا يتعب بالمشي، فالطريق طويل.

وبعد أن ساروا هكذا قليلاً رآهم جماعة أخرى من الرجال، فقال بعضُهم لبعضٍ: انظروا، الشاب القوي يركب الحمار، والشيخ الضعيف المسكين يمشي، ألا يخاف هذا الشاب من غضب الله تعالى عليه؟!..

وعندما سمع جحا ذلك قال لابنه: انزل يا بني، امشِ أنت، وسأركب أنا مكانك، فنزل وركب جحا الحمار مكانه، ولكنهم لم يسيروا إلا قليلاً، حتى رآهم جماعة أخرى من الرجال، فقال بعضُهم لبعضٍ: انظروا، ما أقسى هذا الرجل على ابنه، هو يركب الحمار ويدع ابنه يمشي ويتعب في هذا الحر الشديد!..



وعندما سمع جحا ذلك، احتار في أمره ماذا يفعل؟!.. فنزل عن ظهر الحمار، وسار هو وابنه وسحبوا الحمار وراءهم.

ولم يسيروا إلا قليلاً حتى رآهم جماعة أخرى من الرجال، فقال بعضُهم لبعضٍ: انظروا إلى هذين المجنونين، هما يمشيان في هذا الحر الشديد ويسحبان الحمار وراءهما، ولا يركبانه ويستفيدان منه، وهل خلقه الله تعالى إلا للركوب وحمل الأثقال؟!..

وعندما سمع جحا ذلك كاد يُجن ويشق ثيابه، وقال: يا رب، احترتُ ماذا أصنع مع الناس؟!.. ثم قال: الصحيح أن إرضاء الناس غاية لا تُدرك. بحسب المرء أن يرضي الله سبحانه وتعالى وكفى، ولا ينظر إلى كلام الناس.. وركب هو وابنه الحمار وسارا إلى المدينة لا يلويان على شيء، وهنا اشترى جحا بضاعته، وعاد بها هو وابنه إلى القرية، وقد سدّ أذنيه عن سماع كلام أحد من الناس[1].



لا تنظر إلى كلام الناس، ولكن انظر إلى رضا الله سبحانه وتعالى.

---

(١) يقول النبي ﷺ: «**من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**» رواه الترمذي. رياض الصالحين، رقم (٦٧).

١٧ امرأةٌ تُضيِعُ ثلاثَ دَعَواتٍ صَالحاتٍ

كان من المعروف في بني إسرائيل في الزمن القديم: أنّ من يعبد الله ﷻ أربعين سنة عبادة صادقة مخلصة، لا يرتكب صغيرة ولا كبيرة من الذنوب، يستجيب الله تعالى له ثلاث دعوات.

وكان (كرسف) من بني إسرائيل رجلاً متعبِّداً زاهداً صالحاً، يخشى الله ولا يسيء إلى أحد، يعيش مع زوجته وأولاده بالقناعة والكفاف، وقد عبدَ اللهَ ﷻ أربعين سنةً متصلةً.. وآن له أن يدعو الله تعالى ثلاث دعوات صالحات.. ولكنه احتار بماذا يدعو الله تعالى، فهو لا يريد شيئاً من حطام الدنيا.

وأخيراً رأى أن يستشير زوجته في أمر الدعوات الثلاث.. فقال لها: إني عبدتُ الله تعالى أربعين سنة متصلة، وأستطيع الآن أن أدعو الله تعالى ثلاث دعوات، لا أظن أنه يخيبها لي، ولكنني محتار بماذا أدعوه!.. فقالت له زوجته: ألا أدلك على دعوة إذا استجيبت فإنها ستسعدك وتسعدني؟ قال لها: وما هي؟ قالت: ادعُ الله تعالى أن يجعلني أجمل امرأة، فأنا امرأتك، وسأصبح سعيدة عندما أصبح أجمل امرأة، وأنت زوجي ستنظر إليّ بحب وإعجاب، وستتمتع بجمالي، وستصبح سعيداً كلما نظرت إليَّ.

فدعا (كرسف) ربَّه أن يجعل زوجته أجمل امرأة.. فاستجاب الله ﷻ دعوته، وأصبحت زوجته أجمل امرأة.. ونظرت زوجته في المرآة فرأتْ جمالاً لا مثيل له، ولم يخطر لها على بال، فأُعجبتْ بنفسها وشكرتْ زوجها على دعوته.



ولكنها بعد أيام أصبحت تضيق بزوجها، وبعبادته وبزهده، فهو دائم العبادة لا يهتم بها ولا بتسليتها، وهو يكتفي بالقليل من الطعام، والخشن من اللباس، وهي ترى أن جمالها أصبح جديراً بالملوك الأغنياء لا بالزهَّاد الفقراء، وتريد أن تتمتع بأطيب الطعام وألين اللباس، وتريد أن تتزين بالجواهر واللآلئ.. وزوجها لا يستطيع أن يقدم لها ذلك.

لذلك صارتْ تهمل بيتها وزوجها وأولادها، وصارت تتزين وتتبهرج وتخرج إلى الشوارع والأسواق، فيفتتن بجمالها الرجال والشباب، ويتبعونها من مكان إلى مكان.

وعندما رأى (كرسفُ) ذلك نصحها أن تكفَّ عن أعمالها هذه التي تسيء إليها وإليه، وإلى سمعته كعابد زاهد، وهي حرام لا يجوز عملها، وذكّرها بقولها: إن جمالها سيكون له وحده.. فلم تسمع نصيحته، لذلك دعا الله ﷻ دعوته الثانية، وهي أن يمسخ زوجته ويحولها إلى دابة جزاء فعلها هذا، فاستجاب الله تعالى دعوته، وتحولت زوجته إلى قردة، لا تستطيع الكلام، صارت تدور في البيت، وتحوم حول زوجها وأولادها وهي حزينة تبكي وتنهمر دموعها باستمرار، كأنها تستغيث بزوجها وبأولادها، ولكنها لا تستطيع الكلام.

واضطر (كرسفُ) أن يرعى أولاده ويهتم بشؤونهم وبطعامهم ولباسهم، فشغله ذلك عن عبادته وانقطاعه إلى ربه، وصار الأولاد يتألمون لألم أمهم، وتحولها إلى قردة لا تستطيع الكلام، وهم يرونها أمامهم تبكي باستمرار، لذلك طلبوا من أبيهم أن يدعو الله ﷻ ليعيدها كما كانت أول مرة.

فرفع (كرسفُ) رأسه إلى السماء ودعا الله ﷻ دعوته الثالثة، وهي أن يعيد زوجته إلى ما كانت عليه في خلقتها الأولى، فاستجاب الله تعالى دعوته، وعادت زوجته كما كانت أول مرة، قبل أن يدعو دعوته الأولى.. وحمدوا جميعهم الله ﷻ على خلاصهم من هذه المحنة التي أصابتهم.

وهكذا ضاعت ثلاث دعوات صالحات بسبب غرور المرأة وحبها لنفسها، وتعلّقها بالدنيا وزخارفها.



الصِّحَّةُ نِعْمَةٌ لا تُقدَّرُ بِثَمَنٍ

كان يا ما كان، كان رجل فقير وعنده عائلة كبيرة وأولاد كثيرون، يحتاجون إلى مال كثير كل يوم، وهو يكدّ ويكدح ويعمل من الصباح إلى المساء، ولا يكاد يكفي احتياجاتهم، حتى يئس من حياته، وقرر أن يمشي في الصحراء إلى أن يموت.

غادر منزله في الصباح دون أن يُخبر أهله، وذهب يمشي ويمشي حتى تعب، ووجد في طريقه شجرة فجلس تحتها ليستريح قليلاً، وغلبه التعب فنام، ورأى في منامه كأن طائرين كبيرين أتيا ووقفا على الشجرة، وصارا يتكلمان كما يتكلم الإنسان، قال أحدهما للآخر: انظر إلى هذا النائم تحتنا، إنه يظن نفسه فقيراً وهو من أغنى الأغنياء؛ لأنه سليم الجسم، فقال الآخر: صدقت، فأنا مثلاً أشتري كل عين من عينيه بعشرة آلاف دينار، وهي تساوي أكثر من ذلك، وأشتري كل أُذن من أذنيه بعشرة آلاف دينار، وهي تساوي أكثر من ذلك، وأشتري أنفه بعشرة آلاف دينار، وهو يساوي أكثر من ذلك.

فقال الأول: صدقت، وأنا أشتري كل يد من يديه بسبعة آلاف دينار، وهي تساوي أكثر من ذلك، وأشتري كل رجل من رجليه بسبعة آلاف دينار، وهي تساوي أكثر من ذلك، وأشتري إحدى كليتيه بعشرة آلاف دينار، ونصف كبده بعشرة آلاف دينار، وإحدى رئتيه بعشرة آلاف دينار، وهي تساوي أكثر من ذلك بكثير.

فقال الآخر: إذن فهذا الرجل غني؛ لأنه يملك أعضاء صحيحة سليمة، فكيف يظن هذا المسكين نفسَهُ فقيراً؟!.



ثم طار الطائران من الشجرة، وانتبه الرجل من نومه فزعاً، فتلمس أعضاءه فوجدها لم ينقص منها شيء. فقال: الحمد لله، فأنا غنيٌّ إذن بصحتي وسلامة أعضائي، فلماذا اليأس إذن؟! ونهض وعاد إلى بيته، وباشر عمله من جديد بعد أن عادت ثقته بنفسه، وصار يعمل بجد ونشاط ويكسب كثيراً من المال، حتى صار من كبار الأغنياء.

وجاء في الأثر: أن رجلاً في الزمن القديم، ظل يعبد الله ﷻ في إحدى الصوامع خمسمئة عام.. ثم مات، وأحضرته الملائكة للحساب، فقال الله ﷻ: أدخلوه الجنة برحمتي، فقد عبدني خمسمئة عام. فقال الرجل: بل أدخل الجنة بعملي، فقد عبدتك خمسمئة عام، فقال ﷻ: حاسبوه إذن.. فوضعوا عبادة الخمسمئة عام في إحدى كفتي الميزان، ووضعوا نعمة البصر في الكفة الأخرى، فرجحت نعمة البصر.. لأنه لولا نعمة البصر لما استطاع العبادة خمسمئة عام وهو يعيش وحده، ولما استطاع التمتع بحياته.

فقال الله ﷻ: هذه نعمة البصر وحدها رجحت عبادَتك خمسمئة عام، فهل عندك ما يكافئ النعم الأخرى الباقية، كنعمة السمع والذوق والشم والسعي والتلذذ بالطعام والشراب والنوم وغيرها؟!.. فقال الرجل: لم يبقَ عندي شيء يا رب!.. فقال ﷻ: خذوه إلى النار إذن.

فسحبته الملائكة إلى النار، فصار الرجل يصيح ويستغيث ويقول: يا ربِّ تجاوز عني برحمتك، واعفُ عني برحمتك، وأدخلني الجنة برحمتك لا بعملي.. عند ذلك قال الله ﷻ: يا ملائكتي، أدخلوه الجنة برحمتي.

إذن نحن - يا بني - أغنياء بنعم الله تعالى علينا، فعلينا أن نحافظ على هذه النعم وأن نشكره ونحمده دائماً، فإننا لا نحصي ثناءً عليه، كما أثنى هو على نفسه.

العبرة من القصة

الصحة تاج على رؤوس الأصحاء، عليهم ألاّ يفرّطوا فيها، وألاّ يفسدوها بالمهلكات كالتبغ والخمر والمخدرات وغيرها.

١٩ حكايةُ (كبِّي الدِّبْسَ واحْمِلِيني)

الصبر والتقوى، والحسد والبخل

قالت لي جدتي العجوز يوماً: هل تعرف حكاية (كبِّي الدبس واحمليني)؟ فهي تبين جزاء الصبر والتقوى، وجزاء الحسد والبخل.. فقلت لها: إنني لا أعرفها، احكيها لي، قالت:

كان يا ما كان، يا سامعين يا كرام، بعد الصلاة على النبي خير الأنام، وعلى صحابته الكرام، كان رجل وزوجته يعيشان في بيت صغير قديم متهدِّم؛ لأنهما فقراء ليس عندهم إلا قوت يومهم، يذهب الرجل منذ الصباح فيعمل طوال النهار، ويعود في المساء وقد حصّل درهماً أو درهمين يشترون بها خبزاً ودبساً أو خبزاً وزيتاً، يأكلونه ويحمدون ربهم وينامون حامدين شاكرين.

وكان لهم جيران أغنياء، رجل تاجر وزوجته، يطبخون كل يوم أنواع الطعام، فتنتشر رائحة الطعام وتدخل إلى بيت الجيران الفقراء، فيشتهون أن يذوقوا هذا الطعام الطيّب أو يأكلوا منه، ولكنهم لا يستطيعون لأنهم فقراء لا يملكون ثمن هذا الطعام.. وجيرانهم الأغنياء لا يسألون عنهم، ولا يعطونهم شيئاً من الطعام ولا من غيره.. مع أنهم أغنياء، والله تعالى أوصى بالجار[1].

وفي أحد الأيام كان مع زوجة الفقير درهم، فأخذت صحناً وذهبت إلى السوق لتشتري بالدرهم طعاماً لها ولزوجها، فاشترت بالدرهم قليلاً من الدبس وعادت إلى البيت، وفي الطريق مرّت على باب أحد المساجد، فوجدت شيخاً هرماً ضعيفاً نحيلاً، وهو في الحقيقة مَلَكٌ أرسله الله ﷻ إليهم ليجزيهم جزاء صبرهم وتقواهم.. فاستوقفها الشيخ الضعيف وقال لها: ماذا معك يا بنتي؟ قالت: معي دبس، طعامي وطعام زوجي، فقال لها: كبّي الدبس واحمليني، فقالت له: كيف أكب الدبس وهو طعامي وطعام زوجي وليس عندنا غيره لنأكله؟!.. ولكن الشيخ صار يتوسل إليها لتكب الدبس وتحمله.. وأخيراً رقّ قلبها له، وسلمت أمرها إلى الله تعالى، وكبت الدبس وحملت الشيخ، وكان ضعيفاً، نحيلاً، خفيف الوزن.

وبعد أن حملته قالت له: إلى أين أذهب بك؟ قال لها: خذيني إلى بيتكم، فقالت: لماذا آخذك إلى بيتنا ونحن ليس عندنا شيء نأكله؟!.. أليس لك بيت آخذك إليه؟ قال: ليس لي بيت، وأتوسل إليك أن تأخذيني إلى بيتكم.

---

(١) قال رسول الله ﷺ: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورّثه» متفق عليه - رياض الصالحين، رقم (٣٠٤)، وقال أيضاً: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره» رواه مسلم - رياض الصالحين، رقم (٣١٠).

فسلّمت أمرها إلى الله تعالى، وأخذته إلى بيتهم، وهناك وجدت زوجها ينتظر ليأكل الدبس معها، فقصّت عليه القصة، وكيف أن الشيخ طلب منها أن تكب الدبس وتحمله، فكبته وحملته، فقال لها زوجها: لا بأس يا امرأة، حسناً فعلت، فيبدو أنه شيخ ضعيف فقير.. وقام إلى الشيخ فحمله وأجلسه وطيّب خاطره، وكان عندهم رغيف من الخبز، تقاسموه هم والشيخ وأكلوه وحمدوا ربهم تعالى.

وبعد ذلك قال لهم الشيخ: نوّموني على الفراش، وكان عندهم فراش واحد بالٍ، فنوّموه عليه، فقال لهم: والآن كبّسوا جسمي وأعضائي ثم غطّوني لكي أنام، فكبّسوه وغطوه وتركوه لينام، وناموا هم خارج الغرفة على البساط.

وعندما استيقظوا في الصباح ذهبوا ليتفقدوا الشيخ، وكشفوا عنه الغطاء فلم يجدوا الشيخ، وإنما وجدوا مكانه دنانير ذهبية قد ملأت الفراش، فتعجبوا من ذلك!.. وأخيراً قرروا أن يرفعوا الدنانير ويخبئوها، فقال الزوج: يجب أن نعدّها أولاً، ولكن عدّها يأخذ وقتاً طويلاً، فالأفضل أن نكيلها بالكيل.. فقالت الزوجة: ليس عندنا كيل لنكيلها. فقال الزوج: استعيري من جيراننا كيلاً، ألا يعيروننا كيلاً فارغاً أيضاً؟!.. فذهبت الزوجة وطرقت باب جيرانهم الأغنياء، ففتحت زوجة الغني لها الباب وقالت لها: ماذا تريدين؟ قالت: أريد أن أستعير كيلاً فارغاً؛ ألا تعيروننا؟ قالت: نعم، وذهبت لتأتيها بالكيل، ولكنها تعجبت فهي تعلم أن جيرانهم فقراء وليس عندهم شيء يكيلونه؛ فلماذا الكيل؟ ولكي تعرف ما سيكيلون به، وضعت في أسفل الكيل قطعة من (العلك)، وأعطتها الكيل.

فأخذته زوجة الفقير، وعادت إلى بيتها، حيث وجدت زوجها في انتظارها، فكالوا الدنانير به وخبؤوها، ثم أعادت زوجة الفقير الكيل

إلى زوجة الغني، ولم تنتبه إلى أن ديناراً قد علق بالعلكة الموجودة في أسفله.

أخذت زوجة الغني الكيل من زوجة الفقير، ونظرت في أسفله فوجدت ديناراً عالقاً بالعلكة، فتعجبت، وعرفت أنهم كالوا به مالاً، ولكن من أين لهم المال وهم فقراء ليس عندهم شيء؟! لذلك سألت زوجة الفقير: ماذا كلتم بالكيل؟ فتلعثمت، وقالت لها: لم نَكِلْ به شيئاً.. ولكن زوجة الغني أرَتْها الدينار العالق في أسفل الكيل وقالت لها: لقد كلتم به دنانير، فمن أين الدنانير؟ إما أن تخبريني أو أنني أخبر الملك بأنكم سرقتم الدنانير من أحد التجار!.. فاضطرت زوجة الفقير أن تخبرها بالحقيقة، وكيف أن شيخاً على باب المسجد طلب منها أن تكب الدبس وتحمله، فحملته إلى بيتها ونوّمته في فراشهم بعد أن كبّسته هي وزوجها، وفي الصباح وجدوه قد تحول إلى دنانير.

وعندما عاد التاجر الغني إلى بيته في المساء، حكت له زوجته حكاية جيرانهم والدنانير التي وصلت إليهم، فحسدوا جيرانهم الفقراء، كيف يحصلون على هذه الدنانير وهم لا يحصلون على مثلها؟! مع أن عندهم دنانير كثيرة لأنهم أغنياء وبخلاء!.. لذلك قالت زوجة الغني لزوجها: يجب أن نذهب أنا وأنت غداً إلى المساجد لعلّنا نجد شيخاً هرماً نحمله إلى بيتنا وننوّمه عندنا، لكي يتحول إلى دنانير مثلما حصل مع جيراننا.

وفي الصباح لم يذهب التاجر الغني إلى

دكانه، بل خرج هو وزوجته، وأخذوا معهم صحناً وذهبوا إلى السوق فاشتروا دبساً، ووضعوه في الصحن، ثم أخذوا يدورون على المساجد يفتشون عن شيخ هرم ضعيف، إلى أن وجدوا على باب أحد المساجد شيخاً هرماً ضعيفاً قد صلّى الظهر جماعة في المسجد، ثم خرج وجلس يستريح قليلاً على باب المسجد قبل الذهاب إلى بيته.

فاقتربت منه زوجة الغني وبيدها صحن الدبس وسلمت عليه، فردّ عليها السلام، فقالت له: (يا عمّو)، قلْ لي: كبي الدبس واحمليني!.. فاندهش الشيخ وقال لها: ولماذا أقول لك ذلك؟! ولماذا تكبين الدبس؟! ولماذا تحملينني؟! فأنا أستطيع السير ولله الحمد، وسأذهب إلى بيتي فزوجتي وأولادي ينتظرونني، وهل أنت مجنونة حتى تتكلمي هذا الكلام؟! قالت: لا، أنا لست مجنونة، وهذا زوجي معي، وأنا أتوسل إليك مرة أخرى أن تقول لي: كبي الدبس واحمليني.. فماذا تخسر في ذلك؟!.

عند ذلك قال الشيخ: صحيح؛ ماذا أخسر في ذلك؟! فأمري إلى الله تعالى، وظن أن الأمر كله مزاح، فقال: كبي الدبس واحمليني.. وعند ذلك كبّت زوجة الغني الدبس حالاً واتجهت هي وزوجها إلى الشيخ الضعيف وحملوه، وساروا به نحو بيتهم.

وعندما رأى الشيخ ذلك صار يصيح ويستغيث ويقول: يا جماعة، إلى أين تأخذونني؟! فبيتي ليس من هنا، وعائلتي تنتظرني، وتجمّع الناس حولهم، وسألوهم: لماذا تحملون هذا الشيخ غصباً عنه؟

فقال التاجر وزوجته لهم: هذا أبونا وقد أصابه الخرف ولا يريد العودة إلى البيت، لذلك فنحن نحمله لإعادته، فسكت الناس وتفرقوا.

وبقي الشيخ يصيح ويضرب بيديه ورجليه، ولا من مجيب.. حتى وصلوا إلى البيت، فأدخلوا الشيخ وأجلسوه وهو يبكي وينتحب.. فطيّبوا خاطره وقالوا له: لا تحزن فسوف نأخذك إلى بيتك إن شاء الله تعالى.

والآن قل لنا: نوّموني على الفراش وغطّوني وكبّسوني. فقال لهم: إنني لا أريد النوم هنا، وإنما أريد العودة إلى بيتي والنوم فيه. فقالوا له: أنت ماذا ستخسر؟! قل لنا: نوّموني وغطوني وكبّسوني. فقال: سلمتُ أمري إلى الله تعالى، نوّموني وغطوني وكبّسوني.. وعند ذلك أسرع التاجر وزوجته فنوّموه على الفراش وغطوه، ولكن بدلاً من أن يكبّسوه بأيديهم جلبوا المخابط التي يخبطون بها الصوف عند غسله وتنظيفه، وصاروا يخبطونه بها، وهو يصيح ويستغيث ويقول: يا جماعة، قتلتموني، أكاد أموت، لماذا تفعلون هذا معي؟! ماذا صنعت لكم لكي تقتلوني هكذا؟! ثم أخذ صوته يخفت شيئاً فشيئاً إلى أن سكت تماماً!.. وعند ذلك تركوه وذهبوا ليناموا قريري العين، وهم يمنّون النفس بالدنانير الكثيرة في الصباح.

وفي اليوم الثاني استيقظوا باكراً، وأخذوا الكيل والأكياس ليملؤوها بالدنانير، وذهبوا إلى غرفة الشيخ وكشفوا عنه الغطاء، ولكن بدلاً من الدنانير فوجئوا بوجود الحيات والعقارب التي هجمت حالاً عليهم، وأخذت تَعَضُّهم وتلدغهم حتى ماتوا!.. وهذا جزاء الحسد والطمع والبخل.

ما الفرق بين العائلتين؟ العائلة الأولى: الفقيرة؛ صالحة تقية قانعة بما قسم الله تعالى لها ولا تحسد أحداً؛ لذلك أراد الله ﷻ أن يرزقها ويكافئها، وكان يستطيع أن يرزقها المال بلا تعب ولا واسطة، ولكن يريد أن يبين لهم أن المال لا يأتي إلا بعد السعي والعمل، لذلك جعلهم يحملون

الشيخ ويُنوِّمونه ويُكبِّسونه فرزقهم الله تعالى المال.. وكانوا قانعين برزقهم، والشيخ هو الذي طلب منهم أن يحملوه وينوّموه ويكبّسوه.

بينما العائلة الثانية: الغنية؛ كانت حسودة وبخيلة وطمّاعة، فعلى الرغم من مالهم الكثير حسدوا جيرانهم، وحملوا الشيخ غصباً عنه، ونوّموه غصباً عنه، وضربوه بالمخابط غصباً عنه حتى مات، فكان جزاؤهم الموت أيضاً.

وقالت جدتي العجوز رحمها الله تعالى: إياك يا بني أن تحسد أحداً، أو أن تكون طماعاً أو بخيلاً، واقنع بما قسم الله تعالى لك.

العبرة من القصة

الحسد والبخل يأكلان الحسنات كما تأكل النار الحطب.



٢٠ جَزاءُ الظُّلمِ

سمكة تنقذ رجلاً

قال علي بن حرب[1]: أردتُ أن أسافر من بلدي الموصل إلى بلد (سرّ مَن رأى) لشراء بعض البضاعة، وكانت هناك سفن تسير في نهر دجلة من الموصل إلى (سرّ مَنْ رأى) تنقل الركاب والبضاعة بالأجرة، فركبت إحدى هذه السفن، وسرنا في نهر دجلة متجهين نحو (سرّ مَنْ رأى).

وكان في السفينة بعض البضاعة ونفر من الرجال لا يتجاوز الخمسة، وكان النهار صحواً، والجو جميلاً، والنهر هادئاً، والربّان يحدو ويغني غناءً جميلاً، والسفينة تسير على صفحة الماء سيراً هادئاً، حتى أخذت أكثَرَنا غفوةٌ من النوم، أما أنا فكنت أمتِّع نظري بمناظر الشطآن الجميلة على جانبي النهر، وفجأة رأيتُ سمكة كبيرة تقفز من النهر إلى داخل السفينة، فهجمتُ عليها وأمسكتُ بها قبل أن تعود إلى النهر مرة أخرى.



(١) وردت هذه القصة في كتاب: طبقات الأولياء، لابن الملقّن، طبعة دار المعرفة، ص ١٨٠؛ حيث قال: ذكر ابن عساكر في تاريخه عن علي بن حرب، قال: ...ثم ذكر القصة مختصرة.

وانتبه الرجال من غفوتهم بسبب الضجة التي حصلت، وعندما رأوا السمكة، قال أحدهم: هذه السمكة أرسلها الله تعالى إلينا، لماذا لا ننزل بها إلى الشاطئ، فنشويها ونأكلها، وهي كبيرة تكفينا جميعاً.. فأعجبنا رأيه، ووافق الربان على ذلك، فمال بنا إلى الشاطئ، ونزلنا، واتجهنا إلى دغل[1] من الشجر لنجمع الحطب ونشوي السمكة.

وما أن دخلنا الدغل حتى فوجئنا بمنظر اقشعرَّتْ منه جلودنا، فوجئنا برجل مذبوح وإلى جانبه سكين حادة على الأرض، وبرجل آخر مكتوف بحبل قوي وحول فمه منديل يمنعه من الكلام والصراخ!.. فاندهشنا من هذا المنظر، فمن قتل القتيل ما دام الرجل مكتوفاً؟! أسرعنا أولاً فحللنا رباط الرجل، ورفعنا المنديل عن فمه، وكان في أقصى درجات الخوف واليأس..

وعندما تكلم قال: أرجوكم أن تعطوني قليلاً من الماء أشربه أولاً، فسقيناه.. وبعد أن هدأ قليلاً، قال: كنت أنا، وهذا الرجل القتيل في القافلة التي تسير من الموصل إلى بغداد، والظاهر أن هذا القتيل لاحظ أن معي مالاً كثيراً، فصار يتودد إليَّ ويقترب مني ولا يفارقني إلا قليلاً، حتى نزلت القافلة في هذا المكان لتستريح قليلاً، وفي آخر الليل استأنفت القافلة السير، وكنت نائماً فلم أشعر بها، وبعد أن سارت القافلة، استغل هذا الرجل نومي وربطني بالحبل كما رأيتم، ووضع حول فمي منديلاً لكي لا أصرخ، وسلب مالي الذي كان معي، ثم رماني إلى الأرض وجلس فوقي يريد أن يذبحني وهو يقول: إن تركتك حيّاً فإنك ستلاحقني وتفضحني، لذلك لا بد من ذبحك.

وكان معه سكين حادة يضعها في وسطه، وهي هذه السكين التي ترونها على الأرض، وأراد سحب السكين من وسطه ليذبحني بها.. لكنها علقت

---

(١) **الدغل**: الشجر الكثير.

بحزامه، فصار يعالجها ثم نترها بقوة، وكان حدها إلى الأعلى فخرجت بقوة واصطدمت بعنقه وقطعت الجلد واللحم والشريان فتدفق الدم منه، وخارت قواه ثم سقط ميتاً.

وحتى بعد موته كنت موقناً بالموت؛ لأن هذا المكان منقطع لا يأتيه أحد إلا قليلاً، فمن يفكني؟! ومن ينقذني؟! وصرت أدعو الله ﷻ أن يرسل من ينقذني مما أنا فيه، فأنا مظلوم؛ ودعاء المظلوم لا يُرَد، وإذا بكم تأتون وتنقذونني مما أنا فيه، فما الذي جاء بكم في هذه الساعة إلى هذا المكان المنقطع؟..

فقالوا له: الذي جاء بنا هو هذه السمكة، وحكوا له كيف قفزت من الماء إلى السفينة، فأتوا بها إلى هذا المكان لكي يشووها ويأكلوها.. فتعجَّب من ذلك وقال: إن الله ﷻ قد أرسل هذه السمكة إليكم لكي يجعلكم تأتون إلى هذا المكان، وتخلصوني مما أنا فيه.. والآن إنني تعب جدّاً، أرجوكم أن تأخذوني إلى أقرب بلدة.

فصرفوا النظر عن شيّ السمكة وأكلها، وأخذوا الرجل بعدما حمل معه المال الذي سلبه الرجل الآخر منه، وعادوا به إلى السفينة، وما أن وصلوا السفينة حتى قفزت السمكة إلى الماء وعادت إلى النهر مرة أخرى، فكأنما قد أرسلها الله ﷻ حقّاً لكي تكون سبباً في إنقاذ الرجل المظلوم!.. وهكذا إذا أراد الله تعالى شيئاً هيّأ أسبابه[١].

العبرة من القصة

ابحث عن الرفيق قبل الطريق، وعن الجار قبل الدار.. والظلم مرتعه وخيم (أي: نتيجته وخيمة).

---

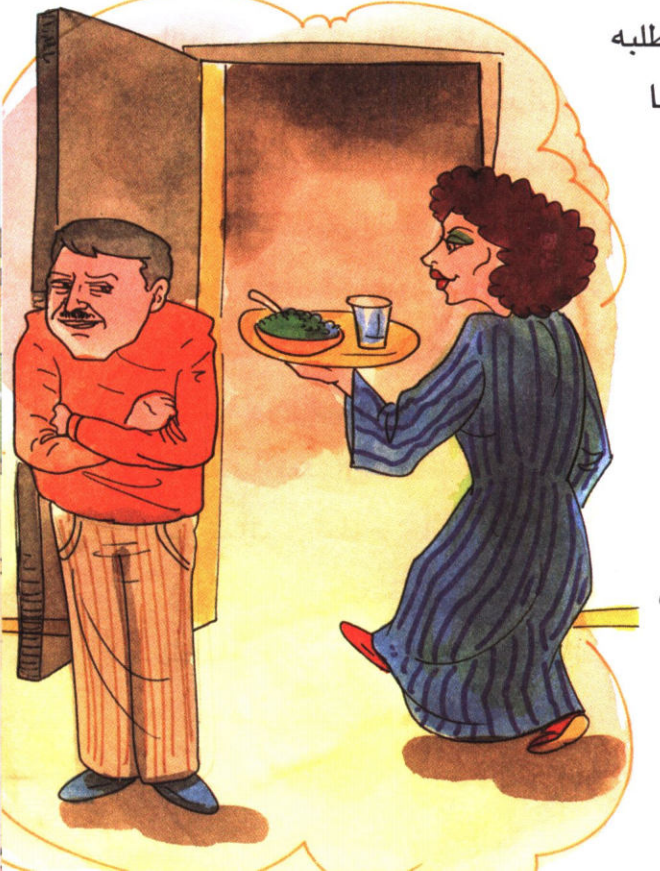
(١) قال النبي ﷺ: «اتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب» رواه البخاري ومسلم ـ كتاب: جامع الأصول، رقم (٦١٨٠).



٢١ الحَماةُ والكِنَّةُ

كان يوجد رجل يعيش مع أمه، وكلما قالت له أمه: أريد أن أزوجك يا بني وأفرح بك، يقول لها: لا أريد أن أجلب لك واحدة تعذّبك!.. وأخيراً عجزت أمه عن العمل في البيت وبقي وحده، وتعب كثيراً فلا يوجد من يطبخ له ويغسل له وينظف له البيت، فعزم على الزواج.

وأراد أن يختبر النساء: هل فيهن واحدة تحبُّ حماتها وتخدمها؟.. فكان يدور على العائلات ويقول لهم: أنا أريد أن أتزوج، ولكن عندي أمي عاجزة تجلس على الكرسي طول النهار، لا تتكلم ولا تطلب شيئاً، وكل ما أطلبه من زوجتي المقبلة أن تقدّم لها كل يوم صحن طعام وكأس ماء فقط، وأنا أتولى باقي شؤونها كلها، فهل عندكم فتاة تقبل بذلك؟.. فكان أكثرهم يرفضون ذلك.



وأخيراً وجد عائلة فيها فتاة قالت له: أنا أخدم أمك بعيوني، وأطعمها وأسقيها وأتكفل بكلِّ شؤونها، فقال لها: لا أريد إلا أن تقدمي لها صحن طعام وكأس

ماء، وهي تجلس في غرفة وحدها وتغطي جسمها كلّه بالغطاء لكي لا تكلم أحداً ولا يكلّمها أحد.

فرضيت الفتاة بذلك، فخطبها، وذهب الرجل إلى أمه وقال لها: سأتزوج يا أمي، ولكن أريد منك أن تزوري عند شقيقتي بينما أختبر زوجتي هذه؛ هل تحبُّ حماتها أم تعذّبها؟.. فإذا وجدتُها تحبُّ حماتها أتيتُ بك، وإذا وجدتُها تعذِّبها طلقتُها وأتيتُ بك.

وقبل يوم الزواج طلب من بائع الحلوى أن يصنع له كتلة كبيرة من الحلوى بقدر حجم المرأة تقريباً، وأخذ هذه الكتلة ووضعها على كرسي في إحدى غرف البيت وغطاها بغطاء، ووضع أمامها طاولة، وأتت زوجته إلى البيت، ومن أول يوم قالت له: أين أمك؟ أريد أن أسلّم عليها، وأن أخدمها بعيوني، فأخذها إلى غرفتها وفتح لها الباب، وقال لها: انظري إليها كيف هي جالسة على الكرسي وساترة جميع جسمها بالغطاء، إنها لا تكلّم أحداً، ولا تضايق أحداً، وما عليك إلا أن تضعي لها صحن الطعام وكأس الماء على الطاولة التي أمامها، وأنا أتكفل بجميع شؤونها، وإن شاء الله لا تتضايقين منها، فقالت له: أنا أتضايق منها؟!.. أنا أحملها فوق رأسي وأخدمها بعيوني، وسوف ترى إن شاء الله.

وصارت الكنَّة كل يوم تملأ لها صحناً من الطعام الذي يأكلون منه، وكأساً من الماء الذي يشربون منه، وتضعهما على الطاولة التي أمامها حماتها بعد أن تسلّم عليها وتقول لها: بالهنا والشفا إن شاء الله يا حماتي، مطرح ما يسري يمري.

وكان الزوج يدخل في الليل بعد أن تنام زوجته، إلى غرفة أمه، ويأخذ الطعام والشراب ويعيدهما إلى المطبخ.

ومضى على ذلك بضعة أسابيع، ثم أخذت الزوجة تتأخر في إحضار

الطعام والشراب لحماتها، ثم أخذت تضع لها من الطعام البايت عندهم أو الفاسد (الخامم)، وتملأ كأسها من الماء الوسخ غير النظيف، وتقول لها عندما تحضر لها الطعام والشراب: مطرح ما يسري يهري، أنت بلوة ابتليتُ بها، متى ستموتين وأرتاح منك؟!.. وزوجها يرى ويسمع كل ذلك وهو ساكت.

وكانت تأتي إلى زوجها وتقول له كذباً: كيف تقول: إن أمك لا تتكلم؟! فقد شتمتني اليوم وهزّأتني وبهدلتني، شوف لك طريقة معها، يا أنا يا هي في البيت، فيقول لها: أمي عاجزة، أين أذهب بها؟! وأنا قلت لك منذ البدء: إن عندي أم عاجزة، ولا أريد منك إلا أن تقدّمي لها صحن الطعام وكأس الماء، وأنا أريد رضا أمي، وإذا أسأتِ إليها فإنني سوف أطلقكِ.. فتكتم غيظها وتسكت على مضض.

وأخيراً تضايقت كثيراً من حماتها (الوهمية) ومن وجودها معها، وأرادت أن تتخلص منها نهائيّاً، فذهبت إلى المطبخ وحملت يد الجرن وهي من الحجر الأسود، وفتحت باب غرفة حماتها وهجمت عليها وضربتها على رأسها بيد الجرن، فتطايرت قطع الحلوى في أنحاء الغرفة، ودخلت قطعة منها إلى فمها، فإذا هي حلوة فاندهشت، وسمعت ضحكة خلفها، فالتفتت فرأت زوجها واقفاً في باب الغرفة وهو يضحك ويقول لها: لم تستطيعي أن تتحملي حماتك، وهي من حلاوة، وكنت تقولين: سأخدمها بعيوني!! فكيف لو كانت حماة حقيقية؟! اذهبي فأنت طالق، وأعاد أمه إلى البيت وعاش معها، وكسب رضاها ورضا الله سبحانه وتعالى.

صحيح، إن الحماة ثقيلة على قلب الكنَّة حتى لو كانت لا تتكلم ولا تتحرك، إلا من عصم الله تعالى، ولكن لتتذكر الكنَّة أنها ستصبح حماة في يوم من الأيام، والدنيا دين وَوَفا.

٢٢ الدَّلالُ لا يُرَبِّي الرِّجالَ

حكى لنا معلّمنا في المدرسة الابتدائية، رحمه الله تعالى، هذه الحكاية، قال:

كان في مدينة بغداد تاجر، يجدّ ويعمل بقوة ونشاط، يستيقظ كل يوم عند الفجر فيصلِّي ثم يذهب إلى دكانه، لأن النبيّ ﷺ قال: «**اللّهم بارك لأمتي في بكورها**»[1].. فيعمل فيها بجدٍّ ونشاط، وبأمانة وصدق، حتى المساء، حتى أصبح من أكبر التجار ومن أغنى الأغنياء.

ولم يرزقه الله سبحانه وتعالى إلا بولدٍ واحد، ولم يكن في ذلك الوقت مدارس وجامعات كما هو اليوم، إنما كان الرجل يتعلّم القراءة والكتابة في الكتَّاب، وبعد ذلك إذا كان عنده ميل للعلم فإنه يلازم أحد الشيوخ أو العلماء ليتعلم منه، وإذا لم يكن عنده ميل للعلم فإنه يتعلَّم مهنة أو صناعة يعيش منها.

وأراد التاجر أن ينشئ ابنه على الجد والنشاط والعمل، بعد أن تعلَّم القراءة والكتابة في الكتَّاب، فكان يوقظه كلَّ يوم باكراً ليأخذه معه إلى دكانه ويعلمه مهنة التجارة والبيع والشراء والتعامل مع الناس.

ولكن زوجته كانت دائماً تعترض على ذلك، وتقول له: إنه ابننا الوحيد وليس لنا غيره، ارحمه، ودَعْه ينام ويرتاح، فهو لا يزال صغيراً على العمل والتجارة، ومتى كبر سيتعلم إن شاء الله تعالى.

---

(١) حديث حسن، رواه الترمذي وأبو داود - رياض الصالحين، رقم (٩٥٥).

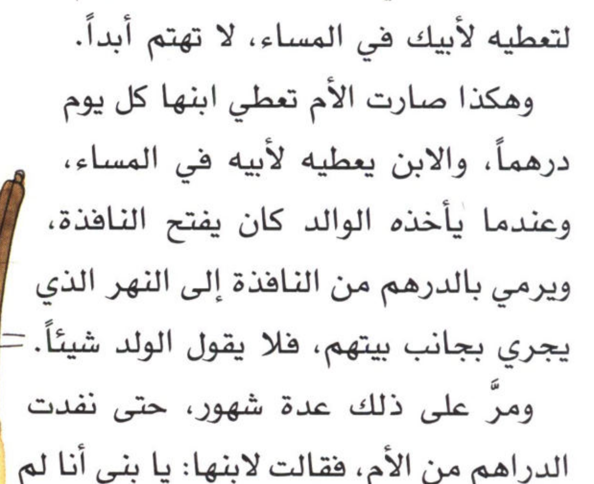
وهكذا كان الولد يذهب يوماً مع والده إلى الدكان، وينقطع عدة أيام عن الذهاب، ويبقى في البيت بحماية أمه، فتعلَّم على الدلال والكسل حتى شبَّ على ذلك.

وكان الوالد يتألم ويحزن.. ولكن ماذا يصنع؟ هل يخرب بيته بيده؟!.. وصبر حتى أصبح الولد شابّاً في السابعة عشرة من عمره.. عند ذلك قال له أمام زوجته: يا بني، إنك أصبحت شابّاً قويّاً ولله الحمد، وأنا أردتُ أن أعلمك مهنة التجارة؛ مهنة والدك وجدك؛ فلم تتعلم، وأنا لست دائماً لك، لذلك أريدك أن تعمل أي عمل تريده، وأن تعطيني كل يوم في المساء درهماً من عملك الذي عملتَه في النهار (وكان الدرهم في ذلك الزمن يكفي العائلة في اليوم ويزيد عنها).. وفي اليوم الذي لا تعطيني فيه درهماً من عملك ليس لك فيه مبيت عندي في البيت.

أراد الوالد بذلك أن ينقذ ابنه من كسله وخموله، ويعلمه على العمل والاعتماد على نفسه قبل فوات الأوان.. وكانت أم الولد تسمع وهي ساكتة، وبعد أن ذهب الوالد، التفتت الأم إلى ابنها وقالت له: لا تحزن يا حبيبي، ولا يهمك، فأنا كلَّ يوم أعطيك درهماً لتعطيه لأبيك في المساء، لا تهتم أبداً.

وهكذا صارت الأم تعطي ابنها كل يوم درهماً، والابن يعطيه لأبيه في المساء، وعندما يأخذه الوالد كان يفتح النافذة، ويرمي بالدرهم من النافذة إلى النهر الذي يجري بجانب بيتهم، فلا يقول الولد شيئاً.

ومرَّ على ذلك عدة شهور، حتى نفدت الدراهم من الأم، فقالت لابنها: يا بني أنا لم



يعد معي دراهم لأعطيك، لذلك عليك غداً أن تعمل وتشتغل لتجمع الدرهم لأبيك، وتعطيه له في المساء.. وإلا فإنه لن يدعك تنام في البيت.

فحزن الولد كثيراً، ولكن ماذا يصنع؟! وإلى أين يذهب إذا أخرجه أبوه من البيت؟! لذلك استيقظ في اليوم التالي باكراً، وذهب إلى السوق ليشتغل، ولكن ماذا يشتغل؟ إنه لا يعرف أية مهنة، لذلك صار يعمل حمَّالاً يحمل الأشياء للناس، وسقَّاء يسقي الماء، حتى استطاع أن يجمع درهماً، ولكن بعد أن أنهكه العمل وأضناه التعب وصار العرق يتصبب منه غزيراً.

وعاد في المساء يجر رجليه جرّاً من شدة التعب، فهو لم يَعْتَدْ على العمل طوال حياته.. وعندما أتى والده في المساء أعطاه الدرهم، ففتح النافذة ليرمي بالدرهم منها.. ولكن الولد هجم حالاً عليه وأمسك بيده، وقال له: إلى أين ترمي به وقد أضناني التعب والعرق والعمل طوال النهار حتى استطعت الحصول عليه؟!.. ألا تراني؟!..

فضحك الوالد وأغلق النافذة، وربَّت على كتف ابنه وقبَّله، وقال له: الآن أصبحتَ رجلاً يُعتمد عليك، أنا كنتُ أعرف أن والدتك كانت تعطيك درهماً كل يوم، لذلك كنتَ لا تعترض على رميه من النافذة لأنك لم تكن تتعب في تحصيله.. الآن هل تحب أن تذهب معي كل يوم إلى الدكان وتعمل معي وأنا أعفيك من الدرهم كل يوم؟ أم تريد أن تعمل في السوق وتعطيني الدرهم كل يوم؟ فقال الولد: بل أذهب معك وأعمل معك وأتعلّم مهنة آبائي وأجدادي.. وهكذا صار الولد يذهب مع أبيه كل يوم حتى تعلَّم التجارة، وأصبح من التجار الناجحين الأغنياء.

العبرة من القصة

اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، فالكسل لا يربِّي رجالاً ولا يبني بلاداً.



٢٣ عصفورةُ الجنَّةِ

تُنقذ أباها من العذاب

كان يوجد رجل اسمه (مالك)، وكان يعمل في الشرطة عند حاكم البلد.. تزوج مالك، وبعد سنة ولدت زوجتُه بنتاً جميلة، أحبَّها مالك حبّاً عظيماً، فكان منذ أن ينتهي من عمله يعود حالاً إلى البيت لكي يرى ابنته ويلاعبها ويداعبها ويحملها، وكان يجلب لها معه اللعب الجميلة والمآكل اللذيذة التي تحبها.

ومضى على ذلك سنتان ونصف.. ثم مرضت البنت مرضاً شديداً، فجلب مالك لابنته الأطباء ليعالجوها ولكنها لم تشفَ من مرضها، ولم يكن الطب متقدِّماً مثل اليوم.. والظاهر أن الله ﷻ أراد أن يختبر صبر مالك وإيمانه؛ لذلك لم يأذن بشفاء البنت.. فتوفيت، ثم توفيت أمها أيضاً.. فحزن مالك عليهما حزناً شديداً، وبكى عليهما كثيراً.. واسودَّتِ الدنيا في وجهه، وصار يرى كل شيء بشعاً، مكروهاً.

وبدلاً من أن يلجأ إلى الله ﷻ ويدعوه أن يعوّض عليه خيراً منهما، وبدلاً من أن يلجأ إلى الصلاة والصبر، لجأ إلى الخمر، فصار يشرب كثيراً من الخمر، وصار يعامل الناس بخشونة وقسوة.. حتى ضجَّ منه الناس، وما ذنب الناس حتى يعاملهم بهذه الخشونة والقسوة؟! وماذا يستطيعون أن يعملوا معه؟! فهو يعمل عند حاكم البلد، لذلك صار بعضهم يدعو عليه، وبعضهم الآخر يدعو الله ﷻ أن يصلحه ويهديه.

وفي إحدى الليالي بعد أن سكر مالك ونام؛ رأى كأن القيامة قد قامت،



وأن الملائكة يسوقون الناس إلى الحساب وهو بينهم، وأن العرق قد غطَّى جسمه كله حتى وصل إلى عنقه، وكاد أن يختنق.. وعند الحساب لم يجدوا له عملاً صالحاً، فهو يشرب الخمر، ويعذّب الناس، لذلك حكموا عليه بالعذاب في وادي العقارب والحيات، وسحبتْهُ الملائكة إلى ذلك الوادي ورمَوه فيه، وما أن رأته الحيات حتى هجم عليه حَنَشٌ كبير (أي: حية عظيمة) وفتح فمه ليبتلعه، فهرب منه مالك وتبعه الحنَش، وصار مالك يركض بكل قوته ويصيح ويستغيث، والحنَش يركض وراءه وهو فاتح فمه ليبتلعه، فرأى مالك في طريقه شيخاً نظيف الثياب، طيب الرائحة، ولكنه ضعيف، نحيل، لا يستطيع الوقوف، فتوسل إليه أن يحميه من هذا الحنَش الكبير الذي يتبعه من مكان إلى مكان، فقال له: ألا ترى ضعفي ونحولي؟! فكيف أستطيع حمايتك؟! ولكن هل تريد أن أدلك على من يحميك؟ قال مالك: نعم، أسرع ودلَّني عليه فإن الحنَش يكاد يدركني ويبتلعني.

قال الشيخ: انظر إلى ذلك القصر الأبيض الجميل على تلك الربوة العالية، إذا استطعت أن تصل إليه سالماً فقد تجد عنده مَنْ يحميك..

فتوجه مالك نحو القصر وهو يركض بأقصى سرعته، والحنش يتبعه بأقصى سرعته أيضاً يريد أن يبتلعه قبل أن يصل إلى القصر.

وبعد جهد كبير وتعبٍ كثير وصل مالك إلى القصر الأبيض وهو يلهث ويتصبب عرقاً، ويكاد يموت من الخوف والتعب، ولكنه وجد باب القصر مغلقاً ومكتوباً عليه: هنا يسكن عصافير الجنة، أطفال المسلمين الذي توفوا قبل سنِّ البلوغ.. فتذكر مالك ابنته التي توفيت وهي صغيرة، فصار يناديها بكل قوته قبل أن يدركه الحنَش.

وفجأة فُتحت إحدى نوافذ القصر، وظهرت فيها ابنته بعد أن سمعت صوت أبيها، وعندما رأته طلبت منه أن يدخل إلى القصر بسرعة، فقال

لها: إن أبوابه مغلقة، والحنَش أصبح قريباً مني.. فنادت على الحارس، وطلبت منه أن يفتح باب القصر، وأن يُدخل أباها بسرعة، وأن يقتل الحنَش الذي يتبعه.

ففتح الحارس الباب وأدخل مالكاً إلى القصر بعد أن وصل الحنَش إليه وكاد أن يبتلعه، ثم نفخ الحارس على الحنش فاحترق وأصبح رماداً!.. وعندما أصبح مالك داخل القصر ركضت ابنته نحوه ورمَتْ بنفسها عليه، فضمَّها إلى صدره وصار يقبّلها ويبكي فرحاً بلقائها، وبخلاصه على يدها من ذلك الحنَش المخيف.

وبعد أن هدأتْ نفسُه وذهب خوفه سألها: ماذا تصنعون هنا يا بنتي؟ قالت: إننا نعيش هنا في الجنة، أنا وأطفال المسلمين الصغار كلهم مثل الطيور والعصافير، نطير من شجرة إلى شجرة، ومن مكان إلى مكان، نأكل ما نشتهي ونحب[1]، وننتظر يوم القيامة والحساب لكي نشفع لآبائنا وأمهاتنا ونحميهم من العذاب؛ مثلما صنعت معك اليوم.

وهنا سألها عن هذا الحنَش الكبير: لماذا كان يلاحقه من مكان إلى مكان، يريد أن يبتلعه؟ قالت له: هذا عملك السيئ في الدنيا، تحوَّل هنا إلى حنَش كبير يريد أن يهلكك، فأنت كنت تشرب الخمر وتؤذي الناس؛ فماذا تنتظر غير ذلك؟!..

فقال لها: وذلك الشيخ الطيب الضعيف مَنْ هو؟ فلولاه ما كنت اهتديت إليك في هذا المكان؟ فقالت له: الشيخ الطيب الضعيف هو عملك الحسن في الدنيا، فهو قليل وضعيف، فما كنت تعمل الخير إلا قليلاً، ولو كان

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ: «صغارهم - أي: صغار موتى المسلمين - دعاميص الجنة، يتلقى أحدهم أباه - أو قال: أَبَوَيْهِ - فيأخذ بثوبه فلا ينتهي حتى يدخله الله وأباه الجنة» رواه مسلم في صحيحه، تحت رقم (٢٦٣٥).

عملك الحسن في الدنيا كثيراً، لوجدت ذلك الشيخ الطيب الضعيف شابّاً قويّاً ولكان قد قتل ذلك الحنَش الكبير بضربة واحدة منه، وما كنت تعبتَ ذلك التعب ولا خفتَ ذلك الخوف.

يا أبتِ! في الآخرة لا ينفع إلا العمل الصالح، يا أبتِ! كفاك أعمالاً سيئة، كفاك شرب الخمر وإيذاء الناس، يا أبتِ! كثّرْ من العمل الصالح، عليك بالصلاة والذكر والصبر بدلاً من الخمر، اخدم الناس واعمل الخير معهم بدلاً من إيذائهم، فإن استطعت أن تصل إليَّ في هذه المرة فقد لا تستطيع مرة أخرى.

فقال لها أبوها: صدقت يا بنتي، وأنا منذ اليوم إن شاء الله تعالى لن أشرب الخمر، ولن أسيء إلى أحد من الناس، وسوف ألجأ إلى الذكر والصلاة والصبر وعمل الخير مع الناس جميعهم، بعدما شاهدت من أهوال هذا اليوم.

وانتبه مالك من نومه، فوجد نفسه في فراشه، في بيته، ولكنه كان متعباً، منهوكاً، يغطي العرق الغزير جسمه كله.. فحمد الله تعالى على أن ما شاهده كان حُلماً لا حقيقة، ولكنه عزم على أن يغيِّر طريقة حياته كلها، فقام إلى أوعية الخمر فكسرها، وترك وظيفته في الشرطة، وصار يكثر من الذكر والصلاة، ويعمل الخير مع الناس كلهم، الذين يعرفهم والذين لا يعرفهم، وصار يكتب المصاحف للناس ويعيش من أجرة كتابتها لهم، وأصبح رجلاً ورعاً تقيّاً، من رواة حديث رسول الله ﷺ، إلى أن مات في مدينة البصرة في العراق سنة (١٣١هـ). وكان اسمه مالك بن دينار.



الرجوع إلى الحق وطاعة الله تعالى، خير من التمادي في الباطل.

٢٤ المرأةُ هلْ تحفظُ السِّرَّ؟

يُحكى أن رجلاً كان عنده حقل من الأشجار المثمرة، وكان يعمل في حقله كلَّ يوم، ينزع الأعشاب الضارة، وينكش التراب حول الأشجار وبينها، ويسقي الأشجار بالماء.

وفي أحد الأيام وبينما كان ينكش التراب بين الأشجار، اصطدم المنكاش بشيء صلب، فكشف عنه، فإذا به جرة من النحاس، وعندما فتحها وجدها مملوءة بالدنانير الذهبية، ففرح بها كثيراً، فهو رجل فقير على كل حال.. ولكنه احتار أين يخبئ هذه الجرة؟ فهو يخشى أن يراها أو يعلم بها أحد فيدل أمير البلد الظالم عليها، فيأخذها منه.

وخاف من زوجته بصورة خاصة، فهو لا يعلم هل تحفظ السر أم لا؟ لذلك قرر أن يختبر زوجته أولاً قبل أن يطلعها على سرٍّ جرة الدنانير الذهبية، وهل تحفظ السر أم لا؟.. فأخفى الجرة تحت ثيابه وذهب إلى البيت وأخفاها في مكان أمين لا تعرفه زوجته، وذهب إلى السوق واشترى كمية من البيض خبّأها أيضاً في مكان أمين.. وعندما نام وضع بيضة منها بجانبه في الفراش.

وفي الصباح أيقظ امرأته وقال لها: إن بطني تمغصني، لا أدري ماذا حدث لي؟.. إنني أحسّ كأنّ شيئاً سيخرج مني.. فقالت له زوجته: هل أصنع لك فنجاناً من النعناع أو البابونج لتسكين ألم بطنك؟ قال لها: لا.. لا داعي لذلك، ثم مدَّ يده إلى الفراش وأخرج البيضة التي وضعها فيه منذ المساء، وقال لها: انظري، ماذا خرج مني، إنها بيضة حقيقية،

فكيف حدث ذلك؟! كيف بضَتُ بيضة؟! إن هذا شيء عجيب، لم يحدث لأحد من قبل.

فأخذت زوجته البيضة بيدها، وكانت لا تزال ساخنة بسبب وضعها في الفراش، وفحصتها ثم قالت: إنها بيضة حقيقية حقّاً، وهذا شيء طيب، فلماذا أنت خائف؟ فقد تكون مثل بيضة الديك، ألا يقولون: إن الديك يبيض بيضة واحدة في حياته؟! وأخذت البيضة وخبأتها عندها.

وفي اليوم الثاني والثالث والرابع وما بعدها كان يتكرر المشهد كل يوم، حيث يستيقظ الزوج كل يوم صباحاً وهو يتألم، ثم يمد يده إلى الفراش ويخرج منه بيضة ساخنة يعطيها إلى زوجته.

وعندما تكرر ذلك قالت له زوجته: إنك أصبحت تبيض كل يوم بيضة، وقد استغنينا بذلك عن شراء البيض من السوق ولله الحمد.. فقال لها زوجها: إياك أن تذكري ذلك لأحد، أو تتكلمي بحرف واحد عنه أمام أحد، فإن ذلك يشكل فضيحة كبيرة بالنسبة لي.. فقالت له زوجته: كن مطمئنّاً يا رجل فلن أتكلم عن ذلك أمام أحد.

وفي أحد الأيام خرجت الزوجة إلى سطح بيتها لنشر غسيلها، فرأت جارتها على السطح المجاور لسطحها، فصارت تتحادث معها، وأثناء الحديث قالت لجارتها: هل تحفظي السر، فإن عندي سرّاً أريد أن أقوله لك إذا كنت تحفظينه؟ فقالت الجارة: سرك في بير عميقة، إنني أحفظ السر، وكيف لا أحفظه؟!..

فقالت لها الزوجة: إن زوجي يبيض كلَّ يوم بيضتين من النوع الكبير الجيد، وبذلك استغنينا عن شراء البيض من السوق ولله الحمد، ولكن يا جارتي إياك أن تذكري ذلك أمام أحد، فإن ذلك يُشَكِّل فضيحة كبيرة لزوجي.. فطمأنتها جارتها وقالت لها: لن أتكلم عن ذلك أمام أحد.



ولكن الجارة نزلت من سطح بيتها وذهبت حالاً إلى بيت جيرانها حيث اجتمعت بجارتها، وأثناء الحديث قالت لجارتها: علمت الآن بسر أريد أن أخبرك به، إن زوج جارتنا فلانة يبيض كل يوم خمس بيضات، وقد استغنوا عن شراء البيض من السوق.. ولكن أرجو ألا تتكلمي عن ذلك أمام أحد.. فطمأنتها جارتها.

ولكن ما أن تركتها جارتها حتى ذهبت إلى بيت جارة أخرى لها، وقالت لها: إن زوج فلانة يبيض كل يوم سبع بيضات يبيعونها في السوق، وقد يكون البيض الذي تأكلونه في بيتكم هو من بيضه الذي يبيضه.

وهكذا صار الخبر يتنقل من بيت إلى بيت ويتضخَّم، حتى وصل إلى أمير البلد أن فلاناً يبيض كل يوم خمسين بيضة، فتعجَّب الأمير من ذلك، واستدعى الرجل، وسأله: هل صحيح أنك تبيض كل يوم خمسين بيضة؟ إن كان ذلك صحيحاً فإنك تشكل بالنسبة لنا ثروة قومية كبيرة، لأنك تغنينا عن استيراد البيض من البلاد المجاورة؟..

فقال له الرجل: وهل هذا معقول يا سيدي! وهل أنا دجاجة حتى أبيض! حتى الدجاجة تبيض بيضة واحدة كل يوم؛ فكيف أبيض أنا خمسين بيضة؟! فقال له الأمير: وما سبب هذه الشائعة إذن؟ إنه لا يوجد دخان دون نار.. فقال الرجل: إن كل ما في الأمر أنني أردت اختبار حفظ زوجتي للسر، فكنت أخبئ بيضة كل يوم في فراشي وأخرجها في الصباح لزوجتي، وأقول لها: إنني بضتُها، فوصل الخبر إليكم أنني أبيض خمسين بيضة كل يوم.. هذا كل ما في الأمر.. فضحك الأمير وصرفه وهو يقول له: إن زوجتك تحفظ السر حقّاً!..

ولكن فليطمئن النساء فلسنَ كلهنَّ يفشين السر، وليس الرجال كلهم يحفظون السر.



٢٥ حكايةُ اللِّصّ الخبيثِ والعُمْيَانِ الثلاثةِ

جزاء كنز المال

في أحد الأيام اجتمع ثلاثة عميان متسولين مصادفة على باب أحد المساجد، وكانوا أصدقاء، فقال بعضهم لبعض: اجلسوا قليلاً لكي نتحدث ونتسامر.. فجلسوا، وجلس بجانبهم لص خبيث مغرم بسرقة العميان، وأخذ يسترق السمع ويصغي لما يقولونه.

وبعد أن تحدثوا قليلاً عن أحوالهم وعملهم وعائلاتهم قال أحدهم للآخر: أنت يا أبا علي أين تخبئ مالك في هذه الأيام؟ فطوّح أبو علي بعصاه حوله بشكل دائرة ليتأكد أن ليس حولهم أحد يسمعهم، ثم قال له هامساً: أنت تعرف أن زوجتي أم علي كفيفة أيضاً مثلي، لذلك فقد حفرت حفرة في الغرفة التي ننام فيها، وإني أضع ما أجمعه من مال في جرة وأخبئ الجرة في الحفرة وأمد فوق الحفرة فراشي، أنام أنا عليه في الليل، وتجلس عليه أم علي في النهار، وهكذا نأمن شرّ اللصوص الخبثاء.

ثم قال أبو علي: وأنت أين تخبئ مالك؟ قال له: أنا أحمله معي أينما ذهبتُ، فقال له: ألا تخاف أن ينشله منك أحد النشالين؟ قال: لا؛ فأنا لا أضعه في جيوبي، وإنما هذا الجاكيت الذي ألبسه هو (كالمرقّعانية)[١] فيه من الداخل رقع عديدة، وتحت كل رقعة بضعة دنانير ذهبية، وهكذا يبقى معي مالي ليلاً نهاراً لا يفارقني.

---

(١) **المرقّعانية**: ثوب فيه رقع كثيرة.

ثم توجَّهوا بالسؤال إلى الأعمى الثالث، فقال له أبو علي واللص يسمع: وأنت أين تخبئ ثروتك؟ قال لهم: أنا أضعها في هذه العصا، قالوا له: وكيف ذلك؟ قال: لقد حفرت باطنها حتى أصبح كالأسطوانة المجوفة، ووضعت فيها الدنانير الذهبية ديناراً فوق دينار حتى امتلأت، فأنا أحملها معي أينما ذهبتُ، فقال له أبو علي: والله هذه فكرة جميلة، أرني هذه العصا لأتحسسها فأعطاه إياها فتحسسها وأعادها إليه، ولكن اللص كان هو الأسرع إلى تناولها، أخذها وهرب بها وهم لا يشعرون.

وبعد قليل قال صاحب العصا: يا أبا علي، أرجع لي العصا؛ لماذا تأخرت بها عليَّ؟! فأجابه أبو علي: لقد أرجعتُها إليك من زمان، فقال له: لا إنك لم ترجعها، إنك سرقتها.. واشتبكوا مع بعضهم في شجار وخصام، واللص واقف بعيداً عنهم يتفرج ويضحك منهم، إلى أن أتى الناس وفرَّقوا بينهم، وذهب كل منهم في حال سبيله.



فتبع اللص أبا علي الأعمى ليستدل على بيته، أما الأعمى أبو المرقّعانية فاللص يعرف أنه يجلس كل يوم على باب هذا المسجد يتسول ويشحد.

وبعدما استدل اللص الخبيث على بيت أبي علي انتظر حتى أقبل الليل، فتسوَّر الجدار ودخل البيت وهم لا يشعرون به، فأبو علي وأم علي كلاهما كفيفان، وجلس في ركن من البيت يراقب ما يجري.

وكان أول عمل عمله أبو علي بعد وصوله إلى البيت وترحيب أم علي به أن سألها عن الجرة، فقالت: هي في الحفظ والصون، فأنا جالسة عليها طوال النهار، عندئذٍ أزاح أبو علي الفراش عن الحفرة وأخرج الجرة، وأخرج منها الدنانير، فلمعت في جوف الليل، واللص ينظر، وعدّها أبو علي واطمأن عليها، ثم أضاف إليها ما حصّله أثناء تسوُّله في ذلك النهار، وأعاد الجرة إلى الحفرة، ووضع الفراش فوقها واضطجع لينام، ونامت أم علي على فراش آخر بجانبه.

وبعد قليل، استغرق أبو علي في النوم وارتفع شخيره، فقال اللص لنفسه: لقد حانت الفرصة، فزحف قليلاً قليلاً حتى وصل إلى فراش أبي علي، وأزاح الفراش قليلاً عن موضعه، فشعر أبو علي بالفراش يتحرك من تحته، فهب مذعوراً وصاح: يا أم علي! الزلزلة!.. فقد ظن أن زلزالاً قد حدث فهزَّ البيت والفراش، فاستيقظت أم علي وقالت له: أنا لم أشعر بشيء، نَمْ يا رجل، لا يوجد زلزلة، فناما وعلا شخيرهما، فسحب اللص الفراش أيضاً قليلاً عن موضعه، فهب أبو علي مذعوراً وصاح: يا أم علي! الزلزلة.. فاستيقظت أم علي وقالت له: أنا لم أشعر بشيء، نَمْ يا رجل، لا يوجد زلزلة، فناما.

وكانت الحفرة قد انكشفت، فانتظر اللص حتى علا شخيرهما، فاستخرج الجرة وأخذها وهرب بها، وفي الصباح ضرب أبو علي يده على الحفرة ليطمئن على الجرة، فإذا بالحفرة فارغة، فأخذ يلطم نفسه ويصيح: يا أم علي! قلت لك: الزلزلة، يا أم علي! قلت لك: الزلزلة...

بقي الأعمى الثالث (أبو المرقّعانية).. فكّر اللص الخبيث كيف يحتال عليه ليجعله يخلعها، وأخيراً قال لنفسه: لا شيء يجعله يخلعها إلا (الدبابير)، فذهب يجمع الدبابير من أعشاشها ويضعها في جرة صغيرة معه حتى امتلأت بالدبابير، فوضع في فم الجرة قرصاً من العسل وذهب إلى المسجد الذي يتسول على بابه الأعمى أبو المرقّعانية، فجلس إلى جانبه وقال له: يا عمي! أريد أن أدخل لأصلي في هذا المسجد، ومعي جرة العسل هذه، وأخاف إن أنا أدخلتها معي أن تنكسر وتلوث المسجد، فهل تمانع أن أضعها بجانبك ريثما أصلي وأخرج؟ فقال له الأعمى: لا مانع يا بني، دعها بجانبي وادخل إلى صلاتك، فتركها بجانبه وجلس بعيداً عنه يراقبه، وبعد قليل مدَّ الأعمى يده إلى جرة العسل وأخرج قليلاً من العسل وتذوقه فوجده لذيذاً طيباً، فأخذ يلعق منه بأصبعه، وبعد قليل انثقب قرص العسل وخرجت الدبابير الجائعة الهائجة، فلم تجد أمامها سوى الأعمى فتعبّأت به وبثيابه من كل جانب، فأخذ يصيح ويستغيث، وأخذ يخلع ثيابه ويرمي بها في كل اتجاه ليتخلص من الدبابير، فاغتنم اللص الفرصة وأخذ المرقّعانية وهرب بها.

واجتمع الناس على الأعمى وأبعدوا عنه الدبابير، ولكن بعد أن أصبح وجهه كالطبل من لسع الدبابير، فحملوه إلى المستشفى لعلاجه وإسعافه، وبعد أن استعاد وعيه تفقد المرقّعانية فلم يجدها، فأخذ يلطم وجهه ويبكي، وكانت مصيبته بها أعظم من مصيبته بالدبابير، فهو لا يستطيع أن يبوح بسرِّه ويقول: إنها كانت ملآنة بالدنانير.

فهذا جزاء من يتسوّل لكي يكنز المال.. واللص سيعاقبه الله تعالى أيضاً ولن يغفل عنه، فهو يمهل ولا يهمل.

٢٦ حكايةُ الملكِ وبناتِهِ الثلاثِ

(العيش والملح) و(الاستقامة عين الكرامة)

قالت ستي العجوز: كان يا ما كان، يا سامعين يا كرام، بعد الصلاة والسلام على النبي بدر التمام، وصحابته الكرام.

كان يوجد ملك وله ثلاث بنات، فجمعهن يوماً وقال للكبيرة: أنت كم تحبينني؟ فقالت له: أحبك أكثر من عيوني، وسأل الثانية: وأنت كم تحبينني؟ فقالت له: أكثر من روحي، وسأل الصغيرة: وأنت كم تحبينني؟ فقالت: أنا أحبك أكثر من الملح.

فاستصغر ذلك وغضب عليها، وطلب من وزيره أن يزوجها من أوطا رجل في مملكته، فزوجها من عامل قمين الحمّام [١]، وهو فقير جدّاً، فرضيتْ بقسمتها وسكنتْ معه في بيت كالخرابة، وأكلتْ معه طعاماً كالقمَامة[٢]، وكان معها شيء من المال الذي ادخرته عندما كانت في قصر أبيها، فأعطتْهُ لزوجها وقالت له: اترك عملك هذا القذر واذهب واشتغل مع التجار بهذا المال، فأخذ يتردد إلى سوق التجار ويعمل معهم، وفي يوم من الأيام خرجت قافلة للتجار إلى مدينة أخرى بعيدة، فاشترك معهم وخرج مع القافلة بعدما ودَّع زوجته، وفي الطريق نفد ماء القافلة، ومروا على بئر فأرادوا أن يستقوا منها، ولكنهم سمعوا أن كل من ينزل إلى

(١) **قمين الحمام**: هو الأتون الذي تشعل فيه النار تحت ماء الحمام.

(٢) **القمامة**: الزبالة.

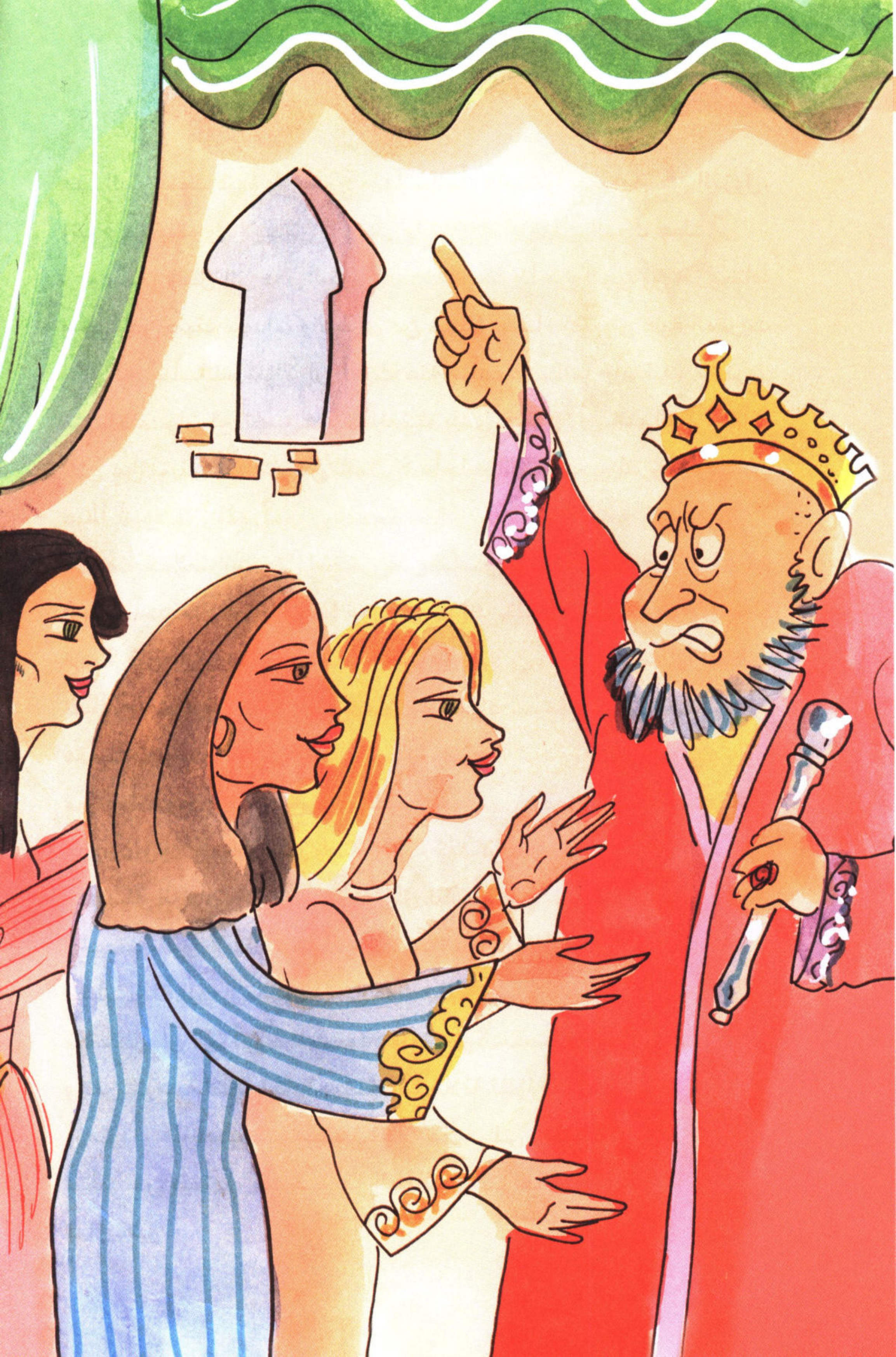
هذا البئر يموت فيها ولا يخرج منها سالماً، فامتنعوا جميعهم عن النزول، وتبرع هو بالنزول لاستخراج الماء وإنقاذ القافلة من الموت عطشاً.

وعندما وصل إلى قعر البئر وجد هناك عفريتاً من الجن ومعه زوجتاه؛ واحدة عن يمينه سوداء، والأخرى عن شماله بيضاء، فقبض عليه العفريت وقال له: سأسألك سؤالاً إن أجبت عنه سأدعك سالماً وأعطيك ما تريد من الماء، وإن لم تجب عنه سأخنقك بيديّ هاتين: أيُّ المرأتين أجمل؟ التي عن يميني أم التي عن شمالي؟ فأجابه الرجل: حبيبك حبه ولو كان عبداً أسود.

فضحك العفريت حتى استلقى على قفاه، وضرب على ظهره وقال له: لم يجبني أحد مثل جوابك هذا من قبل، لذلك خنقتهم جميعاً.. والآن ماذا تريد؟ قال: أريد ماء، فعبأ له ما يحتاجه من الماء، وأعطاه فوقه سلة من الرمان وقال له: هذه لك وحدك، فحمل الماء والرمان وخرج من البئر، ووزع الماء على القافلة.



ورأى رجلاً مسافراً إلى بلدته التي تركها، فأرسل معه سلة الرمان إلى زوجته، إذ قال لنفسه: هي أولى بها مني لأنها تحب الرمان كثيراً.. وعندما وصلت سلة الرمان إلى الزوجة فرحت بها كثيراً لأنها تحب الرمان كثيراً، وحُرمت منه منذ أن تركت قصر أبيها، وكسرت رمانة لتأكلها وإذا بها تجدها ملآنة لؤلؤاً ومرجاناً وزمرداً، فاندهشت، وأخذت قليلاً منها إلى الصائغ لتتأكد من قيمتها، فأعجب بها الصائغ واشتراها منها بمال كثير.



وهكذا صارت تكسر رمانة كل بضعة أيام وتبيع جواهرها بمال كثير، حتى اجتمع عندها مال وفير، فاشترت أرضاً مقابل قصر أبيها، وأتت بأفضل البنائين وأعطتهم مالاً كثيراً، وطلبت منهم أن يبنوا على هذه الأرض قصراً أكبر وأضخم من قصر الملك وفي أقصر زمن ممكن.

وبعد انتهاء القصر فَرَشَتْهُ بأغلى الفرش، وجلبت له الخدم والحشم والعبيد.

وعندما عاد زوجها وجدها في قصر منيف، وعزٍّ وغنى، وخدم وحشم، فتعجب من ذلك وظن أنها عادت إلى أبيها، ولكنها أخبرته بقصة سلة الرمان.. ففرح كثيراً.

وبعد عودته مع القافلة انتخبه التجار شهبندراً[1] للتجار بسبب ما لمسوه فيه من حُسن المعاملة والتضحية والعقل.. وعندما رأى الملك هذا القصر المنيف مقابل قصره سأل: لمن هذا القصر؟ قالوا: هذا لشهبندر التجار، فاستدعاه ليتعرف عليه، فأعجب به كثيراً بسبب رجاحة عقله وحُسن تدبيره، وتوثقت العلاقات بينهما.

ثم طلبت بنت الملك من زوجها أن يدعو الملك على الغداء، فدعاه، وفي اليوم الموعود صنعت لهم طعاماً شهيّاً من الذي تعرف أن أباها يحبه ويفضله؛ لأنها هي التي كانت تشرف على طعامه عندما كانت في قصره، ولكنها لم تضع ملحاً في الطعام، وعندما أتى أبوها ووجد هذا الطعام الذي يحبه ويشتهيه، والذي لم يذقه منذ أن طرد ابنته الصغرى من قصره، تذكرها وحنّ إليها، وأقبل على الطعام بشهية ونَهم، ولكن ما إن وضع لقمة في فمه حتى وجده دون ملح، والطعام لا يطيبه إلا الملح، فرفع يده عن الطعام وقال:

---

(١) **شهبندر التجار**: هو رئيس التجار.

يا شهبندر التجار، ما هذا؟! قصر منيف، وخدم وحشم وعبيد، ومال كثير وطعام وفير، ولكنه مع الأسف دون ملح، وكيف يؤكل الطعام دون ملح، وعند ذلك ظهرت ابنته وقبّلت يديه وقالت له: أرأيت يا أبتِ أن الملح هو أساس طيبة الطعام، والطعام هو عماد الحياة، والعيش والملح هما اللذان يجمعان الأحباب، فهل كنت مخطئة عندما قلت لك: إنني أحبك أكثر من الملح؟.. فقبّلها أبوها ورضي عنها، وقال لها: لا تؤاخذيني يا بنتي فأنا الذي كنت مخطئاً، سامحيني.

ولكن أخبروني من أين لكم كل هذا النعيم، ومبلغ علمي أنك تزوجت عامل القمين؟ فحكوا له القصة، فقال لهم: هذا جزاء الاستقامة، فالاستقامة هي عين الكرامة.

توتة توتة خلصت الحدوتة، وفي عبك مفلوتة.



٢٧ طاعةُ الوالدَيْنِ واجبةٌ

وثوابُها عظيم، وجزاءُ عصيانهما أليم[١]

كان يا ما كان، يا قارئين يا كرام، بعد الصلاة والسلام على خير الأنام، وصحابته الكرام.

كان في الزمن القديم عابدٌ من بني إسرائيل اسمه (جُرَيج)، بنى لنفسه صومعةً من الطين خارج البلد، وصار يتعبَّد اللّه ﷻ فيها، كان يأكلُ ممَّا يزرعه في صومعته من الخضروات، ويشرب من نبع قريب، وكانت له أمٌّ تأتي لزيارته كلَّ بضعة أيام فتجلس معه بعض الوقت، ثم تعود إلى بيتها في البلد.

ومضى على ذلك سنوات عديدة، وفي أحد الأيام أتتْ أمُّه لزيارته، وصارت تصيح: يا جُريج! افتح الباب، يا جُريج! افتح الباب، ولكن جريجاً كان يصلي، فلم يقطع صلاته ليفتح الباب، وانتظر حتى انتهى من صلاته فنزل وفتح الباب، فوجد أمَّه ذهبتْ لأنها لم تكن تعلم أنه كان يصلي.

وفي اليوم الثاني أتتْ أمُّه أيضاً وصاحت: يا جُريج! افتح الباب يا جُريج! افتح الباب.. ولكن جريجاً لم يفتح الباب؛ لأنه كان يصلي وأمه لا تعلم بذلك، وعندما انتهى من صلاته فتح الباب، فوجد أمَّه قد ذهبت.

في اليوم الثالث حصل الشيء نفسه أيضاً، عند ذلك غضبت الأمُّ، لأنها لم تعلم أن ابنها كان يصلي، فدعت عليه وقالت: اللّهم لا تُمِتْ جُريجاً حتى

---

(١) هذه القصة مأخوذة من حديث صحيح متفق عليه، ذكره النووي في كتاب: رياض الصالحين، تحت رقم (٢٦٠).



تبتليه بالنساء الساقطات!.. واستجاب الله ﷻ دعاءها، لأن جريجاً كان يصلي صلاة النفل - أي: السُّنَّة - لا الفرض، وطاعة الوالدين واجبة؛ فهي مقدمة على السُّنَّة، لذلك كان على جريج أن يقطع صلاته ويفتح الباب لأمه.

وكان بنو إسرائيل يتذاكرون أحوال جُريج في مجالسهم، ويمدحونه ويقولون عنه: إنه عابد تقي صالح لم يرتكب ذنباً قط.. فقامت امرأة

جميلة ولكنها ساقطة من وسطهم، وقالت: ماذا تعطونني إذا أنا فتنتُ لكم جريجاً وأفسدت عليه عبادته؟ فقالوا: نعطيك ألف دينار..

فاستيقظتْ في اليوم التالي في الصباح، فتزينت وتجمَّلت ولبست ثياباً قصيرة مكشوفة، وذهبتْ إلى صومعة جريج وطرقت عليه الباب، فأطلَّ عليها من النافذة وقال لها: ماذا تريدين؟ قالت: افتح لي الباب، أريد أن أسألك سؤالاً دينيّاً.. ولكنه عندما رآها على هذه الهيئة من الزينة والتكشُّف أعرض عنها، وقال لها: اذهبي واسألي غيري.. عَصَمه الله سبحانه وتعالى من الشيطان بفضل تفانيه في طاعته.

ثم كرَّرت المرأة محاولتها في الأيام التالية، ولكنه كان يعرض عنها ولا يلتفت إليها.

وفي المرة الأخيرة عندما يئست من جريج مرت أثناء عودتها إلى البلدة على راعٍ يرعى الغنم، فجلست معه ونامت معه، فحملت منه، وبعد تسعة أشهر وضعت غلاماً، فحملته وأتت به إلى مجلس بني إسرائيل وقالت لهم: هذا الغلام حملتُ به من جريج الذي تمدحونه وتقولون عنه: إنه عابد صالح، وأنا أطالبكم الآن أن تعطوني ألف الدينار التي وعدتموني بها.

عند ذلك اندهش بنو إسرائيل من هذا الخبر، وذهبوا إلى الملك وأخبروه بما فعل جريج.. فغضب الملك عليه غضباً شديداً، وأمر جنوده أن يأتوه بجريج، وأن يهدموا صومعته.

فذهب الجنود وسحبوا جريجاً من صومعته، ثم هدموها إلى الأرض، وأخذوا جريجاً إلى الملك وهم يضربونه ويسبُّونه.

وعندما وصل جريج إلى الملك قال له: لماذا تفعلون بي هذا؟ ما هو الذنب الذي أذنبتُه لكي تعاملوني هذه المعاملة؟ فقال له الملك: ألا تدري ماذا فعلت؟! لقد اعتديت على امرأة من بني إسرائيل فحملتْ منك

ووضعتْ غلاماً، وأنت تتظاهر بالعبادة والصلاح!.. فقال جريج: أين هذه المرأة؟ فجاؤوا بها، ولما رآها جريج قال: هذه المرأة كاذبة، فقد حاولتِ الدخول إلى صومعتي عدة مرات، ولكنني منعتُها من ذلك. فقالت المرأة: كلا إني حملتُ منه، والغلام الذي وضعتُه هو ابنه.

فقال جريج: أين الغلام؟ فأتوا به، وهو لا يزال ابن بضعة أيام.. وعندما رآه جريج قال: دعوني أصلِّي ركعتين.. فتركوه، فصلَّى، ثم توجه إلى الغلام ونخسه بإصبعه في بطنه، وقال: من أبوك يا غلام؟ فنطق الغلام بقدرة الله ﷻ وقال: أبي الراعي!.. وكانت هذه كرامة لجريج أكرمه الله تعالى بها بفضل عبادته له وطاعته له.

وعندما سمع الملك وبنو إسرائيل ذلك انكبُّوا على جريج يعتذرون إليه، ويقبّلون يديه، ويطلبون منه أن يغفر لهم الإساءة التي أساؤوها إليه.. وأمر الملك أن يعيدوا بناء صومعة جريج من الذهب، ولكن جريجاً رفض ذلك وقال: لا تعيدوا بناءها من الذهب، بل أعيدوا بناءها من الطين كما كانت.

وبعد ذلك ذهب جريج إلى أمه وقبَّل يديها، وقال لها: لقد كنتُ أصلي عندما أتيتِ إلى صومعتي وناديتني.. فرضيَتْ عنه ودعت له. وعاد بعد ذلك إلى صومعته كما كان.

العبرة من القصة

طاعة الوالدين واجبة وثوابها عظيم، على شرط ألاَّ يكون في طاعتهم معصية لله تعالى، والله ﷻ لا يتخلّى عن عباده المطيعين الصالحين، وعلى الرجال أن يبتعدوا عن الاختلاط بالنساء.. فالنساء فتنة للرجال، والرجال فتنة للنساء[1].

---

(١) يقول النبي ﷺ: «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء» رواه مسلم والنسائي.

٢٨ الفرجُ بعدَ الضِّيقِ

كان يا ما كان، يا قارئين يا كرام، بعد الصلاة والسلام على خير الأنام، وصحابته الكرام.

كان في مدينة بغداد تاجرٌ شابٌّ يدعى أمين، وكان من أكثر تجار بغداد مالاً، ومن أنجحهم تجارة، وكان مؤمناً صادقاً، يحجُّ كثيراً، ويوزِّع أموالاً كثيرة على الفقراء والمحتاجين.

ذهب في إحدى السنين إلى الحجِّ، وأخذ معه عدداً كبيراً من الخدم والغلمان ليحجوا على حسابه الخاص، وكانوا يذهبون عن طريق البر، على الجمال والبغال، لأنه لم يكن في ذلك الوقت سيارات ولا طائرات.. وكان يحمل معه همياناً ـ أي: حزاماً من الجلد ـ فيه ثلاثة آلاف دينار، وعشر جواهر، وفي الطريق ذهب لقضاء حاجته فضيّع الهميان بين الرمال، وفتَّش عنه فلم يجده، فتركه ولم يحزن عليه؛ لأن معه أموالاً كثيرة غيره مع خدمه وغلمانه.

وبعد عودته من حجته هذه ركبه سوء الحظ أو سوء التدبير، فتوالتْ عليه الخسائر في التجارة، وكان الدائنون الذين لهم أموال عليه يطالبونه بأموالهم فيدفعها لهم، أما الذين له عليهم ديون وأموال؛ فإنه كان يطالبهم فلا يدفعون له شيئاً، وهكذا اضطرَّ بعد بضعة أشهر إلى إعلان إفلاسه، بعد أن باع بيته وأملاكه وغلمانه وتجارته كلَّها لوفاء الديون التي عليه.

ثم اضطر إلى الانسحاب من بغداد نهائيّاً هرباً من عيون الحاسدين والحاقدين والشامتين، وذهب هو وزوجته إلى مدينة البصرة؛ حيث لا يعرفه هناك أحد، ووجد في أطرافها خاناً قديماً استأجر فيه غرفة صغيرة لينام فيها هو وزوجته.

وكانت نفسه عزيزة عليه؛ فلم يشحد ولم يتسوَّل، ولم يطلب من أحد شيئاً أو صدقة، بل كان يذهب كل يوم إلى السوق فيشتغل حمّالاً يحمل للناس والتجار أغراضهم وبضائعهم، ويشتري بالأجرة التي يأخذها طعاماً له ولزوجته، ويعود إلى البيت.

وجاء الشتاء، وجاء البرد والمطر، وقلّ العمل، وقلَّتِ الأجرة، وأصبحوا يبيتون أكثر أيامهم جائعين، ومع ذلك صبروا صبر الكرام على نوائب الدهر ومصائب الأيام.

وكانت زوجته حاملاً، وفي إحدى الليالي جاءها المخاض ووضعت غلاماً، وكانت جائعة لأنها لم تأكل طعاماً في ذلك اليوم، وأحسَّتْ بنفسها أنها ستموت هي ووليدها من الضعف والإِعياء وقلة الحليب، فتوسَّلت إلى زوجها أن يأتيها بشيء تتقوَّت به، ففتش في ثيابه فوجد ربع درهم ليس غير، فقالت له: اشترِ به شيئاً أَقْتَتْ به، اشترِ به زيتاً وحلبة فإنهما يغذيان ويَدُرَّان الحليب.

فأخذ صحناً من الفخار كان عنده، وذهب يفتِّش عن دكان لم تغلق بعد ليشتري زيتاً وحلبة، وكان البرد شديداً والرياح قوية والمطر يهطل بغزارة، ووجد دكاناً يوشك صاحبها أن يغلقها، فاستوقفه ورجاه أن يبيعه زيتاً وحلبة بربع درهم. فقال له: وماذا أعطيك بربع درهم؟! أليس معك أكثر منه؟ فقال له: والله ليس معي غيره وامرأتي وضعت الآن وتحتاج إلى شيء تقتات به. فقال له صاحب الدكان: ما دمت فقيراً فإنني سأملأ لك

الصحن زيتاً وحلبة بربع الدرهم، فشكره الرجل وأخذ الصحن وذهب يتعثر في الظلام والأمطار والرياح، وفجأة عثرت رجله بحجر كان في طريقه فوقع على وجهه فوق الماء والطين، وسقط الصحن من يده فانكسر وسال ما فيه من الزيت والحلبة، واختلطا بالطين والتراب، فأحسّ كأن سكيناً أصابت قلبه، وأن انكسار الصحن قد قضى على كلِّ آماله في الحياة!.. فما هذا النحس الذي يلازمه؟!..

صحيح أن الله ﷻ يمتحن عباده، وقد امتحنه بما فيه الكفاية، فلماذا كل هذا البلاء؟!.. لقد أضاع ثروته كلَّها وما حزن كل هذا الحزن.. لقد أحسَّ الآن كأنَّ آماله كلَّها كانت في هذا الصحن، ثم انهارت دفعة واحدة، ولم يدرِ أن الفجر يبزغ بعد اشتداد الظلام، وأن الفرج يأتي بعد شدة الضيق[1].

ولكن ماذا يعمل الآن؟.. هل يعود إلى زوجته خالي اليدين وهي تكاد تموت من الجوع وتنتظره بفارغ الصبر؟.. وماذا يقول لها؟ إن الموت أهون عليه من هذا!.. وأين يذهب إذن؟ وأي باب يطرق، والظلام دامس والبرد شديد والمطر غزير؟!..

لم يعد أمامه إلا باب الله ﷻ يطرقه، فقال: سلمت أمري إليك يا رب! أنت حسبي ونعم الوكيل.. وأحسَّ بأنه يريد أن يبكي وأن الدموع تنفر من عينيه، فأسند ظهره إلى حائط تحت ظل غرفة عالية لتحميه من المطر، وأسلم نفسه للبكاء والعويل بصوت مرتفع، فالشوارع خالية ولا يسمعه أحد في هذه الليلة الباردة من الشتاء.. وكأن الله ﷻ قد آذن

---

(١) يقول الشاعر:

إذا تضايق أمرٌ فانتظر فرجاً ... فأضيق الأمر أدناه إلى الفرج



بالفرج، فهو قد ابتلى عبده هذا وامتحنه بما فيه الكفاية، فوجده صابراً، نعم العبد إنه أوّاب[١].

فانفتحت نافذة في الغرفة التي فوقه، وأطلَّ منها رجل وقال له: لماذا تبكي هذا البكاء الشديد يا رجل؟!.. هل أنت امرأة أم طفل؟!.. ما الذي حدث لك حتى تبكي هذا البكاء الشديد؟! لقد أزعجْتَ أهل هذا البيت، وأيقظْتَ أطفالنا من نومهم، هل تقول لي ما هو سبب بكائك؟ فقال له: سبب بكائي صحن من الفخار كان فيه زيت وحلبة وقع مني وانكسر، فقال له الرجل: يا رجل! صحن لا يبلغ ثمنه نصف درهم تبكي عليه كلَّ هذا البكاء؟!..

فأجابه: لقد أضعت منذ سنتين، على طريق الحج، همياناً ـ حزاماً ـ فيه ثلاثة آلاف دينار وعشر جواهر؛ فما سألتُ عنه ولا حزنتُ عليه حزني على هذا الصحن، لأنني كنتُ أملك غير ذلك الهميان كثيراً من المال، أما هذا الصحن فهو كلُّ ما أملك الآن، وزوجتي نفساء، تكاد تموت من الجوع وهي تنتظر عودتي بفارغ الصبر.

وعندما سمع الرجل ذلك أغلق النافذة بسرعة، ونزل من الغرفة، وفتح باب بيته، وأقبل على التاجر، وقال له: أنت ما اسمك؟ قال: أمين. قال: ومتى ضيَّعْتَ هميانك؟ قال: منذ سنتين عندما كنتُ ذاهباً إلى الحجِّ. قال: وأين ضيعته؟ قال: على بُعْدِ ثلاث مراحل تقريباً من البصرة باتجاه الحجاز، قال: وما لون هميانك؟ قال: هو من الجلد لونه أسود، ولكن لماذا تسألني كل هذه الأسئلة الآن؟ قال: لا شيء، ولكنني أراك رجلاً فقيراً بائساً هدّه الفقر، واستولى عليه اليأس، لذلك تعال معي إلى داخل

---

(١) **الأوّاب**: التائب من الذنب سريعاً.

البيت.. وأخذ بيده ليدخله إلى البيت، فسحب يده منه وقال: إلى أين أدخل، وزوجتي في الخان تكاد تموت من الجوع، وتنتظرني بفارغ الصبر؟! فقال له الرجل: تعال معي وسنأتي بزوجتك أيضاً من الخان.. عند ذلك دخل معه إلى البيت.

فأيقظ الرجل غلمانه وأمرهم أن يأخذوا التاجر أمين إلى الحمام، وأن يلبسوه ثياباً جديدة، ثم يأخذوه إلى غرفة خاصَّة به في جناح خاص له ولزوجته لينام ويرتاح فيها.. ثم أرسل جماعة من غلمانه وجواريه ليأتوا بزوجة أمين وابنها من الخان، وليفعلوا بها مثل ما فعلوه مع زوجها من إدخالها الحمام وإلباسها ألبسة جديدة، ثم أخذها إلى الجناح الخاص بها وبزوجها، وإطعامها ما تشاء من الطعام، وبعد أن خرج التاجر أمين من الحمام وذهب إلى جناحه الخاص وجد زوجته قد سبقته إليه بعد أن اغتسلتْ وأكلتْ وشربتْ وأرضعَتْ وليدها، فسكتَ ونام بعد أن كان يبكي بكاءً شديداً.. وعندما وجد زوجته وابنه اطمأنَّ وفرح كثيراً ونام هو وزوجته نوماً عميقاً بعد الذي عاناه في هذه الليلة من العذاب والتعب.

وفي الصباح استيقظ أمين قبل طلوع الشمس، وصلَّى الصبح وشكر الله ﷻ على فضله ونعمه، وبعد أن انتهى من صلاته وجد الغلمان والجواري قد أتوا له ولزوجته بطعام الفطور، وفيه كلُّ ما لذّ وطاب، فسألهم عن صاحب هذا القصر: من يكون؟ فقالوا له: إنه شهبندر تجار البصرة، أي: رئيس التجار.. وبعد الظهر أتاهم طعام الغداء، وفي المساء أتاهم العشاء، وبقوا على هذه الحالة مدة أسبوع، يأتيهم الطعام ولا يرون صاحب القصر الذي استضافهم عنده.

وبعد الأسبوع أتى صاحب القصر لزيارة أمين في جناحه، فخف لاستقباله وأخذ يشكره على ما قدمه له وأكرمه به، وأنه لا يستطيع أن

يكافئه على معروفه هذا، ودعا الله ﷻ أن يجزيه خير الجزاء، ثم استأذنه بالذهاب هو وزوجته إلى غرفتهم في الخان، فحلف صاحب القصر بالله تعالى أنهم لن يذهبوا، وقال: هذا الجناح هو لكم ستسكنون فيه، فأنا لا حاجة لي به. فقال له أمين: ولكنني لا أقبل أن أعيش هكذا أنا وزوجتي وابني من مال غيري، وأن أجلس هكذا دون عمل.

فقال له صاحب القصر: لا، بل ستعمل، ألم تقل: إنك تاجر وتفهم بالتجارة، فهذه مئتا دينار ذهباً، اذهبْ منذ الغد واشتغل بها بالتجارة، وتعيَّش بعد اليوم مما تربحه في تجارتك.. ودفع له مئتي دينار ذهباً، قائلاً: هذه قرضة عندك.

فأخذها أمين فرحاً بها، فمن أعزِّ أمانيه أن يعود تاجراً كما كان، وذهب إلى السوق فاستأجر دكَّاناً صغيرة، واشترى بعض البضاعة من تُجَّار الجملة، ووضعها في الدكان.. وصار يعمل بجدٍّ ونشاط، كل يوم من الصباح إلى المساء.

وبعد شهرين نظر في حسابه فوجد أن رأس ماله قد أصبح أربعمئة دينار، أي: إنه ربح مئتي دينار في شهرين، فوضع مئتي دينار في كيس وذهب إلى صاحبه شهبندر التجار، فسلَّم عليه وأعطاه كيس الدنانير قائلاً له: هذه المئتا دينار، القرضة التي لك عندي، قد أصبحت أملك مثلها ولله الحمد، ولم أعد بحاجة إليها، فأعادها إليه وقال له: اتركها معك الآن، وهذه خمسمئة دينار أخرى فوقها، وسِّعْ بها تجارتك ما دمت ماهراً في التجارة إلى هذا الحد.

فأخذها وهو يكاد يطير من الفرح.. واستأجر مخزناً كبيراً بدلاً من دكانه الصغيرة، ووسع تجارته، فصار يتعامل مع تجارٍ من بغداد والشام وإيران والهند والصين.. وبعد سنة أصبح من كبار تجار البصرة.

وفي يوم من الأيام وضع سبعمئة دينار في كيس وذهب إلى شهبندر التجار ليرد إليه قرضته.. ولكن هذا رفض أن يأخذها وقال له: اتركها معك، وأنا أدعوك على العشاء غداً، لا تنسَ ذلك.

وفي اليوم الثاني ذهب إلى قصر شهبندر التجار لحضور وليمة العشاء، وبعد العشاء حمل شهبندر التجار بيده صندوقاً وضعه على الطاولة، ثم فتحه وأخرج منه همياناً أسود، وقال للتاجر أمين: هل تعرف هذا الهميان؟ وما أن رآه حتى صاح: هذا همياني، وسقط مغشيّاً عليه.

فأسرع الخدم إليه وصاروا يرشّون الماء البارد على وجهه حتى أفاق.. عند ذلك قال له الشهبندر: منذ سنتين ذهبت إلى الحج، وعلى بعد ثلاث مراحل من البصرة ذهبتُ لقضاء بعض حاجتي، فعثرت على هذا الهميان، فلم أمسَّ ما فيه لعلّي أجد صاحبه فأدفعه له، وعندما ذكرتَ لي صفات هميانك الضائع تأكدتُ أن هذا هو هميانك، ولو كنتُ دفعتُه لك عند ذلك لربما أصابك سوء، والمال الذي أعطيتُه لك هو من مالك، بارك الله تعالى لك فيه(١).

العبرة من القصة

لا تيئس، فما بعد الضيق إلا الفرج.

---

(١) يقول الله تعالى: ﴿إنه من يتَّقِ ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ [يوسف: ٩٠].

٢٩ جزاءُ التَّكاسُلِ عنِ الصَّلاةِ

والكذب وأكل الربا والغيبة والعمل السَّيِّئ

قالت جدتي: هل تعرف ما يُصنع بالذي يتكاسل عن الصلاة، والكذّاب، وآكل مال الناس دون حقٍّ، والذي يغتاب الناس، أي: يتكلم عليهم في غيابهم، والذي يعمل عملاً سيئاً، منذ أن يموتوا إلى أن تقوم القيامة؟.. قلت: لا، لا أعرف، وكيف أستطيع أن أعرف وهو شيء مجهول علينا؟! قالت: نعرف ذلك عن طريق الوحي الذي أوحاه الله ﷻ إلى سيدنا محمد ﷺ، وحكاه عليه الصلاة والسلام لأصحابه فقال ما معناه(١):

بينما كنتُ نائماً أتاني مَلَكان هما جبريل وميكائيل، فقالا لي: امشِ معنا لنريك بعض مشاهد السماء.. فذهبت معهما، وصعدا بي إلى السماء بقدرة الله ﷻ، وصرنا نتجوَّل هناك، فرأيت رجلاً مستلقياً على الأرض، ورجلاً آخر يحمل حجراً كبيراً يهوي به على رأس الرجل المستلقي، فيجرحه جرحاً كبيراً، فيصيح من شدة الألم، وبعد قليل يُشفَى الجرح، فيحمل الرجل الآخر الحجر مرة أخرى ويهوي به على رأس الرجل المستلقي، فيجرحه جرحاً كبيراً، فيصيح من شدة الألم، وهكذا..

---

(١) هذه القصة مأخوذة من حديث نبوي رواه البخاري ومسلم والترمذي، عن سمرة بن جندب رضي الله عنه، وذكره النووي رحمه الله تعالى، في كتابه: رياض الصالحين، في باب: تحريم الكذب، تحت رقم (١٥٤٤)؛ وجاء في كتاب: جامع الأصول، تحت رقم (١٠١١).



فقلت: سبحان الله! ما هذا؟ قالا: هذا الذي يتكاسل عن الصلاة فلا يصليها في وقتها، والذي يقرأ القرآن ولا يعمل به، يُفعل به هكذا منذ أن يموت إلى يوم القيامة.

ثم مشينا فرأيت رجلاً مستلقياً على الأرض أيضاً، ورجلاً آخر واقفاً فوق رأسه وبيده كلاَّب من حديد يدخله في فم الرجل المستلقي على الأرض، ثم يشدُّه بقوة فيشرم فمه إلى قفا رأسه، وكلما شفي الشرم عاد فشرمه مرة أخرى، وهكذا...

فقلت: سبحان الله! ما هذا؟ قالا: هذا الكذّاب الذي يكذب على الناس يُفعل به هكذا منذ أن يموت إلى يوم القيامة.

ثم مشينا فرأيت رجلاً يسبح في نهر من الدم يريد أن يخرج منه، وعلى شط النهر رجل آخر عنده حجارة كثيرة، كلما اقترب الرجل الذي يسبح من الشط ليخرج من النهر؛ ضربه الرجل الآخر بحجر على رأسه، فيعود إلى وسط النهر، وهكذا...

فقلت: سبحان الله! ما هذا؟ قالا: هذا الذي يأكل أموال الناس دون حق؛ فكأنه يسبح في دمائهم، ويبقى كذلك إلى يوم القيامة.

«ثم مشينا فرأيت ناساً لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم، وكلما شفيت جروحهم عادوا يخمشونها مرةً أخرى، وهكذا...

فقلت: سبحان الله! ما هذا؟ قالا: هؤلاء الذين يغتابون الناس، أي الذين يتكلمون عليهم في غيابهم، وسيظلون هكذا إلى يوم القيامة»[1].

---

(١) هذا الجزء من القصة هو معنى حديث نبوي، رواه أبو داود عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وذكره النووي رحمه الله تعالى، في باب: الغيبة، من كتابه: رياض الصالحين، تحت رقم (١٥٢٤).

ثم مشينا فرأيت ناساً جانب وجههم الأيمن كأجمل ما يكون، وجانب وجههم الأيسر كأبشع ما يكون.. فتعجبت من ذلك، وقلت: سبحان الله! ما هذا؟ قالا: هؤلاء الذين يخلطون الأعمال الصالحة بالأعمال السيئة، فيطيعون أبويهم أحياناً، ويعصونهم أحياناً أخرى، ويعطون الفقراء أحياناً، ويحرمونهم أحياناً أخرى، ويصدقون أحياناً، ويكذبون أحياناً أخرى... فإذا هم تابوا قبل موتهم فإن الملائكة تغمسهم في نهر ماؤه أبيض من اللبن، فيخرجون منه وقد زال عنهم القبح، وأصبحت وجوههم كأجمل ما تكون.

قالت جدتي: أرأيت يا بني؟! فإياك أن تتكاسل عن الصلاة، وإياك أن تكذب، وإياك أن تأكل أموال الناس دون حق، وإياك أن تستغيب الناس، وإياك أن تخلط عملاً صالحاً بآخر سيِّئ لكي لا يصيبك ما أصاب هؤلاء الناس.



٣٠ النَّفَرُ الثَّلاثَةُ

الأعمال الصالحة تنفع في الدنيا أيضاً

أراد النبي ﷺ أن يبين لأصحابه رضي الله عنهم أن الأعمال الصالحة تنفعهم في الدنيا أيضاً، بالإضافة إلى نفعها في الآخرة، فقصَّ عليهم هذه القصة، قائلاً ما معناه[١]:

خرج ثلاثة نفرٍ في سفر معاً، فساروا حتى أدركهم المساء، واقتربوا من أحد الجبال، فقال بعضهم لبعض: لنفتش عن كهف في هذا الجبل نبيت فيه هذه الليلة حتى الصباح، فوجدوا كهفاً في سفح الجبل فدخلوا ليناموا.

وفي الليل هبَّت ريح قوية وهطلت أمطار غزيرة، فتدحرجت صخرة كبيرة من أعلى الجبل بفعل الريح والمطر، وهبطت حتى وقفت أمام باب الكهف، فسدَّت الباب على النفر الثلاثة، وما عادوا يستطيعون الخروج منه.. فخافوا كثيراً، ماذا يصنعون؟ وكيف يخرجون؟.. لقد حاولوا دفع الصخرة عن الباب فلم تتزحزح؛ لأنها كبيرة جدّاً، وصاحوا وصرخوا ولكن لم يسمعهم أحد، لأنه لا يوجد أحد هناك.. فأيقنوا بالموت والهلاك.

ولم يبقَ لهم ملجأ ومساعد إلا الله سبحانه وتعالى ، فقال بعضهم لبعض: إذا كان أحدكم قد عمل عملاً صالحاً في سابق حياته لوجه الله تعالى، وخوفاً منه؛ فليدع ربه الآن لعلّه يفرِّج عنّا ما نحن فيه من البلاء.

---

(١) حديث النفر الثلاثة ورد في كتاب: رياض الصالحين، للنووي، في باب: الإخلاص وإحضار النية، تحت رقم (١٢).

فقام الأول وقال: اللّهم يا أرحم الراحمين، يا أرحم الراحمين، يا أرحم الراحمين، اللّهم إنك تعلم أنه كان لي أبوان (أي: أب وأم) شيخان كبيران، وكنت أطيعهما ولا أخالفهما أبداً، وأخدمهما، وأقدمهما على نفسي وعلى زوجتي وأولادي، خوفاً منك وابتغاء مرضاتك، لأن رضا الأب من رضا الرب.

وكان لي غنم أرعاها كلَّ يوم من الصباح حتى المساء، وعندما أعود في المساء كنت أحلب الغنم في إناء وآخذ الحليب إلى أبويَّ أولاً فيشربان حتى يشبعا، وبعد ذلك أسقي زوجتي وأولادي وأشرب أنا.

وفي أحد الأيام تأخَّرتُ في المرعى، وما عدتُ منه إلا في الليل، فحلبت الغنم في الإِناء وذهبت بالحليب إلى والديَّ ليشربا، فوجدتُهما قد ناما، فلم أرِدْ أن أوقظهما لئلا ينزعجا، وذلك خوفاً منك وطلباً لرضاك ورضاهما.

وبقيت واقفاً على رأسهما طوال الليل بانتظار استيقاظهما من نفسهما، وإناء الحليب بيدي، وأولادي حولي يبكون من الجوع يريدون أن يشربوا من الحليب، ولكنني لم أشأ أن أسقيهم قبل أن أسقي والديَّ، وبقيت هكذا حتى استيقظا في الصباح فأعطيتهما الحليب فشربا ودعيا لي بالتوفيق وكشف البلاء.. ثم سقيت أولادي وزوجتي وشربت أنا.

اللّهم إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاء رضاك؛ ففرِّج عنّا ما نحن فيه من هذه الصخرة.

فانفرجت الصخرة قليلاً عن الباب، ولكن لا يستطيعون الخروج.

فقام الثاني وقال: اللّهم يا أرحم الراحمين، يا أرحم الراحمين، يا أرحم الراحمين، اللّهم إنك تعلم أنه كان لي ابنة عم وكنت أحبها كثيراً، وكنت أدعوها لتنام عندي، وكانت تأبى ذلك وتقول: هذا حرام، كيف أنام عندك وأنا لست زوجتك؟! ألا تخاف الله؟! وكانت هي فقيرة وأنا غني، لذلك لم أرد أن أتزوجها بسبب فقرها.

وفي سنة من السنين انقطع المطر، فلم تمطر السماء، وتلف الزرع، وماتتِ الماشية، وجاع الناس، وجاعت ابنة عمي أيضاً، أما أنا فكنتُ غنيّاً، عندي مال كثير، فكنتُ أشتري الطعام من البلاد البعيدة، وأبيعه في بلدي فأربح به كثيراً من المال.



وفي أحد الأيام جاءتني ابنة عمي وهي جائعة ضعيفة، تجرُّ رجليها جرّاً من الجوع، وطلبت مني شيئاً تتقوَّت به لوجه الله تعالى، فقلت لها: إذا كنت تنامين عندي فأنا أعطيك مئة وعشرين ديناراً، وأطعمك كثيراً من الطعام... فلم ترضَ، وقالت: هذا حرام، ألا تخاف الله؟!..

وذهبتْ ثم عادتْ وقالتْ: إنني أكاد أموت من الجوع، وأرضى أن أنام عندك.. وعندما دخلتْ بيتي قالت: اتَّقِ الله تعالى يا رجل، ألا تخاف الله؟!فخفتُ منك يا الله، وأطعمتُها وكسوتُها وأعطيتُها المئة والعشرين ديناراً، وقلتُ لها: انصرفي لشأنك، فانصرفتْ دون أن أمسَّها بسوء، اللّهم إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاء رضاك ففرِّج عنّا ما نحن فيه من هذه الصخرة. فانفرجتِ الصخرة قليلاً عن الباب، ولكنهم لا يستطيعون الخروج.

فقام الثالث وقال: اللّهم يا أرحم الراحمين، يا أرحم الراحمين، يا أرحم الراحمين، اللّهم إنك تعلم أنني كنت صاحب مال وتجارة، وكان يعمل عندي أجراء كثيرون، وكنتُ أعطيهم أجرتَهم كاملة في آخر السنة، وفي إحدى السنين أخذوا أجرتَهم جميعهم ما عدا واحداً منهم، غضب ورفض أن يأخذ أجرتَه وذهب.

فلم آكلْ أجرتَهُ، بل اشتريتُ له بها غنماً على اسمه، ووضعتُ له راعياً عليها يرعاها كلَّ يوم، ومرَّت عدةُ سنوات وازدادتِ الأغنام حتى أصبحتْ قطيعاً كبيراً.

وفي أحد الأيام رأيتُ ذلك الأجير الذي أبى أن يأخذ أجرته وتركها وذهب، قد أقبل نحوي، وهو يجرُّ رجليه جرّاً من الجوع والمرض، فقد أصابه المرض، وصرف ما كان عنده من مال، فتذكر الأجرة التي تركها عندي، وجاء يطلبها ليستعين بها على ما هو فيه، فرحبتُ به، وفرحتُ كثيراً بمجيئه، وقلت له: هل ترى هذا القطيع من الغنم؟ هذا كله لك!..

فقال: لماذا تستهزئ بي وتضحك عليَّ؟! أنا ليس لي عندك قطيع من الغنم، أنا أريد أجرتي التي تركتها عندك منذ عدة سنوات.

فقلت له: أنا لا أستهزئ بك أيها الرجل، بل أقول لك الحقيقة.. هذه أجرتك التي كانت أمانة عندي، اشتريتُ لك بها أغناماً، نَمَتْ وازدادتْ في السنوات التي مرتْ حتى أصبحتْ قطيعاً كبيراً كما ترى.. ففرح الأجير الفقير فرحاً كبيراً، وحمد الله ﷻ وشكرني على ما فعلته من أجله، واستاق الأغنام كلها وذهب بها.

اللّهم إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاء رضاك فافرج عنّا ما نحن فيه من هذه الصخرة.. فانفرجت الصخرة عن باب الكهف، واستطاعوا الخروج منه.

فخرجوا من الكهف وهم لا يصدِّقون بالنَّجاة بعدما أيقنوا بالهلاك، وكان ذلك بفضل الأعمال الصالحة التي عملوها في حياتهم ابتغاء وجه الله تعالى.

فعليكم يا أبنائي ويا بناتي بالأعمال الصالحة، اعملوها لوجه الله تعالى لا لوجه أي إنسان، ولا تنتظروا الجزاء عليها من أحد، بل اتركوها لله ﷻ، حتى إذا وقعتم ـ لا سمح الله تعالى ـ في المصائب والكروب، دعوتم الله تعالى، كما فعل النفر الثلاثة، فأنقذكم بها، وإذا لم تحتاجوا إليها في الدنيا، كانت لكم ذخراً وحجاباً من النار في الآخرة[١].

العبرة من القصة

اعمل الخير لوجه الله تعالى، فينفعك في الدنيا وفي الآخرة.

---

(١) يقول الله ﷻ: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفٍّ ولا تنهرْهما وقلْ لهما قولاً كريماً ۞ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً﴾ [الإسراء: ٢٣ ـ ٢٤]، ويقول ﷻ: ﴿قد أفلح المؤمنون ۞ الذين هم في صلاتهم خاشعون ۞ والذين هم عن اللغو معرضون ۞ والذين هم للزكاة فاعلون ۞ والذين هم لفروجهم حافظون ۞ إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ۞ فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٧].



٣١ الظالمُ ينالُ جزاءَهُ ولو بَعْدَ حِينٍ

حكى لنا معلمنا في المدرسة الابتدائية هذه الحكاية، قال:

في إحدى البلاد كان يعيش تاجران متجاوران، يشتريان بضائعهما من مدينة بعيدة ويبيعانها في بلدهما، فيربحان بها، ويعيشان هما وعائلتاهما عيشة هنيئة حسنة.

وفي إحدى السنين قال أحد التاجرين للآخر: لماذا لا نسافر معاً إلى تلك المدينة البعيدة التي نشتري منها بضائعنا، فنتعاون مع بعضنا في هذه الرحلة البعيدة الشاقة، فوافق التاجر الآخر على السفر معاً، وأخذا يهيئان نفسيهما للسفر، ولم يكن في ذلك الوقت طائرات ولا سيارات، وإنما كانوا يسافرون على الدواب.

ركب كلٌّ من التاجرين دابته، وخرجا من المدينة معاً متجهَيْنِ إلى المدينة البعيدة؛ ليشتريا منها البضائع التي يحتاجانها.. وكانا في أثناء الطريق يأكلان معاً ويشربان معاً وينامان ويستيقظان معاً.

ولاحظ أحد التاجرين أن رفيقه معه حزام من الجلد يشده على بطنه، وهو مملوء بالدنانير الذهبية، فطمع في مال رفيقه، وصار الشيطان يوسوس له ويقول له: اقتل رفيقك وخذ ماله الكثير، فيصبح معك أموال وفيرة، تشتري بها بضائع كثيرة، وتصبح أكبر وأغنى تاجر في بلدك..والظاهر أن إيمانه كان ضعيفاً، وأنه كان لا يفكّر إلا في الدنيا؛ فهو لا يفكّر في الآخرة ولا في عذابها، لذلك استجاب لوسوسة الشيطان، وأخذ يفكّر في طريقة يقتل بها رفيقه.



وفي إحدى الليالي لم ينمِ الرجل الشرير، وعندما تأكَّد من نوم رفيقه، قام وأخرج من حقيبته حبلاً قويّاً، وربط به أيدي وأرجل رفيقه قبل أن ينتبه من نومه ويستطيع أن يدافع عن نفسه، وقد تعجَّب رفيقه من ذلك وسأله: لماذا تفعل ذلك؟ فقال له: إن معك مالاً كثيراً، وأريد أن آخذه وأضمه إلى مالي لكي أصبح أغنى وأكبر تاجر في بلدي، وأريد أن أقتلك أيضاً؛ فليس من المعقول أن أتركك حيّاً بعد ذلك.. وسحب سكيناً من حزامه ليذبح بها رفيقه.

فصار رفيقه يتوسَّل إليه ألا يفعل وأن يتركه حيّاً، وقال له: خذ مالي واتركني، حرام عليك أن تقتلني، ألا تخاف من الله تعالى؟! فأجابه: أنا لا أخاف من أحد، فكيف آخذ مالك وأتركك حيّاً؟! فإنك ستعود إلى بلدنا وتفضحني أمام الناس هناك، وتطالبني بمالك.

وهيأ سكينة ليذبحه، وعند ذلك مرَّتْ منْ فوقهم حمامة فنظر إليها التاجر المظلوم وقال: اشهدي يا حمامة على ظلم رفيقي هذا، وعلى قتله إياي!.. ونزلت السكين على عنق الرجل وفصلت رأسه عن جسده، وأخذ رفيقُه مالَه كلَّه، ثم حفر له حفرة في الأرض ودفنه فيها دون أن يراه أحد.. ولكن الله ﷻ ليس بغافل عما يعمل الظالمون، وهو يمهل ولا يهمل.

وذهب التاجر الشرير وحده إلى المدينة البعيدة، واشترى بضائع كثيرة وعاد بها إلى بلده ليبيعها ويربح بها كثيراً، وعندما شاهده أهل رفيقه التاجر سألوه عنه، فأبدى دهشته وقال: ألم يأتِ بعد؟! فقد سبقني على الطريق ونحن ذاهبان إلى البلدة البعيدة، لأن دابتي لم تستطع اللحاق بدابته، ولم أره بعد ذلك.. فتعجب أهل رفيقه، فكيف عاد هذا التاجر وتاجرهم لم يعد؟!..

ومـرَّتِ الأيـام، وكثرتِ الأمـوال في يد هذا التاجر الشرير، فأضلّه الشيطان، وصار يبذّر أمواله في الشرور والآثام، وصار يكثر من شرب الخمر، ويمشي مع أصحاب السوء والشر مثله.

وفي أحد الأيام كان يشرب الخمر مع أصحابه ويغنون ويرقصون في إحدى الحدائق، وأكثر من شرب الخمر حتى سكر وفقدَ عقله، وفجأة مرت من فوقهم حمامة، فنظر إليها التاجر الشرير، وصار يضحك ضحكاً متواصلاً، حتى استغرب أصحابه من ذلك، وألحُّوا عليه بالسؤال.

ولمَّا كان عقله قد ضاع من كثرة الخمر التي شربها، قال لهم: سأقول لكم عن سبب ضحكي؛ فهو مضحك حقّاً: ألا تذكرون التاجر فلان، جاري في الدكان الذي سافرتُ معه لشراء البضاعة؟!.. إنني ذبحته في الطريق وأخذت ماله، وعندما أردتُ ذبحه مرَّتْ فوقنا حمامة كتلك التي مرت الآن، فقال لها: اشهدي يا حمامة على قتل رفيقي لي، فتذكَّرْتُ ذلك وضحكتُ من غبائه، فهل تستطيع حمامة أن تشهد وأن تتكلم؟!..

وكان بين أصحاب التاجر الشرير الحاضرين معه أحد أقارب التاجر المقتول، فذهب وأخبر أهله بذلك، فقدموا دعوى إلى القاضي بذلك، فاستدعى القاضي أصحاب التاجر الذين سمعوا قوله، فشهدوا بما سمعوا، فاستدعى التاجر وواجهه بالشهود، فاعترف بما فعل، فحكم القاضي عليه بالإعدام وبمصادرة أمواله كلها، وهكذا نال جزاء ظلمه وغدره، ولو بعد حين، وعذاب الآخرة أشد وأبقى.

٣٢ الأمانةُ والوفاءُ بالوعدِ

قالت لي جدتي ـ رحمها الله ـ يوماً: يا بنيّ! إياك أن تُخلف وعداً وعدتَه، وإياك أن تخون أمانةً حملتَها، وإياك أن تؤخِّر وفاء دَيْن عليك، فإن «**الله سبحانه يغفر للشهيد كلَّ شيء إلا الدَّيْن**»[١].. واسمع هذه القصة التي حكاها سيدنا محمد ﷺ لأصحابه، فقال ما معناه[٢]:

كان فيما مضى رجل يعمل في التجارة، فاشترى بضاعة ليبيعها في مدينة أخرى ويربح بها، ولكن نقص عليه ألف دينار من ثمن البضاعة، ففكّر كيف يعمل، وأخيراً قرر أن يذهب إلى صديق له ويستدين منه ألف دينار ليسدد ثمن البضاعة.

فذهب إليه وطلب منه أن يعطيه ألف دينار ديناً لمدة ستة أشهر، فوافق صديقه على ذلك، ولكن قال له: أريد شاهداً على ذلك، فقال الرجل: الله سبحانه شاهد على ذلك، فقال صديقه: لقد رضيت بالله تعالى شاهداً، ولكن أريد كفيلاً يكفلك لأجل وفاء الدَّيْن، فقال الرجل: الله سبحانه كفيلي، فقال صديقه: لقد رضيت بالله كفيلاً، وأعطاه ألف الدينار.

فأخذها الرجل ودفع ثمن البضاعة، وحملها في إحدى السفن، وذهب بها إلى مدينة أخرى ليبيعها هناك، وفي تلك المدينة باع الرجل بضاعته وربح بها كثيراً، وحمد الله سبحانه على ذلك، ولكنه حينما أراد أن يعود إلى

---

(١) حديث نبوي، رواه مسلم. **والشهيد**: هو الذي يموت في سبيل الله تعالى.

(٢) هذه القصة مأخوذة من حديث نبوي، رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، وجاء في كتاب: جامع الأصول، تحت رقم (٧٨٢٦).



مدينته الأولى لم يجد سفينة تأخذه إليها، وصار يخرج كل يوم إلى ساحل البحر ليجد سفينة تحمله فلا يجد، حتى مضت مهلة ستة الأشهر.

وجلس الرجل على الساحل وصار يفكّر: ماذا يصنع؟ ورأى وهو جالس قطعة من الخشب بجانبه، فأخذها وحفر فيها جيباً ووضع فيه ألف دينار مع ورقة كتبها إلى صديقه قال فيها: هذه ألف الدينار التي استدنْتُها منك، وإنني لم أجد سفينة تحملني لكي أُعطيك إياها في الموعد الذي اتفقنا عليه، لذلك وضعتُها في هذه الخشبة ورميتها في البحر، ودعوتُ الله ﷻ الذي رضيتَ به كفيلاً لي أن يوصلها إليك.

ثم سدّ الخشبة سدّاً جيداً بالخشب والصمغ، ونظر إلى السماء وقال: يا الله إن صديقي قد رضي بك شاهداً وكفيلاً، فأوصلْ هذه الأمانة إليه، ورمى الخشبة في البحر ورجع إلى بيته.

وكان صديقه عندما مضت مهلة ستة الأشهر ولم يرجع الرجل، كان يخرج كل يوم إلى ساحل البحر، ويقف هناك وينظر لعلّ سفينة آتية من المدينة التي ذهب إليها الرجل فيكون هو فيها أو يسمع عنه خبراً.

وفي أحد الأيام، بينما هو واقف على ساحل البحر ينظر ويفكّر؛ إذْ رأى خشبة على سطح الماء يدفعها موج البحر حتى قذفها عند رجليه، فحملها فسمع خشخشة في داخلها، فأخذها معه إلى البيت ونشرها بالمنشار، فخرجت الدنانير منها، فعدّها فوجدها ألف

دينار، ووجد معها الورقة التي كتبها الرجل إليه، فحمد الله ﷻ وقال: إنه نعم الكفيل ونعم الوكيل.

أما الرجل صاحب التجارة الذي أرسل ألف الدينار في الخشبة؛ فإنه لم يكتفِ بذلك، أي: لم يكتفِ بالتوكل فقط، بل صار يخرج كل يوم إلى ساحل البحر لعلّه يجد سفينة تنقله إلى بلده الأولى؛ لكي يعطي صديقه الدَّيْن الذي عليه؛ فقد لا تصل الخشبة إليه، والدَّيْن أمانة، والأمانة يجب أن يؤدِّيَها الإنسان في الدنيا قبل أن يحاسبه الله ﷻ حساباً عسيراً في الآخرة.

وأخيراً وجد سفينة نقلته إلى بلده الأولى، وأخذ معه ثمن البضاعة التي باعها وربح فيها كثيراً، ومنذ أن وصل إلى البلد ذهب حالاً إلى صديقه، وقال له: والله يا صديقي إنني لم أجد سفينة تنقلني إلى هنا لكي أدفع لك الدَّيْن الذي عليَّ في الموعد الذي اتفقنا عليه، وقد وصلت الآن إلى هنا وأتيتُ قبل أن أذهب إلى بيتي لكي أعطيك ألف الدينار التي استدنتُها منك، وأنا أشكرك جدّاً على معروفك.

فقال له صديقه: يا أخي، احفظ مالك معك؛ فإن الله ﷻ قد أدّى عنك الأمانة، ووصلني الدَّيْن في الخشبة التي ألقيتها في البحر.. فحمدا الله سبحانه وشكراه، فهو نعم الكفيل ونعم الوكيل.

ثم قالت جدتي: أرأيت كيف يساعد الله ﷻ من يتوكل عليه؟! ولكن النبي ﷺ لم يحكِ هذه الحكاية لأصحابه لكي يرموا أموالهم في البحر، ولكن لكي يعلموا أن الأمانة ثقيلة، وأن الدَّيْن ثقيل، ولكي يسعَوا جهدهم لكي يؤدوا الدَّيْن في موعده، فهو يريد أن يعلّمهم أن يتوكلوا وأن يسعَوا في الوقت نفسه، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «**اعقل وتوكل**»[١] أي: اسْعَ وتوكَّل.

---

(١) حديث حسن، رواه الترمذي.

٣٣ الصَّدِيقُ وقتَ الضِّيقِ

كان يا ما كان، يا قارئين يا كرام، بعد الصلاة على النبي خير الأنام، وصحابته وآله الكرام.

كان ثلاثة رجال: محمد وأحمد ومحمود أصدقاء، يحبُّ بعضهم بعضاً كثيراً، وإذا احتاج أحدهم إلى شيء سارع الآخران إلى مساعدته بكلِّ ما يستطيعان.. وهكذا يجب أن يكون الأصدقاء، فالصداقة لا تكون بالكلام فقط؛ فهذه ليست صداقة وإنما هي مسايرة ومجاملة، وإنما تكون الصداقة بالفعل وبالمساعدة على قدر الاستطاعة، وبالمواساة بصدق وإخلاص.

في إحدى السنين أصابت محمداً أحد الأصدقاء الثلاثة ضائقة شديدة في العيد، فأتى العيد وليس عنده درهم واحد يشتري به لزوجته وأولاده ملابس وطعاماً يُدْخل عليهم الفرح بالعيد، فحزن كثيراً بسبب ذلك، فإن أولاده سيرون أولادَ الجيران يلبسون الثياب الجديدة ويأكلون الحلوى وأطايب الطعام، أمّا هم فليس لهم ثياب جديدة ولا طعام.

ففكّر محمد ماذا يصنع؟ وأخيراً قال: سأرسل إلى صديقي أحمد أستدين منه بعض المال؛ فإنه لن يتأخَّرَ عن إعطائي بعض المال إن كان عنده شيء منه.

فأرسل ابنه الكبير إلى صديقه أحمد يطلب منه أن يدينه بعض ما يتيسَّر له من المال؛ لكي يشتري لأولاده ثياباً وطعاماً للعيد، وكان أحمد أيضاً ليس لديه مال يصرفه على العيد، فأرسل ابنه إلى بيت صديقه محمود يستدين منه بعض المال، وكان عند محمود كيس فيه ألف درهم ليس عنده غيره، فأعطاه إلى ابن صديقه أحمد ليأخذه إلى أبيه.



وفي الدقيقة التي دخل بها ابن محمد إلى بيت أحمد ليطلب منه بعض المال لوالده محمد، دخل ابن أحمد يحمل الكيس الذي فيه ألف درهم آتياً من عند محمود وأعطاه لأبيه أحمد.

وعندما دخل ابن محمد سلّم على أحمد وقال له: إن والدي يسلّم عليك ويقول لك: إنه لا يملك شيئاً من المال لأجل العيد.. فإن كنت تستطيع أن تقرضه شيئاً من المال يكون لك من الشاكرين.. فحمل أحمد كيس الألف درهم الذي أتاه من عند محمود وأعطاه لابن محمد، وقال له: سلِّم على والدك، وقل له: ليس عندي غير هذا الكيس، ولو كان عندي غيره لأعطيتُك أكثر منه.

وقال لزوجته: فلنصبر يا امرأة في هذا العيد نحن والأولاد دون حلوى، ودون ثياب جديدة، فَحَقُّ الصديق على الصديق أعظم من ذلك بكثير.. فوافقتْهُ زوجتُه على ذلك، وقالت له: حسناً فعلتَ، والله تعالى لا يضيع أجر المحسنين.

وعندما وصل ابن محمد إلى بيت أبيه وأعطاه الكيس، وصل ابن محمود يطلب من محمد أن يدين أباه بعض المال لأجل العيد، لأن محمود بعد أن أعطى كيس الدراهم إلى ابن أحمد لم يبقَ معه شيء، فأرسل ابنه إلى محمد ليستدين منه، فأعطاه محمد الكيس الذي وصل إليه من أحمد.

وقال لزوجته: فلنصبر يا امرأة نحن والأولاد على الفقر والحرمان في العيد في سبيل أصدقائنا، ولنا الثواب من عند الله تعالى.. فوافقته زوجته على ذلك.

وعندما أخذ ابن محمود الكيس إلى أبيه، أخذ محمود الكيس وتأمَّله فوجده كيسه نفسه الذي أرسله إلى أحمد.. فتعجَّب من ذلك، وذهب بنفسه إلى أحمد وقال له: ما فعلت بالكيس الذي أرسلتُه إليك، قال: أرسل

إليَّ صديقنا محمد يستدين بعض المال فأرسلته إليه، فذهب الاثنان إلى محمد وسألاه عن الكيس، فقال: أرسلته إلى محمود؛ لأنه طلب أن يستدين مني بعض المال.

وهكذا دار الكيس بينهم؛ لأنَّ كلَّ واحد منهم كان يؤثر صديقه ويقدمه على نفسه.

عند ذلك قال بعضهم لبعض: فلنقسم الكيس بيننا.. فقسموه إلى ثلاثة أقسام؛ أخذ كلٌّ واحد منهم قسماً، وحمدوا الله تعالى.

وعندما سمع الخليفة المأمون بذلك أعطاهم ستة آلاف دينار، لكل واحد منهم ألفان.



هكذا تكون الصداقة بالفعل، لا بالقول والكلام الفارغ، تكون تضحية وإيثاراً.. والذين يكونون كذلك يكون لهم ثواب عظيم عند الله سبحانه وتعالى(١).

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «من نفّس عن مؤمن كربة من كُرَب الدنيا، نفّس الله عنه كربة من كُرَب يوم القيامة، ومن يسّر على معسر يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه» رواه مسلم. رياض الصالحين، رقم (٢٤٦)؛ وعنه رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عزّ وجلّ: المتحابون في جلالي لهم منابر من نور، يغبطهم النبيون والشهداء» حديث حسن صحيح، رواه الترمذي. رياض الصالحين، رقم (٣٨١).

٣٤ بقرةُ بَنِي إسْرَائِيلَ[١]

رضا الوالدين يُغني الولد

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ ... ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۞ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

[البَقَرَة: ٦٧ و٧٢-٧٣]

بعد أن خرج سيدنا موسى عليه السلام مع بني إسرائيل من مصر، تاهوا في صحراء سيناء، وبقوا فيها أربعين سنة؛ لأنهم لم يرضوا أن يدخلوا فلسطين كما طلب منهم موسى عليه السلام.. وأثناء ذلك حدثتْ هذه القصة:

رجل من بني إسرائيل اسمه (عاميل) وكان غنيّاً عنده مال كثير، ولكن ليس له ولد، وكان له ابن أخ فقير لا وارث له سواه، وكان الفقير ينتظر موت عمه الغني بفارغ الصبر لكي يرثه ويأخذ ماله كله ويصبح غنيّاً مثله.

ولكن الغني لم يمُتْ، فالأعمار بيد الله تعالى.. فاحتار الفقير ماذا يصنع؟! فهو يريد أن يصبح غنيّاً ليتمتع بالمال ويستريح من العمل والتعب، وعمه الغني لا يزال بصحة جيدة وإن كان قد أصبح شيخاً كبيراً.

---

(١) انظر: تفسير الخازن، والنسفي، وابن كثير، الآية (٦٧) وما بعدها من سورة البقرة.



وأخيراً وسوس له الشيطان أن يقتل عمَّه ويتخلَّص منه ما دام أنه لم يمت بعد، لذلك أتى في إحدى الليالي إلى بيت عمه الغني وطرق عليه الباب، فخرج عمه وسأله: ماذا تريد؟ قال: تعال معي أريد أن أكلمك في بعض الأمور، فذهب معه، وتمشيا في الشوارع معاً حتى وصلا إلى شارع بعيد مظلم، فجذب الشابُّ الفقير عمه الغني الشيخ الكبير فأوقعه على الأرض وذبحه بسكين كانت معه، ثم حمله وألقاه في مكان بعيد.

وفي الصباح وجد بنو إسرائيل (عاميل) مقتولاً في مكان بعيد، وعندما أخبروا ابن أخيه الفقير صار يبكي ويضرب وجهه، ويصيح: من قتل عمي؟ سأنتقم منه، سأقتله، وذهب إلى سيدنا موسى عليه السلام واشتكى إليه وطلب منه البحث عن قاتل عمه.

بحث سيدنا موسى عليه السلام عن القاتل فلم يهتدِ إليه، فاحتار في أمره، وأخيراً دَعَا ربه وطلب منه أن يدلَّه على القاتل، فقال له ربه سبحانه وتعالى: اذبحوا بقرة، واضربوا القتيل بشيء من هذه البقرة، فإنه يخبركم عند ذلك من قتله.

بقرة! وما شأن البقرة بالقتيل؟! وعندما أخبر موسى عليه السلام بني إسرائيل بذلك تعجبوا، وقالوا له: أتضحك منا وتستهزئ بنا؟! فقال: أعوذ بالله أن أفعل ذلك، ولكن هذا ما أخبرني به ربي.

ولو أنهم ذبحوا في ذلك الوقت أيّ بقرة كانت وضربوا القتيل بشيء منها لأخبرهم عن القاتل وقضي الأمر.. ولكنهم تشددوا وصاروا يسألون ويستفهمون، فشدَّد الله سبحانه وتعالى عليهم.

فقالوا لموسى عليه السلام: إذا كان ربك يطلب ذلك، فادعُه يبين لنا ما هي هذه البقرة؟ ما صفاتها؟ فدعا ربه، فقال له: هي بقرة متوسطة في العمر ليست كبيرة في العمر وليست صغيرة، ولم تحمل بعد..

فلم يكتفِ بنو إسرائيل بذلك، بل قالوا لسيدنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ادعُ ربك يبين لنا ما لونها؟ فدعا ربه، فقال له: هي بقرة صفراء، إذا وقعت الشمس عليها لمع جلدُها كما يلمع الذهب الأصفر، فهي تسرُّ من ينظر إليها وتعجبه.

ولكنهم لم يكتفوا بذلك وقالوا لسيدنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ : إن هذه الصفات موجودة في كثير من الأبقار، فادعُ ربك يبين ما هي البقرة التي يريدها؟ وإن شاء الله سنهتدي إليها.. وهنا عندما اعتمدوا على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ، بيّنها لهم فقال: هي بقرة لا تحرث الأرض ولا تسقي الزرع، لا عيب فيها، وجلدها كله أصفر، ليس فيه أية بقعة غير صفراء..

عند ذلك قالوا لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ : لا توجد في بني إسرائيل إلا بقرة واحدة بهذه الصفات.

بقرة واحدة بهذه الصفات كانت عند فتى من بني إسرائيل، صالح تقي، برٍّ بوالديه، أراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يكافئه على بره بوالديه، فشدَّد على بني إسرائيل لكي يجعلهم يشتروا بقرتَهُ بملء جلدها ذهباً، وهذه قصتها:

كان رجل من بني إسرائيل صالحاً تقيّاً، وله زوجة صالحة تقية، له منها ولد واحد ربّوه على الصلاح والتقوى، وكان عند الرجل عِجْلَة صغيرة صفراء فاقع لونها، تسرّ الناظرين.. وأدرك الموتُ الرجلَ، فقال لزوجته: احفظي هذه العجلة لولدي حتى يكبر، لا تفرطي فيها، فإذا كبر باعها واستفاد من ثمنها.. ودعوها ترعى في الغابة القريبة منا إلى أن تكبر ويكبر ولدنا أيضاً.

وتوفي الرجل الصالح، وصارت زوجته ترسل البقرة إلى الغابة لترعى كلَّ يوم، وكبر الولد وصار فتى، وكان صالحاً تقيّاً، برّاً بأمه، لا يخالفها في شيء مطلقاً.. كان يعمل في النهار ويقسم ليله ثلاثة أقسام: قسم للصلاة، وقسم للنوم، وقسم للجلوس عند رأس أمه، يرعاها ويحرسها، وينفذ طلباتها.

لذلك أراد الله ﷻ أن يكافئه في الدنيا، بالإضافة إلى مكافأته في الآخرة على طاعته لأمه وبره بها.. قالت له أمه ذات يوم: إن أباك خلّف لك هذه العجلة، وقال: إذا كبر ابني فليبعها وينتفع بثمنها.. وقد أصبحت العجلة بقرة جميلة الآن، انظر إليها كيف تلمع في الشمس كأنها الذهب، حتى سمّاها الناس: المذهَّبة.. اذهب يا بني فبعها، ولكن لا تبعها بأقل من ثلاثة دنانير، ولا تمضِ البيع حتى تستشيرني.

فأخذ الفتى البقرة وذهب بها إلى السوق ليبيعها، فأرسل الله ﷻ له مَلَكاً في صورة رجل ليختبر طاعته لأمه، لقيه على الطريق، فسأله: هل هذه البقرة للبيع؟ فأجابه الفتى: نعم إنها للبيع، فقال له: كم تريد ثمنها؟ فأجابه: إنني لا أبيعها بأقل من ثلاثة دنانير، ولا أمضي البيع حتى أستشير أمي. فقال له: أنا أشتريها بستة دنانير ولكن دون استشارة أمك. فقال له الفتى: لو أعطيتني بقدر وزنها ذهباً، لا أبيعك إياها دون استشارة أمي.

وعاد الفتى إلى البيت، وحكى لأمه ما قاله له الرجل.. فقالت له أمه: اذهب بها غداً إلى السوق، وإذا وجدت الرجل نفسه فقل له: أنا أبيعك إياها بستة دنانير كما قلت، ولكن لا أمضي البيع حتى أستشير أمي، فذهب الفتى في اليوم الثاني بالبقرة إلى السوق، ووجد الرجل نفسه فقال له: أنا أبيعك إياها بستة دنانير كما قلت، ولكنني لا أمضي البيع حتى أستشير أمي.

فقال له الرجل: أنا أشتريها منك باثني عشر ديناراً، ولكن دون استشارة أمك.. فقال له الفتى: لو أعطيتَني وزنها ذهباً، لا أبيعها إلا بعد استشارة أمي.

وعاد الفتى إلى البيت وحكى لأمه ما قاله له الرجل، وما قاله هو للرجل.. فقالت له أمه: يا بني! إني أظن أن هذا الرجل مَلَك أرسله الله ﷻ ليختبر طاعتك لأمك، فاذهب غداً إلى السوق، وإذا وجدتَه، قل له: أريد أن أستشيرك: هل تنصحني ببيع هذه البقرة الآن أم لا؟

فذهب الفتى في اليوم التالي إلى السوق، فوجد الرجل نفسه، فسأله: هل تنصحني أن أبيع هذه البقرة الآن أم لا؟ فأجابه: يا بنيّ! أنت فتى تقي صالح، بارّ بأمك، طائع لها، وهي راضية عنك، وإن الله سبحانه وتعالى يريد أن يكافئك على ذلك، لذلك أنصحك ألا تبيعها الآن، وسيشتريها منك موسى عليه السلام بمال بني إسرائيل؛ فلا تبعْهُ إياها إلا بملء جلدها ذهباً!.. واختفى الرجل.

وعاد الفتى إلى البيت وحكى لأمه ما حدث له مع هذا الرجل، فقالت له أمه: ألم أقل لك إن هذا الرجل مَلَك أرسله الله سبحانه وتعالى ليختبر طاعتك لأمك؟! احبس البقرة في البيت ولا تبعها الآن.

وقال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام: إن البقرة التي وصفْتَها لنا لا توجد في بني إسرائيل إلا عند فتى تقيٍّ صالح برّ بأمه.. فقال لهم سيدنا موسى عليه السلام: ائتوني به هو والبقرة لأنظر إليها.. فذهبوا إلى الفتى وقالوا له: إن موسى عليه السلام يطلبك أنت وبقرتك لينظر إليها. فاستشار الفتى أمه، فقالت له: يا بنيّ! خذ البقرة واذهب إلى سيدنا موسى عليه السلام، ولا تبع البقرة إلا بملء جلدها ذهباً.. فإذا دفعوا لك ذلك فبعها دون أن تستشيرني.

وذهب الفتى بالبقرة إلى موسى عليه السلام، ونظر سيدنا موسى عليه السلام إلى البقرة فوجدها مطابقةً للصفات التي ذكرها الله سبحانه وتعالى: بقرة لا صغيرة ولا كبيرة، لم تحمل ولم تلد بعد، لا تحرث الأرض ولا تسقي الزرع، صفراء فاقع لونها، كالذهب، تسر الناظرين..

عند ذلك قال سيدنا موسى عليه السلام للفتى: هل تبيع هذه البقرة يا فتى؟ وبكم تبيعها؟ قال الفتى: إنني أبيعها بملء جلدها ذهباً، ولا أبيعها بأقل من ذلك، هكذا قالت لي أمي، وأنا لا أخالفها مطلقاً.

فاستشار سيدنا موسى عليه السلام بني إسرائيل، لأن الثمن كبير جدّاً، فرضي

بنو إسرائيل به، لأنهم يريدون أن يعرفوا من قتل (عاميل) الغني.. فقال لهم سيدنا موسى عليه السلام: اجمعوا إذن ثمنها للفتى، فجمعوه.. وذبحوا البقرة وسلخوا جلدها، وملؤوها ذهباً وأعطوه للفتى، فعاد به إلى أمه وقد أصبح من كبار الأغنياء بفضل طاعته لأمه وبرّه بها.

وأخذ سيدنا موسى عليه السلام فخذ البقرة الأيمن ولسانها، وضرب بهما القتيل، فعاد حيّاً وقام على رجليه، والدم ينفر من عنقه، وقال: قتلني ابن أخي الفقير، وارثي الوحيد!.. ثم وقع ميتاً مرَّة أخرى كما كان، فقبض موسى عليه السلام على الرجل الفقير، فاعترف بأنه قتل عمَّه لأنه استبطأ موته، ويريد أن يرثه ويأخذ ماله، فقتله سيدنا موسى عليه السلام جزاء فعله هذا.

وهكذا طمع الرجل الفقير بمال عمه الغني فقتله، ولكنه لم يستفد شيئاً، بل خسر المال وفقد حياته، وحلّت عليه لعنة الله سبحانه وتعالى.

وأطاع الفتى الصالح أمه ولم يخالفها أبداً، وكان برّاً بها، فكافأه الله سبحانه وتعالى بأن جعله غنيّاً في الدنيا، وفي الآخرة له ثواب عظيم[١].

وتشدَّد بنو إسرائيل فصاروا يسألون: ما لون البقرة؟ وما عمرها؟ وما صفاتها؟.. فشدَّد الله سبحانه وتعالى عليهم بأن جعلهم يدفعون ملء جلدها ذهباً، ولو أنهم ذبحوا منذ البدء أية بقرة لكانت كفتهم.

العبرة من القصة

القناعة كنز لا يفنى، والباطل يؤدي إلى المهالك، ويسِّروا ولا تعسروا، وسهِّلوا ولا تتشدَّدوا، وطاعة الوالدين سبب للنجاح في الدنيا ولحسن الثواب في الآخرة.

---

(١) يقول النبي ﷺ: «من أحب أن يُبسط له في رزقه، ويُنسأ له في أثره - أي: يطول عمره - فليصل رحمه» متفق عليه. رياض الصالحين، رقم (٣٢٠).



٣٥ جزاءُ الكَذِبِ

كان يا ما كان، يا سامعين ويا قارئين يا كرام، بعد الصلاة والسلام على خير الأنام، وعلى صحابته الكرام.

كان أحد الملوك وعنده حاشية وندماء، وجنود ووزراء.. وأفضلهم عنده اثنان من الندماء (س) و (ع)، ولكنه كان يميل إلى أحدهما (س) أكثر من الآخر (ع) بسبب رجاحة عقله وسداد رأيه، لذلك كان يعطيه من الجوائز والأموال أكثر مما يعطي الآخر، ويقرِّبه منه ويقدِّمه ويجتمع به ويستمع إليه أكثر مما يفعل مع الآخر.

فحسد الآخرُ الأولَ، وأخذ يفكّر كيف يتخلَّص منه ومن منافسته له؛ لكي يبقى هو الوحيد عند الملك!.. ووسوس له شيطانه ونفسه الأمارة بالسوء بخطة جهنمية تقضي على منافسه، وتسبب له الموت والهلاك، ويصفَى عند ذلك الجوّ له وحده!.. ولم يدرِ أن من حفر حفرة لأخيه وقع فيها.

هذا الرجل الحسود (ع) استغلَّ في أحد الأيام غياب النديم العاقل الذكي (س)، واقترب من الملك وقال له: أريد أن أُسرّ لك بسر.. إن نديمك (س) يقول عنك في مجالسه الخاصة: إن فمك كريه الرائحة (أي: أبخر)، ولا يصدق أن تأذن له بالانصراف حتى ينصرف عنك ليتخلص من رائحة فمك الكريهة.. (إنه كذب على الملك لكي يجعله يقتل خصمه فيتخلَّص منه ومن منافسته).

ولكن الملك لم يصدق هذا الكلام أولاً، وقال له: وما الدليل على ما تقوله؟ فقال له (ع): يا صاحب الجلالة! إذا أتى (س) إلى مجلسك فقرّبْه منك كأنك

تريد أن تكلمه بسرٍّ بينك وبينه، وقرِّب فمك منه وانظر ماذا يصنع؟..

وخرج (ع) من مجلس الملك وذهب حالاً إلى بيت (س)، وطرق الباب، فردَّ عليه وخرج إليه، وعندما رآه تلقَّاه بالترحيب والاحترام ودعاه للدخول، فاعتذر.. وقال له: بل أنت تعال معي؛ فقد أعددتُ لك طعاماً على الغداء من الذي تحبُّه وتشتهيه، وأصرّ عليه حتى أخذه معه، وقدّم له طعام الغداء، وأكثر له فيه من البصل والثوم.. وهو يقول له: إن البصل والثوم نافعان جدّاً للصحة، فأكثر منهما، وصار يقدمهما له بيده، فيضطر إلى أكلهما خجلاً وحياءً منه ومسايرة له، وهو لا يعلم ما يخبئ له.

وعندما انتهى الغداء وأراد (س) الانصراف، قال له (ع): هل ستذهب هذا المساء إلى مجلس الملك؟ فقال له (س): سأذهب إن شاء الله تعالى.. فردّ عليه (ع): أنصحك يا صاحبي إذا أراد أن يكلمك الملك أن تضع يدك على فمك وأنفك؛ لئلا يشمَّ رائحة البصل والثوم منك، فقد أكثرتَ منهما، وهو لا يحبُّ رائحتهما كما تعلم.

وذهب (س) في المساء إلى مجلس الملك، فقرّبه الملك إليه، واقترب منه كأنه يريد أن يكلمه بسرٍّ، وإذا بـ (س) يضع يده على فمه وأنفه ويحاول الابتعاد عن الملك، ويحوِّل وجهه عنه.. وعند ذلك صدّق الملك ما قاله (ع) بحق (س)، وغضب عليه غضباً شديداً، وقال في نفسه: أهذا جزاء المعروف والإِحسان؟!.. وصمم على قتله.

ولكنه لم يرد أن يُقتَلَ أمامه؛ لأنه يحبه، لذلك كتب كتاباً إلى واليه على بلدة (هـ) قال له فيه: إذا أتاك حامل كتابي هذا فاقتله واسلخ جلده واحشه تبناً، وأعدْه إليَّ ليكون عبرة لغيره!.. وختم الكتاب وأعطاه إلى (س) وقال له: خذْ هذا الكتاب إلى والي بلدة (هـ) الآن.

فخرج (س) من مجلس الملك يريد السفر إلى بلدة (هـ)، فتلقَّاه (ع)



عند الباب وقال له: ماذا معك؟ قال: رسالة إلى والي (هـ).. فظن (ع) أن في الكتاب جائزة، فقال لـ(س): هل تسمح لي أن آخذ الكتاب إلى (هـ) وأريحك من هذا (المشوار)، لا سيما أن لي أقارب في بلدة (هـ) وأريد أن أراهم؟.. فأعطاه الكتاب.

وفي اليوم الثاني ذهب (س) إلى مجلس الملك، فتعجب منه كيف عاد حيّاً، وقال له: ألم تذهب إلى بلدة (هـ)، قال: لا، بل (ع) أخذ الكتاب وذهب عني، فقال له الملك: إن (ع) هذا يقول عنك: إنك تقول: إني أبخر وفمي كريه الرائحة. فقال (س): معاذ الله يا صاحب الجلالة أن أقول هذا الكلام! إذن فأنا أستحقُّ القتل إن كنت قلتُه. فقال الملك: فلماذا إذن كنتَ تضعُ يدك على فمك وأنفك عندما كنتُ أكلِّمك؟ قال (س): لأمنع رائحة البصل والثوم عنك.. وقصَّ عليه حكاية الغداء عند (ع) والبصل والثوم وما قاله له.

وأثناء هذا الكلام أتى البريد من مدينة (هـ) وهو يحمل جلد (ع) بعد أن قتله والي (هـ) وسلخه وحشاه بالتبن.. فقال الملك: هذا جزاء من يكذب ويحسد.. ومن حفر حفرة لأخيه وقع فيها[1].

العبرة من القصة

من حفر حفرة لأخيه وقع فيها.

---

(١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: أنه قال: «... **إن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يُكتب عند الله كذاباً**» متفق عليه. رياض الصالحين، رقم (١٥٤٠).

٣٦ مالُ الدُّنيا يَبْقَى في الدُّنيا

يقول النبي ﷺ: «**يتبع الميت ثلاثة: أهله وماله وعمله، فيرجع اثنان ويبقى واحد، يرجع أهله وماله ويبقى عمله**» متفق عليه.

يُروى أن سيدنا عيسى عليه السلام ـ وكان يحبُّ السياحة في الأرض ـ صادفه رجل في الطريق، فقال له: أحبُّ أن أسيح معك.. فأخذه معه ومضيا حتى مرَّا بقرية، فاشترى سيدنا عيسى ثلاثة أرغفة، وفي ظاهر القرية جلسا ليأكلا، فدفع سيدنا عيسى رغيفاً للرجل، وأخذ لنفسه رغيفاً، ووضع الرغيف الثالث جانباً، فسأله الرجل: لمن هذا الرغيف الثالث؟ قال: نحتفظ به احتياطاً لعلّ ضيفاً يأتينا.

وبعد أن أكلا قام سيدنا عيسى عليه السلام لبعض شأنه، وعندما عاد لم يجد الرغيف، فسأل الرجل: أين الرغيف؟ قال: لا أدري.

فسكت سيدنا عيسى، ومضيا فاعترضهما نهر، فأخذ سيدنا عيسى بيد الرجل وقال: بسم الله، ومشى على الماء ومشى الرجل معه حتى قطعا النهر، فتعجَّب الرجل! فقال له سيدنا عيسى: هل رأيت؟ قال: نعم، إنه لشيء عجيب! فقال له: أين الرغيف؟ قال: لا أدري.

فمضيا حتى إذا مرَّا بقرية صادفا فيها رجلاً أعمى ورجلاً أبرص، فتعلَّقا بسيدنا عيسى وأخذا يتوسَّلان إليه أن يضع يده عليهما ويبارك عليهما، فوضع يده عليهما وقال: بسم الله.. فَشُفيا، فقال للرجل: أرأيت؟ قال: نعم، إنه لأعجب من الأول!.. قال: أين الرغيف؟ قال: لا أدري.

فمضيا حتى جاعا وإذا بهما يريان ولد غزالة يسير خلف أمه، فاحتال عليه سيدنا عيسى حتى أمسك به، فذبحه وسلخه وشواه، وأخذا يأكلانه حتى أتيا عليه، فجمع سيدنا عيسى عظامه وقال: قُم بِاسْم الله، فقام ولد الغزالة يركض خلف أمه، فقال للرجل: أرأيت؟ قال: نعم، إنه لأعجب العجب! قال: أين الرغيف؟ قال: لا أدري.

فمضيا حتى وصلا إلى النهر، وكان النهار قد انتصف، فأرادا أن يستريحا، فوجدا كهفاً يطلُّ على النهر، فدخلاه ليجلسا فيه، وذهب الرجل لبعض شأنه، ووجد سيدنا عيسى أرض الكهف مفروشة بالرمال، فجمعها وقسمها ثلاث كومات، وعندما عاد الرجل إلى الكهف وجد سيدنا عيسى عليه السلام جالساً وأمامه ثلاث كومات من الذهب يكاد بريقه يخطف الأبصار، ففتح الرجل فمه دهشة وصاح: ما هذا؟! قال له سيدنا عيسى: هذا ذهب وجدتُه هنا، فقال له الرجل: ولمن هذه الكومات الثلاث؟ قال: واحدة لك، والثانية لي، والثالثة لمن أخذ الرغيف، قال: أنا أخذتُه، قال له سيدنا عيسى: الآن اعترفتَ يا صاحب الدنيا، كلُّ البراهين التي قدمتُها لك في الطريق لتعترف وتعود إلى رشدك لم تقنعك ولم تعتبر بها، ولم يقنعك سوى المال؟!.. أنت صاحب دنيا وأنا لا أسير مع صاحب الدنيا؛ فهذا فراق بيني وبينك، وخذ المال جميعه؛ خذ الكومات الثلاث.

وتركه وسار، وبقي الرجل وحده، وبعد برهة من الوقت طلع عليه فارسان مسلحان اتجها نحو الكهف ليستريحا فيه، ففوجئا بأكوام الذهب وبالرجل، فصاحا: ما هذا؟! فخاف الرجل على نفسه منهما وقال: هذه كومات ثلاث؛ لكل واحد منا كومة، فجلسوا جميعهم، وبعد برهة قال أحد الفارسين: إننا جائعون؛ فمن يأتينا بطعام من القرية المجاورة؟ قال الرجل: أنا آتيكم به، وذهب ليحضر الطعام، فقال الفارسان لبعضهما





البعض: كيف نعطي هذا الرجل كومة من الذهب ونحن أقوى منه؟! وتآمرا على قتله حينما يعود، وقال الرجل لنفسه: كيف أدع هذين الرجلين يأخذان مالي؟! والله لأضعن لهما سمّاً في الطعام يقضي عليهما.

وحينما عاد بالطعام المسموم هجم الفارسان عليه وضرباه بسيوفهما حتى قتلاه، ثم أكلا الطعام، وبعد برهة وجيزة أخذا يصرخان من الألم، ثم ما لبثا أن سقطا ميتين إلى جانب الرجل المقتول، وبقي مال الدنيا في الدنيا.

وفي ذلك الوقت عاد سيدنا عيسى عليه السلام إلى الكهف ليرى ما حصل فيه، فرأى الرجال الثلاثة قد ماتوا، ومال الدنيا في الدنيا لم يأخذوا معهم منه شيئاً، فقال: هذا شأن الدنيا وطلابها، إنها جيفة وطلابها كلاب. ثم وضع يده على الذهب، وقال:

بسم الله.. فعاد رمالاً.



٣٧ هابيلُ وقابيلُ[١]

الخير والشر

كانت الأرض هامدة مستقرة، لا يعكّر صفوَها شيء.. ولم يخلقها الله ﷻ لتبقى كذلك، وإنما خلقها لتكون مكاناً للدراسة والتعلُّم، ومكاناً للامتحان والاختبار والابتلاء لبني آدم؛ ليرى الله ﷻ- وهو أعلم - من يطيعه من بني آدم، فيعيده في الآخرة إلى الجنة التي خرج منها أبواه آدم وحواء، وليرى - وهو أعلم - من يعصيه ويطيع إبليس وجنوده، فيرسله في الآخرة إلى النار التي خلق منها إبليس وجنوده.

نزل آدم عليه السلام وحواء من الجنة إلى الأرض ليعمرها هو وذريته، ونزل إبليس أيضاً بعد أن أمهله الله ﷻ إلى يوم القيامة؛ ليبتلي به عباده وليمتحنهم.

وصارتْ حواء تحمل وتضع، وضعت أربعين ولداً في عشرين بطناً.. فكانت تحمل في كل بطن ولدين، ذكر وأنثى.. وأول ولدين وضعتْهُما، كان اسم الذكر منهما قابيل، واسم شقيقته الأنثى أقليما، وبعد سنتين وضعت هابيل وشقيقته لبودا.. وآخر ولدين وضعتهما كان اسم الذكر منهما عبد المغيث، واسم الأنثى أم المغيث.. وقد عمّر آدم عليه السلام ألف سنة، وعندما مات كان عدد أولاده وذريته أربعين ألفاً.

---

(١) قال تعالى: ﴿واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قرباناً فتُقبل من أحدهما ولم يُتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين﴾ [المائدة: ٢٧]. انظر: تفسير الخازن؛ وتفسير النسفي؛ وتفسير ابن كثير.

وشبّ قابيل وشقيقته وهابيل وشقيقته، وصار قابيل يعمل في الزراعة؛ فكان يزرع الحنطة والشعير والحبوب، وصار هابيل يعمل في تربية الغنم والمعز والمواشي، وكان قابيل مشاكساً، كثيراً ما يخالف أباه وأمه ولا يطيعهما، وكان هابيل صالحاً مطيعاً، لا يخالف أباه وأمه أبداً.

وأوصى الله سبحانه وتعالى آدم عليه السلام أن يزوِّج الذكر من كلِّ بطن من أنثى من بطن غير بطنه؛ أي: لا يتزوج من الأنثى التي ولدت معه في البطن نفسه.. لذلك أمر آدم عليه السلام قابيل أن يتزوَّج من لبودا شقيقة هابيل، وأمر هابيل أن يتزوَّج من أقليما شقيقة قابيل.

فرضي هابيل ولم يرضَ قابيل؛ بحجة أن شقيقته أقليما أجمل من شقيقة هابيل لبودا، فقال له أبوه آدم عليه السلام: إن الله سبحانه وتعالى قد أمرني بذلك، ولا يجوز أن تعصيه وتعصيني.. ولكن قابيل أصرّ على رفضه، فهو مشاكس ومخالف دائماً! عند ذلك قال لهما أبوهما: ليقدِّم كلٌّ واحد منكما قرباناً[1] إلى الله تعالى، والذي يكون قربانه مقبولاً يكون الحق معه.

إن آدم عليه السلام يعلم أن الحق مع هابيل، ولكنه أراد من ذلك أن يُعرِّف قابيل ذلك أيضاً، لعلّه يقتنع إذا رأى أن الله سبحانه وتعالى قد قبل قربان هابيل، ولم يقبل قربانه هو.

ولأن قابيل يعمل في الزراعة فقد قدَّم كومة من الحنطة، ولكنها كانت فاسدة سيئة، ولأن هابيل يعمل في تربية الأغنام فقد قدَّم أحسن كبشٍ عنده.

وضعا القربانين: كومة الحنطة والكبش على رأس الجبل.. وفي

---

(١) القربان: هو الشيء الذي يقدمه المرء ليتقرب به إلى الله سبحانه وتعالى.



الليل نزلت نار من السماء فأكلتِ الكبش، ولم تأكل الحنطة الفاسدة، أي: إن الله سبحانه وتعالى قد قبل قربان هابيل، ولم يقبل قربان قابيل، فقال له أبوه آدم عليه السلام: أرأيت يا قابيل؟! إن الحق مع هابيل، ويجب أن يتزوج شقيقتك أقليما، وتتزوج أنت شقيقته لبودا، ألم تقتنع بعد؟ فقال قابيل: إنني لم أقتنع ولا أريد أن أقتنع، ولن أتزوج شقيقته، ولن أزوجه شقيقتي.. فقال آدم عليه السلام: حسبي الله ونعم الوكيل منك يا عاصٍ، ولن يغفل الله تعالى عنك.

وسافر آدم عليه السلام إلى الحجاز ليحجَّ إلى الكعبة المشرّفة، قبل أن تهدم بطوفان نوح عليه السلام.. واستغل قابيل غياب أبيه آدم عليه السلام فأتى إلى أخيه هابيل، وقال له: أريد أن أقتلك لأتخلَّص منك؛ لأن الله سبحانه وتعالى قَبِل قربانك ولم يَقْبَل قرباني، فقال له هابيل: إن الله يقبل من المتقين الطائعين، ولا يقبل من العاصين.. وإن كنت تريد أن تقتلني فأنا لا أريد أن أقتلك، وإن قتلتني ستحمل ذنبي في عنقك.

ووسوستْ نفس قابيل الشريرة له أن يقتل أخاه هابيل.. ولكن كيف يقتله؟ إنه لا يعرف كيف يقتله!.. فهذا شيء لم يحدث قبل ذلك على الأرض.. عند ذلك ظهر له إبليس اللعين، وبيّن له كيف يستطيع قتل أخيه، فأتى بطائر، ووضع رأسه على حجر، وأتى بحجر آخر فضرب به رأس الطائر الموضوع على الحجر، فمات الطائر.. فتعلّم قابيل كيف يقتل أخاه هابيل، وعند ذلك انتظر إلى أن نام هابيل، فوضع رأسه فوق حجر، وأتى بحجر آخر كبير فضربه به، فانكسر رأس هابيل ومات!.. وعندما رأى قابيل الدم يخرج من رأسه أخيه هابيل، خاف وصار يناديه: هابيل، هابيل، رُدَّ عليَّ.. لماذا لا

تكلِّمني؟! تحرَّكْ، قُمْ... ولكن هابيل لم يتحرَّك ولم يقم ولم يتكلم، فقد مات.

وهذا شيء لم يكن ينتظره قابيل، ولم يكن يعرف أن الموت هكذا!.. يفقد المرء فيه حركته وكلامه.. فخاف كثيراً وصار يصيح: يا هابيل، يا هابيل، يا أخي، قم، كلِّمني، لماذا أنت ساكت؟! قم وتزوج شقيقتي أقليما، وأنا أتزوج شقيقتك لبودا؛ فقد رضيتُ بذلك، وأخذ يهزُّه بعنف، ولكن هابيل لم يقم ولم يتحرك ولم يتكلم.. وعندما يئس قابيل منه جلس إلى جانبه يبكي وينتحب، وصار ينام ويأكل إلى جانبه.

وجاءت الوحوش والطيور لتأكل جسد هابيل، فصار قابيل يطردها، وغطَّى أخاه بجلد، ثمَّ حمله على ظهره وأخذ ينتقل به من مكان إلى مكان.. ولا يدري ماذا يصنع به، وبقي كذلك أربعين يوماً.. وندم على ما فعل نَدَماً شديداً، ولكنَّ الندم لم يعد يفيد شيئاً؛ فقد قُتل هابيل.

وفي أحد الأيام، جلس قابيل ووضع إلى جانبه أخاه هابيل بعد أن تعب من حمله على ظهره، وصارتِ الروائح الكريهة تخرج من جثة هابيل، بعد كل هذه الأيام.

واحتار قابيل ماذا يفعل؟! وبينما هو جالس إذا بغُرابَيْنِ يقتتلان، وظلَّا يقتتلان حتى قَتَل أحدهما الآخر، وبعد أن قتله أخذ يحفر الأرض، ثم وضع الغرابُ القتيلَ في الحفرة وستره بالتراب.. فاندهش قابيل، وقال: ما أجهلني! أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأدفن أخي في التراب مثلما دفن هو رفيقه في التراب، حتى حملته على ظهري أربعين يوماً؟!.. وقام فحفر الأرض ودفن أخاه وستره بالتراب.. وكان عمر هابيل حينما قُتل عشرين عاماً.

وهكذا قُتل هابيل ظلماً، وكان قتله أول جريمة قَتل على وجه الأرض، وتحمّل ذنب قتله أخوه قابيل الذي قتله ظُلماً.. وكلُّ من يقتل ظلماً على وجه الأرض إلى يوم القيامة سيتحمَّل ذنب قتله قابيل أيضاً بالإِضافة إلى القاتل؛ لأنه هو الذي سنّ هذه السُّنَّة السيئة في الأرض[١].

وندم قابيل ندماً شديداً على ما فعل، ولكن بعد فوات الأوان، فاسودّ وجهه.. وهرب إلى بلاد اليمن قبل أن يعود أبوه آدم عليه السلام من الحج.. وفي اليمن أتاه إبليس، وزيّن له عبادة النار، فقال له: النار هي التي أكلت قربان أخيك هابيل، ولم تأكل قربانك، فيجب عليك أن تعبدها لكي ترضى عنك!.. وهكذا صار يعبد النار هو وذريته وكفروا بالله تعالى.

وفي أحد الأيام بعد أن كبر قابيل، بينما كان جالساً مستنداً إلى الجدار، كان أحد أولاده يلعب برمي الأحجار، فجاء حجر على رأس قابيل فكسره فمات.. وهكذا مات قابيل بالطريقة نفسها التي قتل بها أخاه هابيل، أما ذريته فقد استسلمت للهو والفجور وشرب الخمور والفواحش بعد أن حلّ عليهم غضب الله تعالى وغضب آدم عليه السلام.

أما آدم عليه السلام فبعد أن عاد من الحجِّ وعلم بما حدث؛ حزن حزناً شديداً، حزن على ابنه هابيل الذي قُتل مظلوماً، وحزن على ابنه قابيل الذي عصى الله تعالى، وعصاه وأطاع إبليس، فأصبح من الظالمين.. وبقي آدم مئة سنة لا يضحك أبداً.

---

(١) يقول النبي ﷺ: «من سنَّ في الإِسلام سُنَّة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنَّ في الإِسلام سُنَّة سيئة، كان عليه وزرها ووِزْرُ من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء» رواه مسلم والنسائي.

وبعد مقتل هابيل بخمسين سنة ولد شيث بن آدم، وكان عمر آدم عليه السلام عندما ولد شيث مئة وثلاثون سنة.. وقد شبَّ شيث صالحاً تقيّاً، وأصبح نبيّاً بعد أبيه آدم عليه السلام.

وعندما أتى طوفان نوح عليه السلام أغرق جميع ذرية آدم بمن فيهم ذرية قابيل، ولم ينجُ من الطوفان إلا ذرية شيث عليه السلام(١).

العبرة من القصة

من يعصِ الله تعالى ويعصِ والديه يحل عليه غضب الله سبحانه وتعالى وعلى ذريته في الدنيا والآخرة، ومن يطع الله تعالى ويطع والديه في رضا الله تعالى، يحل عليه رضا الله سبحانه وتعالى وعلى ذريته في الدنيا والآخرة.

ومن ارتكب ذنباً لم يكن موجوداً من قبل، كمن يَتَفَنَّنُ في تعذيب الأبرياء، ومن يَتَفَنَّنُ في اختراع المهلكات والمؤذيات، يكون عليه إثمه وإثم من عمل به إلى يوم القيامة.

---

(١) يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً﴾ [المائدة: ٣٢].



٣٨ القِرَدَةُ والخَنَازِيرُ[١]

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ۝ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٥-٦٦]

﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣]

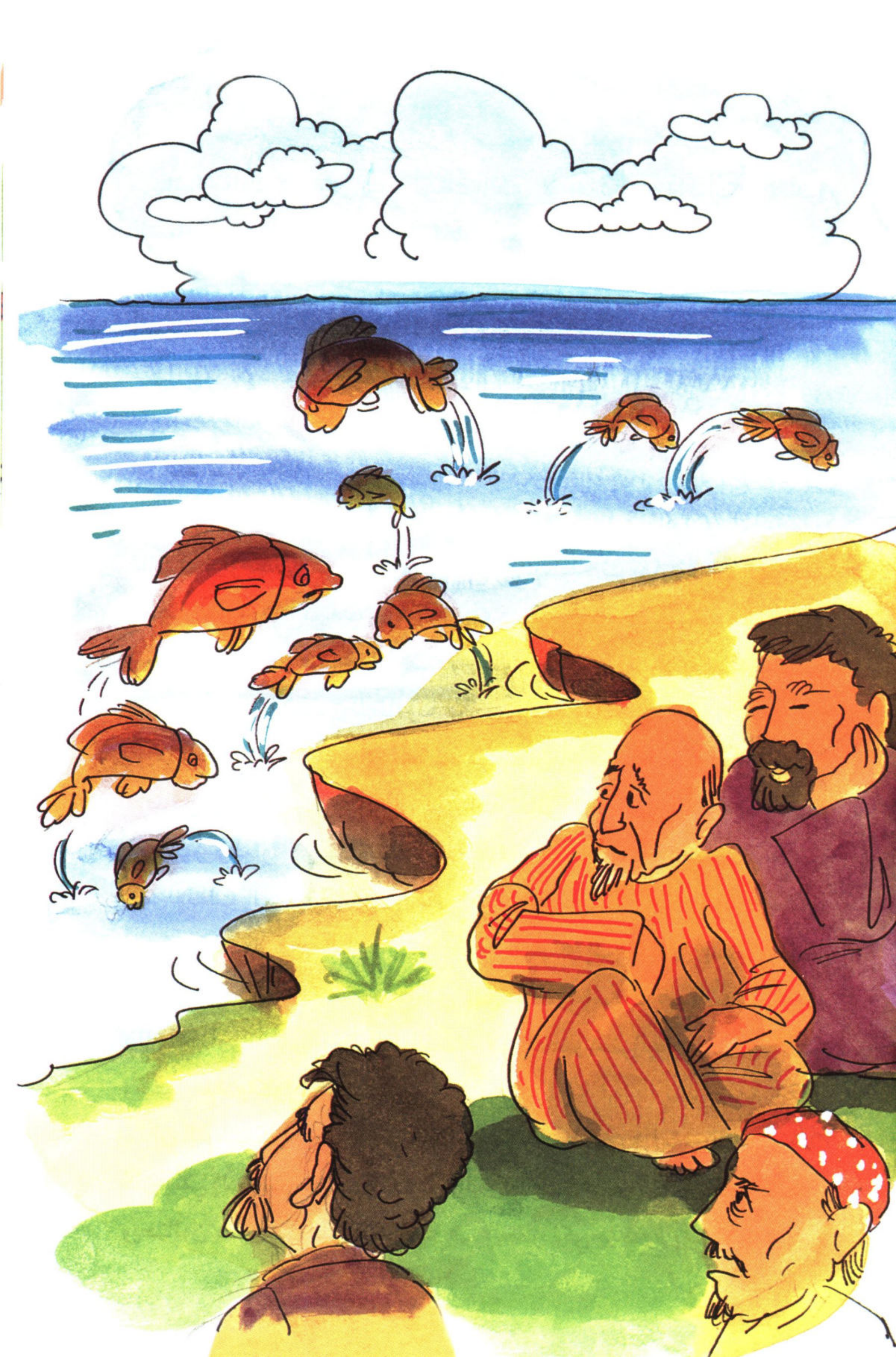
مدينة (أيلة) في خليج العقبة، كان يسكنها في الزمن القديم - في زمن سيدنا داود عليه السلام - سبعون ألفاً من اليهود، وعندما نزلت التوراة على سيدنا موسى عليه السلام طلب الله سبحانه وتعالى فيها من اليهود أن يتخذوا يوم الجمعة شعاراً لهم، فأبَوا واختاروا يوم السبت، لذلك فرض الله سبحانه وتعالى عليهم ألا يعملوا في يوم السبت جزاءً لهم.

وكان أهل (أيلة) يعيشون من صيد السمك من البحر، يبيعونه ويأكلون منه، فكانوا يعملون في الصيد والبيع والشراء كلَّ أيام الأسبوع ما عدا يوم السبت.

ثم أراد الله سبحانه وتعالى أن يختبر طاعتهم له وللشريعة التي أنزلها على سيدنا موسى عليه السلام، فجعل السمك قليلاً في البحر كلَّ أيام الأسبوع التي يعملون

---

(١) انظر: تفسير الخازن؛ وتفسير النسفي، الآية (٦٥) وما بعدها من سورة البقرة.



فيها، وجعله يكثر في يوم السبت الذي لا يعملون فيه!.. فكانت أفواج السمك تأتي إلى شاطئ (أيلة) في يوم السبت فوق بعضها بعضاً، وهم ينظرون إليها ولا يستطيعون اصطيادها؛ لأن العمل عندهم حرام في يوم السبت.. ومتى انقضى يوم السبت كانت أفواج السمك تختفي إلا القليل منها، ولا تعود للظهور إلا في يوم السبت التالي.

فاحتاروا في أمرهم كيف يصنعون، فوسوس لهم الشيطان وقال لهم: إن الله تعالى أمركم ألاَّ تعملوا يوم السبت، والسمك لا يأتي إلا في يوم السبت، فلماذا لا تحتالون عليه، وعهدي بكم أذكياء؟ قالوا: وماذا نصنع؟ قال: احفروا أقنية من البحر إلى البر، واجعلوا عند نهايتها في البر حُفَراً عميقة، فإذا أتى السمك في يوم السبت؛ فإن أكثره يدخل في هذه الأقنية ويصل إلى الحفر فيقع فيها فتسدون عليه المجرى لكي لا يعود إلى البحر، ومتى حلَّ يوم الأحد تصطادونه فتبيعون منه وتأكلون.

فأعجبوا بهذا الرأي؛ أي: أمرهم الشيطان أن يحتالوا على أمر الله ﷻ، فأطاعوه.. وهل يمكن الاحتيال على الله تعالى؟!.. فحفروا أقنية من البحر إلى البرِّ وجعلوا في نهايتها حُفَراً عميقة، ودخلت مياه البحر في الأقنية حتى وصلت إلى الحفر وملأتها.

وعندما حلَّ يوم السبت أتت أفواج السمك إلى شاطئ البحر، ودخل كثير منها في الأقنية حتى وصل إلى الحفر وسقط فيها، فسدُّوا عند ذلك مجاري الأقنية، وتركوا السمك في الحفر حتى يوم الأحد، فأخذوه وباعوا منه وأكلوا.

إن السمك كان مطمئنّاً إلى أن اليهود لا يصطادون في يوم السبت، لذلك كان يأتي إلى الشاطئ وهو مطمئن البال إلى سلامته، وإذا باليهود يمكرون ويحتالون على أمر الله، فيوقعونه في الحفر لكي يأخذوه يوم الأحد.



والله ﷻ لا يغفر هذا الاحتيال، ومع ذلك أمهلهم، فتمادوا في عصيانهم، وصاروا يأخذون السمك من الحفر في يوم السبت أيضاً بدلاً من يوم الأحد، ويقولون: نحن لا نصطاده، وإنما نأخذه فقط!.. يكذبون ويحتالون، والله تعالى عليم بكلِّ شيء.

ولم يفعل هذا الفعل كل أهل (أيلة)، وإنما انقسموا ثلاثة أقسام: قسم ارتكبوا هذا الذنب وأصروا على فعله، وقسم لم يفعلوه ولكنهم لم ينكروا على من فعلوه ولم ينصحوهم ولم يحذّروهم من غضب الله تعالى عليهم، وقسم ثالث لم يفعلوه ولكنهم صاروا ينصحون الذين فعلوه ويحذّرونهم من غضب الله تعالى عليهم، ولمَّا لم يسمعوا لهم قالوا لهم: نحن لن نسكن معكم بعد اليوم؛ لأننا نخاف أن ينزل علينا معكم غضبٌ من الله تعالى.. لذلك بنوا جداراً بينهم وبين القسم الآخر من المدينة الذي بقي فيه الذين ارتكبوا الذنب وأصروا عليه، مع الذين لم يرتكبوه ولكنهم لم ينكروا على من ارتكبوه، بل سكتوا.

وسمع سيدنا داود عليه السلام بما يفعله قسم من أهل (أيلة) من مخالفة الله تعالى، فدعا عليهم، وطلب من ربِّه أن ينزل غضبه عليهم..وفي أحد الأيام استيقظ الصالحون الذين بنوا الجدار فلم يسمعوا أصوات إخوانهم خلف الجدار كما كانوا يسمعون كلَّ يوم، بل سمعوا أصواتاً كأصوات الحيوانات، فنصبوا السلالم على الجدار، وصعدوا عليها وأطلُّوا على جيرانهم، فرأوهم قد مُسخوا جميعهم قردة وخنازير!.. الذين ارتكبوا الذنب، والذين لم يرتكبوه ولكنهم سكتوا وظلُّوا ساكتين معهم.

مسخ الله تعالى الشباب إلى قردة لها أذناب وتصيح كالقردة، ومسخ الشيوخ إلى خنازير تصيح كالخنازير، وبقوا هكذا ثلاثة أيام، ثم هلكوا وماتوا جميعهم، فكان ذلك عقوبة لهم وعبرة لغيرهم ولمن يأتي بعدهم وموعظة للمؤمنين.

العبرة من القصة

هذا جزاء من يخالف أمر الله سبحانه وتعالى، وكذلك جزاء من يسكت على المنكر فلا ينكره، ولا يقاطع من يفعله.. فالساكت على المنكر شيطان أخرس[1]. وإذا كان المذنبون في هذا الزمن لا يُمسخون إلى قردة وخنازير؛ فإن قلوبهم تتحول إلى قلوب قردة وخنازير، والعياذ بالله تعالى.

---

(١) يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده لتأمرنَّ بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكنَّ الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، ثم تدعونه فلا يُستجاب لكم» حديث حسن، رواه الترمذي. رياض الصالحين، رقم (١٩٤).

٣٩ الصَّبْرُ والثَّباتُ عَلَى الحَقِّ

كانتْ جدتي رحمها الله تعالى تقول دائماً: إن المؤمن يجب أن يصبر ويَثْبُت، وألّا يخاف إلا من الله ﷻ، لذلك أنزل الله سورة البروج:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البُرُوج: ١-٩]

وقد فسّرها النبي ﷺ لأصحابه رضي الله عنهم، فقال ما معناه:

كان يوجد ملك ظالم لا يعبد الله، وقد جعل نفسه ربّاً، وأمر الناس أن يعبدوه من دون الله، وكان عند هذا الملك وزير ساحر يساعده على ظلمه بسحره، ولكن هذا الوزير كبر وضعف، فقال للملك: إنني كبرتُ وضعفتُ فأرسل إليَّ غلاماً ذكيّاً أعلِّمه السحر قبل أن أموت، فيصبح وزيراً لك بعد موتي، فأرسل إليه غلاماً ذكيّاً من حاشيته، وصار الغلام يذهبُ كلَّ يوم صباحاً إلى الساحر فيعلِّمه السحر، ويعود في المساء إلى أهله.

وكان في طريقه رجل راهب قد آمن بالله سبحانه وتعالى، وكان يصلي ويتعبَّد على دين سيدنا عيسى عليه السلام، وذلك قبل أن يولد سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

وفي أحد الأيام؛ بينما كان الغلام يمشي في الطريق وهو ذاهب إلى بيت الساحر؛ رأى الراهب وهو يصلي ويتعبَّد، فتعجب منه ودخل عليه وسأله: لماذا تصلي هكذا؟ فقال له: أنا أصلي لله سبحانه وتعالى، فقال الغلام: ومن هو الله؟ أليس الملك هو ربنا؟! قال الراهب: لا، الملك بشر مثلنا، وسوف يموت في يوم من الأيام.. أما الله فهو حيٌّ لا يموت أبداً، وهو الذي خلقنا وخلق الملك وخلق الناس جميعاً وخلق العالم كلَّه.

فقال الغلام: آمنتُ بالله تعالى، فعلِّمني هذا الدين.. فصار الراهب يعلِّمه، وصار الغلام عندما يذهب في الصباح إلى الساحر يمر على الراهب، وعندما يعود في المساء إلى أهله يمرُّ على الراهب أيضاً ليتعلم منه؛ لذلك صار يتأخَّر في المجيء إلى الساحر في الصباح، ويتأخَّر في العودة إلى أهله في المساء.

وصار الساحر يضربه بسبب تأخُّره في المجيء إليه، فشكا الغلام ذلك إلى الراهب، فقال له: إذا سألك الساحر: لماذا تأخَّرتَ؟ فقل له: تأخرتُ عند أهلي، وإذا سألك أهلك: لماذا تأخرتَ؟ فقل لهم: تأخرتُ عند الساحر.

وفي أحد الأيام وبينما الغلام ذاهب إلى بيت الساحر رأى حية عظيمة واقفة على الطريق، والناس خائفون منها لا يستطيعون الذهاب، فقال الغلام في نفسه: الآن أعرف: هل الساحر أفضل أم الراهب؟.. وأخذ حجراً كبيراً وقال: اللّهم إن كان الساحر أحبَّ إليك من الراهب فاقتل هذه الحية.. ورمى الحجر على الحية فلم يؤثر شيئاً، ثم أخذ حجراً آخر وقال: اللّهم إن كان الراهب أحبَّ إليك من الساحر فاقتل هذه الحية.. ورمى الحجر عليها فماتت في الحال، فعرف أن أمر الراهب هو الحق، وأنه أحبُّ إلى الله تعالى.



وعندما رأى الناس ذلك صاروا يقصدونه ويزورونه ليدعو لهم، فكان يأتيه المرضى فيدعو لهم فيشفون، ويأتيه الأعمى فيدعو له فيشفى، ويأتيه الأبرص فيدعو له فيشفى، وما عاد يذهب إلى الساحر لأنه عرف أنه ليس على الحقِّ.

وحكى للراهب ما جرى معه، فقال له الراهب: إنك أصبحتَ أفضل مني، وسيعلم الملك بأمرك؛ فلا تقل له: إنني أنا الذي علَّمْتُك؛ لأنه سيقتلني عند ذلك.

وكان للملك وزير أصابه العمى، وانقطع عن الملك بسبب ذلك، ولما سمع بأمر الغلام وأنَّه يشفي الأعمى والأبرص ذهب إليه وأخذ معه هدايا كثيرة، وقال له: إذا أنت شفيتني فكلُّ هذه الهدايا لك، فقال له الغلام: أنا لا أريد شيئاً، وأنا لا أشفي أحداً، وإنما الله ﷻ هو الذي يشفي، قال له الوزير: ومن هو الله؟ قال: هو ربِّي وربُّك ورب جميع العالم، قال الوزير: وهل يوجد ربٌّ غير الملك؟ فقال الغلام: الملك ليس ربّاً، إنما هو بشر مثلي ومثلك، لا يشفي أحداً ولا يمنع قدراً، وإذا كنتَ تريد أن تشفى فيجب أن تؤمن بالله ربِّ العالمين، فقال الوزير: آمنتُ بالله ربِّ العالمين.

فدعا له الغلام، فردَّ الله ﷻ بصرَهُ، وأصبح يرى كلَّ شيء حوله.. وذهب إلى الملك؛ فلما رآه تعجَّب وقال: من ردَّ عليك بصرك؟ قال: الله ربُّ العالمين، فقال الملك: وهل تؤمن بربٍّ غيري؟ قال الوزير: نعم أؤمن بالله ربِّ العالمين الذي شفاني.. قال الملك: من علّمك هذا؟.. فلم يجبْهُ، فصار يعذّبه حتّى دلّه على الغلام.

فأرسل جنودَه فأتوا بالغلام، فقال له الملك: ألست أنت الذي أرسلناك إلى وزيرنا الساحر لتتعلَّم عليه السحر؟ قال الغلام: نعم، فقال الملك: إذاً فقد أصبحتَ ساحراً عظيماً، وأصبحتَ تشفي الأعمى والأبرص وجميع المرضى، قال الغلام: لا، إنني لم أصبح ساحراً عظيماً، وقد تركتُ الساحر

والسحر، وأنا لا أشفي أحداً، وإنما الذي يشفي هو الله تعالى. فقال الملك: ومن هو الله؟ قال الغلام: هو ربُّ العالمين الذي خلقني، وخلقك، وخلق جميع هذا العالم. فقال الملك: وهل يوجد ربٌّ غيري؟! من علّمك هذا الذي تقول؟.. فلم يجب الغلام، فما زال الملك يعذّبه حتَّى دلّه على الراهب.

فأتوا بالراهب، فقال له الملك: من ربُّك؟ قال: الله ربُّ العالمين. قال الملك: إذا لم تكفر بربِّك هذا وتؤمن بي ربّاً؛ فسوف أقتلك أبشع قتلة. قال: لا أكفر بربِّي الله تعالى أبداً بعد إذْ هداني، فافعل ما تشاء.

فأمر الملك أن يُنشر بالمنشار من رأسه إلى رجليه حتَّى وقع نصفين وهو ثابت على دينه.

ثم أتوا بالوزير الذي كان أعمى وشفاه الله تعالى، فقال له الملك: ألا تكفر بالله وتؤمن بي؟ قال: لا يمكن أن أبدِّل ديني أبداً بعد إذ هداني الله تعالى، قال الملك: إذاً أقتلك هنا مثل هذا الراهب، قال: افعل ما بدا لك. فوضعوا المنشار على رأسه ونشروه، حتَّى وقع نصفين وهو ثابت على دينه.

ثم أتوا بالغلام.. فقال له الملك: ألا ترجع عن دينك أنت أيضاً؟ قال: لا، فقال لجنوده: خذوه إلى قمة الجبل، فإذا لم يرجع عن دينه ارموه إلى الوادي لكي يموتَ شرّ ميتة.

فأخذوه وصعدوا به الجبل، فقال الغلام: اللّهم اكفني إياهم كيف شئتَ وبما شئتَ. فاهتز الجبل فسقطوا جميعهم إلى الوادي وماتوا، ما عدا الغلام فقد بقي في مكانه حيّاً.

فعاد إلى الملك، فلما رآه تعجَّب منه وقال له: أين الجنود؟ قال: أهلكهم الله تعالى.. فطلب جنوداً آخرين، وقال لهم: خذوه في سفينة إلى عرض البحر وألقوه في الماء إذا لم يرجع عن دينه، ليغرق هناك.. فأخذوه وحملوه في السفينة، وساروا به في البحر.. فقال: اللّهم اكفني إياهم كيف

شئتَ وبما شئتَ.. فاهتزَّتِ السفينة وسقطوا جميعهم في البحر وغرقوا، ما عدا الغلام فقد بقي حيّاً وعاد إلى الملك.

فلما رآه تعجَّب منه، وقال له: أين الجنود الذين ذهبوا معك؟ قال: أهلكهم الله تعالى ونجَّاني. ثم قال للملك: إذا كنتَ تريد أن تقتلني حقّاً فافعل ما أقوله لك. قال الملك: قلْ. فقال الغلام: تجمع الناس في ساحة المدينة الكبرى في يوم معين، وتربطني إلى الشجرة الموجودة هناك، ثم تأخذ سهماً من سهامي وتضعه في قوسي وتصوِّبه إلى رأسي، ثم تقول أمام الناس جميعهم: بسم ربِّ هذا الغلام، وترميني بالسهم.. فأموت.

فعل الغلام ذلك لكي يعرف الناس جميعهم أن ربَّه هو الحق، وأن الملك ليس ربّاً، أي: ضحَّى بنفسه في سبيل إنقاذ شعبه.. ففعل الملك ما طلبه الغلام، ومات الغلام، وعند ذلك صاح الناس جميعهم: آمنا بربِّ هذا الغلام، آمنا بالله ربِّ العالمين.

فبُهت الملك، وغضب غضباً شديداً، وأمر جنوده أن يحفروا خندقاً ويشعلوا فيه النيران، وأن يرموا فيها كلَّ من يؤمن بالله تعالى ولا يرجع عن دينه، وأخذ الناس يتساقطون في النيران وهم صابرون ثابتون على الحقِّ مهما نالهم من العذاب، حتى إنَّ امرأة ترددتْ في السقوط، فقال لها ولدُها الرضيع: لا تخافي يا أماه! فإنك على الحق.. وهكذا:

﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۞ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۞ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۞ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۞ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [البُرُوج: ٤-٨]

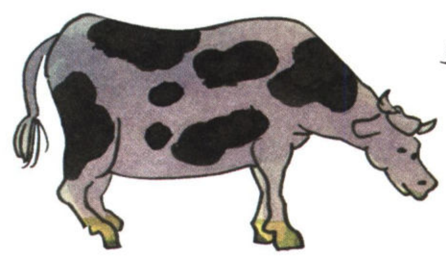
صدق الله العظيم[١].

---

(١) القصة كلها مأخوذة من حديث نبوي: رواه مسلم؛ والترمذي: عن صهيب رضي الله عنه، وذكره النووي في باب: الصبر، من كتابه: رياض الصالحين، تحت رقم (٣٠)؛ وجاء في: جامع الأصول، تحت رقم (٧٨٢٠)، وفي الحديث النبوي: الدابة التي قطعت الطريق هي الأسد، ولكن الحية أقرب إلى فهم الأطفال، وأقرب إلى إمكان قتلها بحجر.

٤٠ صَبْرُ أَيُّوبَ[١]

أيوب عليه السلام نبيٌّ من أنبياء الله الكرام عليهم الصلاة والسلام.. أنعم الله تعالى عليه بالمال والأملاك والمواشي والأولاد، فشكر الله تعالى، ولم يبطر، فكان خيراً له.. ثمَّ سلبه الله تعالى هذه النعمَ كلَّها، وابتلاه بالمرض والألم، فصبر على ابتلاء الله تعالى ولم ييئس، فكان خيراً له[٢].. وعندما وجده الله سبحانه وتعالى صابراً كشف عنه البلاء.. وهكذا يجب أن يكون المؤمن لا يبطر في السرّاء ولا ييئس في الضَّراء.



أيوب عليه السلام هو من نسل سيدنا إبراهيم؛ فهو أيوب بن أموص بن زارح بن روم بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام؛ وأمه من نسل لوط ابن هاران عليه السلام.. وكان يعيش في بلاد الشام في دمشق وما حولها.

وقد أرسله الله سبحانه وتعالى نبيّاً إلى أمة الروم، وأنعم عليه بالمال والأولاد، فكان عنده خمسمئة فدان من الأرض، في كلِّ فدان رجل وزوجته وأولاده يعملون فيه، وكان عنده كثير من الإبل والبقر والخيل والحمير، وكثير من الأموال والأولاد.

---

(١) قال تعالى: ﴿وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين ❁ فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضُرٍّ وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين﴾ [الأنبياء: ٨٣ ـ ٨٤]. انظر: تفسير الخازن؛ وتفسير النسفي؛ وتفسير ابن كثير؛ وكتاب: النبوة والأنبياء، للشيخ محمد علي الصابوني، ص٢٧٦.

(٢) قال النبي ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراءُ شكرَ فكان خيراً له، وإن أصابته ضراءُ صبر فكان خيراً له» رواه مسلم ـ رياض الصالحين، رقم (٢٧).

وكان عَلَيْهِ السَّلَامُ برّاً تقيّاً، رحيماً بالمساكين، يطعم الفقراء ويكفل الأيتام والأرامل ويكرم الضيفان؛ أي: كان شاكراً لله تعالى على ما أنعم به عليه.

وعاش أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ في النعيم ثمانين سنة، ثم أراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يختبره، هل يصبر على البلاء كما شكر على النعماء؟.. لذلك أخذ المطر يقلُّ، فأخذت المواشي تموت والزرع لا ينبت.

وعندما بلغ ذلك أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: الحمد لله تعالى؛ هو الذي أعطاني، وهو الذي أخذ مني، لقد وُلدت من بطن أمي عرياناً، وسأحشر إلى الله تعالى في الآخرة عرياناً.

ثم حدث زلزال هدم البيت الذي كان يسكن فيه أولاده، فماتوا جميعهم، فحزن أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ عليهم حزناً شديداً، وقال: يا ليت أمي لم تلدني، ثم استغفر ربَّه وحمده؛ فهو الذي يعطي وهو الذي يأخذ.

ثم ابتلاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في صحته وجسمه، فتوالت الآلام والأمراض عليه حتى أقعدتْه عن العمل وعن القيام والحركة!.. ولكن قلبه بقي مؤمناً، وعقله بقي راشداً، ولسانه بقي ذاكراً، فكان يحمد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على كلِّ حال، ولا يشكو إلاّ إليه.

واستمر مرض أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ سبع سنين، ولما طال مرضه تركه أصحابه وأقاربه، ولم يبقَ معه إلا زوجته (رحمة)؛ وهي من نسل يوسف بن يعقوب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، التي صبرت عليه صبر الكرام؛ فلم تتركه؛ ولم تتخلّ عنه مطلقاً، إلا أنها عندما طال مرضه قالت له: ألا تدعو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ليكشف عنك هذا البلاء؟! فغضب أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وقال لها: كم بقيتُ في النعيم والرخاء؟ قالت: ثمانين سنة. فقال: وكم سنة لي الآن في البلاء؟ قالت: سبع سنين. فقال: إنني أستحيي من ربي أن أطلب منه كشف البلاء من أجل سبع سنين، وقد غمرني بالنعيم ثمانين سنة، والله لئن شفاني ربي لأضربنَّك مئة عصا.



وكانت زوجته تعمل كل يوم لتكسب ما تعيش منه هي وأيوب عليه السلام، لذلك بعد أن نذر أيوب عليه السلام أن يضربها مئة عصا إذا شفاه الله تعالى، ذهبتْ لتعمل كعادتها كلَّ يوم، وبعد ذهابها شعر أيوب بالحزن بسبب حالته التي وصل إليها.. فقدْ فَقَدَ المال والأولاد، وابتُلِيَ بالآلام والأمراض، فتوجه إلى الله سبحانه وتعالى وقال: ربِّ إني مسّني الضر وأنت أرحم الراحمين.

فاستجاب الله سبحانه وتعالى له في الحال، فكشف عنه الضُّرَّ والأوجاع، وعوّض عليه الأموال والأولاد، أرسل إليه جبريل عليه السلام، فقال له: اضرب برجلك الأرض تنبع لك عين من الماء، فاشرب منها واغتسل فيها يَشْفِك الله تعالى من جميع الأمراض والآلام.

فضرب سيدنا أيوب عليه السلام الأرض برجله كما قال له جبريل عليه السلام، فنبع الماء من الأرض، فصار أيوب عليه السلام يشرب منه ويغتسل فيه، فزالت عنه الآلام والأوجاع حالاً، وقام وأخذ يمشي ويتحرك بعد أن كان مُقعداً لا يستطيع أن يتحرك، ونمتْ عضلاتُه بعد أن كانت ضامرة، وتورَّدُ وجهُهُ بعد أن كان أصفر.

وعندما عادت زوجته لم تعرفه، فقالت له: من أنت أيها الرجل؟ وأين زوجي أيوب؟ لقد تركتُه هنا وهو مريض لا يستطيع أن يتحرك، فمن أخذه من هنا؟ فقال لها: هل تعرفين زوجك إذا رأيتيه؟ فقالت: نعم أعرفه، وكيف لا أعرفه وهو زوجي؟! فقال لها: انظري إليَّ جيداً إذن: ألا تعرفينني؟ فنظرت إليه وقالت: كأنك زوجي عندما كان صحيحاً معافى. فقال لها: أنا أيوب، أنا زوجك، فقد شفاني الله سبحانه وتعالى .

فأقبلت عليه وهي تبكي من فرحها وسرورها بشفاء زوجها، وحمدا الله سبحانه وتعالى على ما أنعم عليهما، وعند ذلك قال لها أيوب عليه السلام: إني نذرتُ أن أضربك مئة عصا إن شفاني الله تعالى، ولا بد من تنفيذ هذا النذر.

فقالت له: افعل ما تريد، فأنا طوع أمرك.

ولكن جبريل عليه السلام نزل حالاً، وقال لأيوب عليه السلام: إن ربك يقرئك السلام، ويقول لك: إن زوجتك امرأة صالحة صابرة، صبرتْ عليك في محنتك، ولا تستحقُّ الضرب مئة عصا.. ولكي تفي بنذرك خذ مئة قضيب من سنابل القمح، واجعلها حزمةً واحدةً واضرب بها زوجتَكَ، فتكون قد وفيتَ بنذرك، ولم تؤذِ زوجتك الصابرة.

وبعد ذلك عاش أيوب عليه السلام وزوجته بسعادة وهناء، وقد ولدت له زوجته أولاداً كثيرين بدلاً من الذين توفوا ومثلهم معهم، كما أخذت الأمطار تنزل بغزارة فعاد الزرع إلى النمو، وأقبل الخير على أيوب عليه السلام فاشترى إبلاً وغنماً وبقراً وخيلاً أكثر مما كان عنده، ثم توفي إلى رحمة الله تعالى بعد أن بلغ من العمر ثلاثة وتسعين عاماً.. وهذا جزاء الصابرين.

العبرة من القصة

على المرء أن يشكر الله سبحانه وتعالى عند النعمة ولا يبطر، وعليه أن يصبر عند المصيبة ولا ييئس ولا يتبرّم، فكله من الله سبحانه وتعالى، وإن لم ينل المرء جزاء صبره في الدنيا فإنه سيناله حتماً في الآخرة، وإذا أصابه ضر عليه أن يقول: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

٤١ القَبْرُ الَّذِي سارَ بِصَاحِبِهِ(١)

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ۝ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ۝ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ۝ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾

[الصَّافات: ١٣٩-١٤٨]

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨]

(نينوى) مدينة في شمال العراق، كان يسكنها في الزمن القديم مئة وعشرون ألف نسمة، وكانوا كافرين بالله تعالى، يعبدون صنماً لهم يسمى (عشتار)، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يرسل إليهم نبيّاً يدعوهم إلى عبادة الله تعالى، وترك عبادة الأصنام.. فأرسل إليهم يونس بن متَّى، ولقبه ذو النون، لقّبه به الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم.

ويونس بن متَّى هو من بني إسرائيل، من نسل بنيامين بن يعقوب، شقيق سيدنا يوسف عليهم الصلاة والسلام جميعاً.. وكان في بلاد الشام، فسافر من هناك إلى نينوى، وصار يدعو سكانها إلى الإيمان

(١) انظر: تفسير الخازن، عند تفسير الآيات الآتية.

بالله تعالى وعبادته، وترك عبادة الصنم عشتار.. ولكنهم لم يستجيبوا له، ولم يؤمنوا!.. فأوحى إليه الله ﷻ أن العذاب سيحلُّ بهم بعد ثلاثة أيام إذا لم يستجيبوا له ويؤمنوا بالله تعالى، فأخبرهم بذلك، ولكنهم أصروا على كفرهم.

ومضى اليوم الأول، ولما رآهم يونس أنهم مصرُّون على كفرهم، تركهم وخرج من المدينة قبل أن يأذن له الله ﷻ بالخروج، لقد اجتهد وظن أنهم لن يؤمنوا أبداً، وكان مخطئاً في اجتهاده وقلة صبره عليهم، وكان عليه أن يصبر حتى يأذن الله ﷻ له بالبقاء أو بالخروج، لذلك أصابتْهُ المصائب والمحن بعد خروجه، فصبر عليها والتجأ إلى الله تعالى، فتاب عليه ونجّاه من الغمِّ.

أما مدينة نينوى فأخذت تتجمَّع فوقها السحب الكثيفة السوداء، وينتشر منها دخانٌ شديدٌ، فعلموا أن ذلك هو العذاب الذي أنذرهم به يونس بن متى، وفتشوا عنه ليؤمنوا على يده فلم يجدوه، فتشاوروا فيما بينهم، فأشار العقلاء منهم أن يخرجوا جميعهم هم وحيواناتهم إلى خارج المدينة، ويدعوا الله ﷻ لعلّه يكشف عنهم العذاب.

فخرجوا جميعهم: الشباب والشيوخ، والنساء والرجال والأطفال، والحيوانات وأولادها.. ثم فصلوا بين النساء والأطفال، وبين الحيوانات وأولادها، وصاروا جميعهم يصيحون ويستغيثون ويدعون الله تعالى أن يكشف البلاء والعذاب عنهم، وأنهم قد آمنوا بالله تعالى وتركوا عبادة الأصنام.

عند ذلك استجاب الله ﷻ لهم وكشف العذاب عنهم، فأخذت السحب السوداء بالانكشاف والابتعاد، وأخذ الدخان بالزوال.. وكان ذلك اليوم يوم جمعة، وكان يوم عاشوراء.

أما يونس عليه السلام فإنه لم يعلم بإيمان أهل نينوى، وسار باتجاه البحر، وهو غضبان عليهم!.. وشعر بأنه خالف الله تعالى؛ لأنه خرج قبل أن يأذن له بالخروج، وعند الشاطئ وجد سفينة تريد أن تسير فركب معهم، لعلّه يصل إلى بلد لا يعرفه فيها أحد، بعد أن أحسَّ بذنبه.

وبعد أن سارتِ السفينةُ اشتدَّتِ الريح، وهاج البحر، وكادت السفينة أن تغرق.. فقال ربّان السفينة: إن بيننا رجلاً مذنباً لذلك سنعمل قرعة، ومن وقعت عليه القرعة سنرمي به في البحر لكي ننقذ السفينة، فعملوا القرعة فوقعت على يونس، فأعادوها ثلاث مرات فوقعت عليه في المرات الثلاث!.. فسلَّم أمره إلى الله تعالى، وتشهّد وقال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.. اعترف بخطئه، وجدد إيمانه، ثم رمى بنفسه في البحر.

وكان يسير في البحر حوتٌ كبيرٌ بالقرب من السفينة، فابتلع يونس حالاً!.. ولكن الله سبحانه وتعالى أمره ألا يأكل لحم يونس، وألا يكسر عظمه، وأن يبقيه حيّاً... وعندما وجد يونس نفسه في بطن الحوت حيّاً، صار يستغيث بالله تعالى ويدعوه، ويقول: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، لعلّ الله سبحانه وتعالى يستجيب له وينجيه مما هو فيه.. فاستجاب الله تعالى له ونجاه من الغمِّ الذي هو فيه، فبعد أن سار به الحوت ثلاثة أيام في البحر، أتى إلى الشاطئ، وأخرجه من جوفه بأمر الله تعالى، فخرج ضعيفاً هزيلاً ممعوطاً كالفرخ عندما يخرج من البيضة.

ولئلا تؤذيه حرارة الشمس أنبت الله سبحانه وتعالى له شجرة من يقطين - وهو القرع - ليستظلَّ تحتها، وصارت تأتيه غزالة في الصباح والمساء فيشرب لبنها!.. كلُّ ذلك بأمر الله سبحانه وتعالى وقدرته.. وبقي كذلك حتى قوي واشتد



عوده، عند ذلك يبست شجرة اليقطين فحزن عليها.. فأوحى الله ﷻ إليه: لماذا تحزن عليها؟! فقد قوي جسمك وعادت صحتك، وعليك الآن أن تعود إلى (نينوى) لتعلمهم أمور دينهم؛ فقد تركوا عبادة الأصنام، وآمنوا بالله تعالى، ففرح يونس بذلك كثيراً.

وعاد يونس إلى مدينة (نينوى)، وعندما رآه أهلها فرحوا به كثيراً أيضاً، وصار يعلِّمهم أمورَ دينهم إلى أن توفَّاه الله ﷻ.

وهكذا على الإنسان أن يصبر، وألا يتخلَّى عن دعوته منذ أول صدمة، كما عليه ألا يقطع أمله من الله ﷻ مهما توالت عليه المصائب والكروب، وأن يستمر على الاستعانة بالله تعالى والاستغاثة به في جميع الأحوال[١].

العبرة من القصة

الصبر وطاعة الله تعالى مفتاح الفرج، والله ﷻ يحب عبده التوّاب، وينجيه من الغمِّ إذا قال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

---

(١) يقول الله ﷻ: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمَّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾ [آل عمران: ١٤٢]. ويقول النبي ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له» رواه مسلم - رياض الصالحين، رقم (٢٧).

٤٢ الخَمْرُ سَبَبُ الشُّرُورِ كُلِّهَا

كان يعيش في مدينة بابل في العراق في الزمن القديم رجل صالح اسمه (هاروت ماروت)[١].. وكان ماهراً في السحر، ولكنه ما كان يستعمل سحره إلا في الخير والإصلاح بين الناس، فكان يستعمله في الإِصلاح بين المتخاصمين، وفي ردِّ الزوجة إلى زوجها، وردِّ الزوج إلى زوجته ـ هذا مع العلم بأن السحر كله حرام في دين الإِسلام[٢] ..

وكان في مدينة بابل في ذلك الوقت أميرة من بنات ملوك الفرس اسمها زهرة، وكانت جميلة جدّاً، وكانت لا تحبُّ زوجها، وتريد أن تتخلَّص منه، وسمعتْ بهاروت وأنه يشتغل بالسحر، فأرسلت تطلبه إلى قصرها بغياب زوجها، فلما دخل عليها هاروت ورأى جمالها أحبَّها وتمنى أن تكون زوجة له!.. ولما رأته هي أيضاً أحبته.

وبعد أن جلس عندها قالت له: علمتُ أنك تشتغل بالسحر، وأنا لا أحبُّ زوجي، وأريد أن تعمل له سحراً يقتله لكي أتخلَّص منه.. فارتعد هاروت لمّا سمع ذلك، فهو يتمنَّى أن يموت زوجها لكي يتزوجها هو.. ولكنه لا يريد أن يضرَّ أحداً بسحره، فهو رجل صالح، وكان قد عاهد الله سبحانه وتعالى ألا يعمل سحراً فيه ضرر لأحد.

---

(١) هما في الحقيقة شخصان أو ملكان: هاروت وماروت، ذكرا في القرآن الكريم: ﴿وما أُنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت﴾ [البقرة: ١٠٢]. وقد جعلتهما في القصة شخصاً واحداً؛ لأن المقصود هو مغزى القصة ـ ضرر الخمر ـ لا حقيقتها.

(٢) قال النبي ﷺ : «من أتى عرافاً فسأله عن شيء فصدقه؛ لم تقبل له صلاة أربعين يوماً» رواه مسلم، رياض الصالحين، رقم (١٦٦٧).

وهكذا حدث الصراع في نفسه، فالشيطان والهوى يقولان له: اعمل السحر واقتل الزوج، وتزوج الأميرة فهي جميلة جدّاً، وهي تحبك، والإيمان والعقل والخوف من الله تعالى يقولون له: إياك أن تعمل السحر وتقتل الزوج، فإن في ذلك عذاب الدنيا وعذاب الآخرة في جهنم، والعياذ بالله تعالى.

وأخيراً تغلَّب الإيمان والعقل والخوف من الله تعالى، فقال للأميرة: إنني عاهدتُ الله سبحانه وتعالى ألا أعمل سحراً فيه ضرر لأحد، إنني أستطيع أن أعمل لك سحراً لكي تحبين زوجك ويحبك زوجك.. أما أن أعمل سحراً يقتل زوجك فلا.. فصارت الأميرة تتوسَّل إليه أن يصنع لها سحراً يقتل زوجها؛ لأنها لا تحبه، وقالت له: إذا قتلت زوجي فسوف أتزوجك أنت.. ولكنه لم يرضَ، وتركها وذهب إلى بيته.

وفي بيته عاد الشيطان اللعين يوسوس له ويقول له: لماذا ضيعت هذه الفرصة لكي تحصل على هذه الأميرة الجميلة؟! لماذا لم تقتل زوجها وتتزوجها، إنه لا يعلم بذلك أحد إلا أنت وهي فقط؟! ولكن عقله وإيمانه قالا له: إن الله سبحانه وتعالى مطَّلع على كلِّ شيء، ولا يخفى عليه شيء... ولم يستطع النوم في تلك الليلة بسبب هذا الصراع الذي حدث في نفسه بين الخير والشر، فهو يحبُّ الأميرة ويريدها، ولكنه يخاف الله تعالى ويخشاه أيضاً.

وفي اليوم الثاني طلبته الأميرة مرة أخرى، ووضعت له على الطاولة صنماً وكأساً من الخمر الثقيل وأوراقاً للسحر، وبعد أن دخل وجلس، قالت له الأميرة: اليوم لن أسمح لك أن تعود إلى بيتك إلا إذا فعلتَ أحد الأمور الآتية: أن تشرب هذا الخمر، أو تسجد لهذا الصنم، أو تصنع سحراً يقتل زوجي، أو تنام عندي هذه الليلة... وطلبت من حراسها أن يغلقوا أبواب



القصر جميعها لكي لا يستطيع هاروت الخروج منه!.. ولما رأى هاروت ذلك احتار في أمره، فماذا يصنع؟ فالسجود للصنم هو سجود لغير الله تعالى وهو حرام، وقتل الزوج حرام، والنوم عند الأميرة حرام، وشرب الخمر حرام أيضاً، ولكن شيطانه قال له: إن الخمر أخفُّها وأسهلها.. فشرب الخمر، وبعد قليل سكر وغاب عقله.. وأصبح الشيطان والهوى وحدهما اللذين يسيطران عليه ويسيّرانه كما يشاءان، فأمراه أن يسجد للصنم فسجد، وأمراه أن يصنع سحراً يقتل الزوج فصنع، وأمراه أن ينام عند الأميرة فنام، وهكذا عمل كلّ الشرور التي لم يكن يريد أن يعملها، وذلك كله بسبب شربه الخمر التي تضيع العقل.

وفي الصباح، عندما أعلم الحراسُ ملك بابل بما صنعه هاروت؛ أتى به وحاكمه، وحكم عليه بالصلب أمام الناس جميعهم، وهكذا نال عذاب الدنيا، وعذاب الآخرة أشد وأبقى.

أرأيت يا بني كيف أن الخمر أصل الشرور كلها[١]؟! لأنها تضيع العقل، فيصبح الإنسان كالحيوان بل أضل منه، ولو لم يشربها هاروت لما ضاع عقله، ولما عمل تلك الشرور كلها، ولما نال عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، والعاقل مَن اتعظ بغيره.

العبرة من القصة

الخمر سبب كلّ الشرور.

---

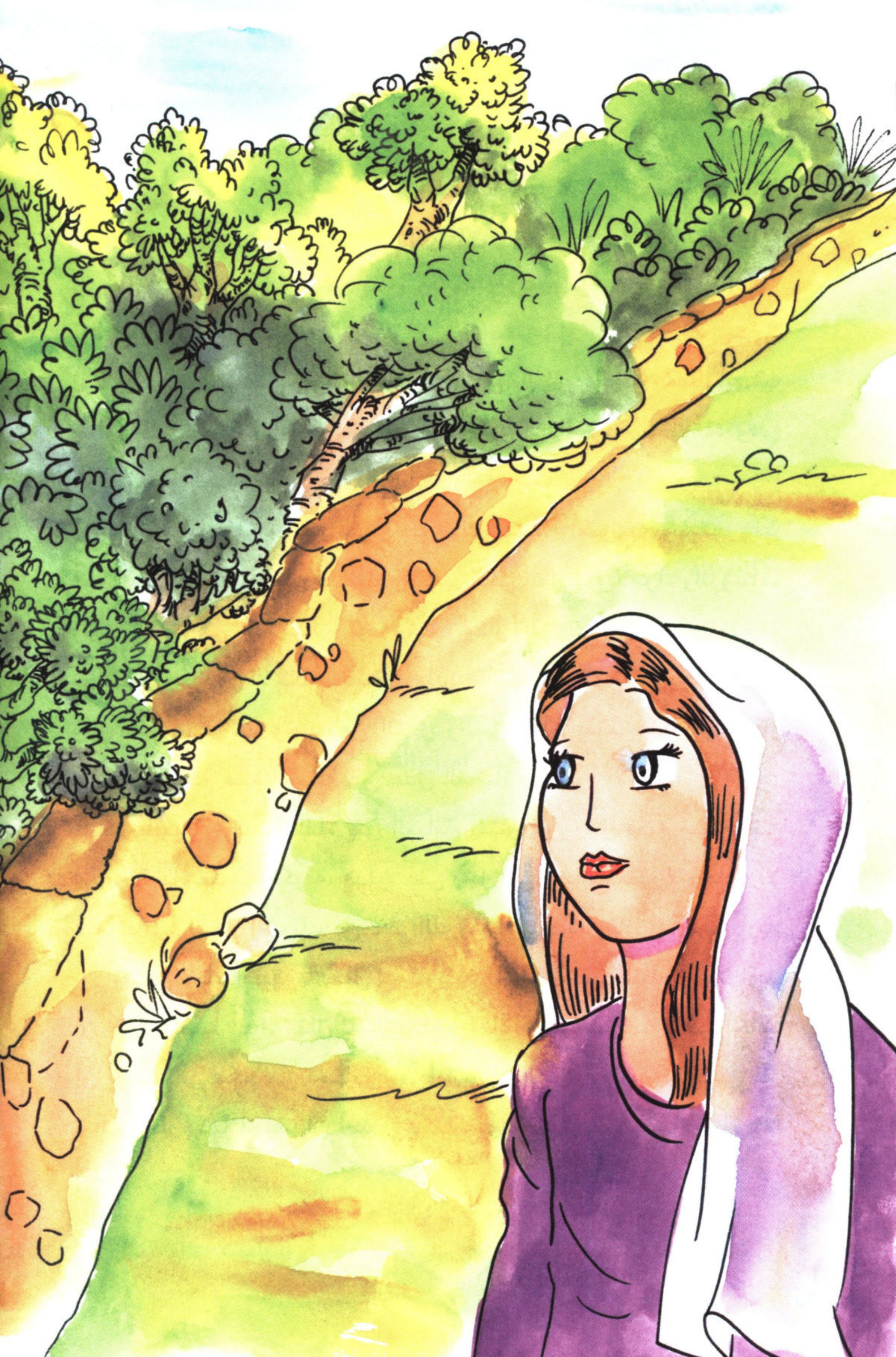
(١) قال النبي ﷺ: «الخمر جماع الإثم» رواه عبد الرزاق؛ والدارمي؛ وابن ماجه. جامع الأصول، رقم (٨٤٨٠).

٤٣ العَدْلُ أساسُ المُلْكِ

المُلْك يدوم بالعدل ولو كان كافراً، ويزول بالظلم ولو كان مسلماً.. قد يستمر المُلْك الظالم بعض الوقت بالقوة، ولكن النتيجة محتومة؛ وهي الزوال، ولو بعد حين.

الخلفاء المسلمون الصالحون قد فهموا ذلك وآمنوا به وطبّقوه منذ فجر الإسلام، لذلك كان القضاة يحكمون على الملوك والأمراء والرؤساء، ولا تأخذهم في الله تعالى لومة لائم، وكان الملوك والأمراء والرؤساء يخضعون وينفذون الأحكام طائعين، ولذلك استمر حكمهم، وقويت دولتهم، ومن شذَّ عن ذلك وحاد عن العدل والحق؛ كان يفقد ملكه فيُقتل أو يطرد.. وإليكم هذه القصة عن عدل القضاة وخضوع الأمراء:

كان المهديُّ ثالث خلفاء بني العباس يفتش عن رجل فقيه صالح تقي ليوليه قضاء مدينة الكوفة، فدلّوه على رجل فقيه صالح تقي لا يخاف إلا الله تعالى؛ اسمه (شريك بن عبد الله)، فاستدعاه، وقال له: إنني أريد أن أوليك قضاء الكوفة.. فقال له شريك: إنني لا أحبُّ القضاء، ولا أريد أن أكون قاضياً أبداً. فقال له المهدي: ولماذا؟ قال شريك: لأنني أخاف أن أخطئ في حكم من أحكامي، فأنا إنسان على كلِّ حال، فيدخلني الله تعالى النار، كما أخاف أن أصدر حكماً على أحد الرؤساء أو الأمراء فلا ينفذ.



فقال له المهديُّ: إذا اجتهدتَ أن تحكم بالحق ثم أخطأتَ فهذا لا يؤاخذك الله ﷻ فيه، وإنما يؤاخذك إذا تعمّدتَ الظلم، وتعمدتَ أن تحكم بغير ما أنزل الله تعالى، أما تنفيذ الأحكام فأنا أتعهَّد لك بتنفيذ أحكامك كلها ولو كانت عليَّ أنا، وإذا لم تتولوا القضاء أنتم - يا فقهاء الأمة وصلحاءها وأتقياءها - فمن يتولاه؟! هل يتولاه الجاهلون والظالمون والمنحرفون؟! فيكون الإثم عليكم أنتم؛ لأنكم هربتم من ميدان الحق.

عند ذلك قَبِلَ شريك أن يتولى قضاء الكوفة، وكان واليها موسى بن عيسى عم الخليفة المهدي، وصار شريك يذهب كل يوم إلى مجلس القضاء منذ الصباح، فيدخل عليه المتخاصمون فيحاكمهم ويحكم على المذنب والمسيء منهم.. ويردُّ الحق إلى صاحب الحق، ولا يخاف في أحكامه من أحد سوى الله تعالى.

وكان في الكوفة بستان جميل على شاطئ نهر الفرات، يملكها رجل من الكوفة، وكان أمير الكوفة موسى يريد أن يمتلك هذا البستان؛ لأنه بجانب قصره، فعرض على صاحبه أن يشتريه منه، فلم يرضَ الرجل أن يبيعه.

ثم توفي الرجل صاحب البستان، وكان له أولاد ذكور وبنت واحدة.. فعرض موسى بن عيسى على الورثة أن يشتري البستان منهم، فرضي الأولاد جميعهم ببيعه ما عدا البنت، فإنها لم تقبل أن تبيع حصتها على الرغم من الثمن الكبير الذي عرضه عليها موسى بن عيسى، وباع الأولاد حصتهم وبقيت حصة البنت، فَبَنَتْ حائطاً حول حصتها وعزلَتْهَا عن بقية البستان، ولكن موسى بن عيسى يريد أن يأخذ البستان كله؛ سواء أكان بحق أو دون حق!.. لذلك أرسل بعض خدمه فهدموا الحائط الذي بنته

البنت، وضمُّوا حصتها إلى باقي البستان، فذهبتْ إلى القاضي شريك وأقامتِ الدعوى على موسى بن عيسى أمير الكوفة.

فأرسل القاضي شريك إليه أن يحضر إلى مجلس القضاء ليستمع إلى أقواله وإلى أقوال المرأة معاً، فلم يقبل الحضورَ، وعدّ ذلك إهانة له، وهو أمير الكوفة، أن يحضر مجلس القضاء ليتحاكم مع امرأة!.. وأرسل بدلاً منه صاحب الشرطة ـ أي: رئيس الشرطة ـ ليقول للقاضي: كيف تقبل دعوى امرأة دون أن يكون معها شهود؟! فقال له القاضي: وأنت لماذا تتدخل فيما لا يعنيك؟! فأنا طلبتُ الأمير ولم أطلبك أنت، لذلك فجزاؤك السجن، وأمر رجاله أن يقبضوا عليه ويضعوه في السجن.

ولما علم الأمير بذلك أرسل جماعة من وجهاء الكوفة إلى القاضي ليسترضوه، ويقولوا له: إن الأمير ليس من العامة لكي تعامله كبقية الناس، بل يجب أن تكون له معاملة خاصة.

فقال لهم شريك القاضي: الناس كلهم أمام القضاء سواء، وأنتم أيضاً تتدخلون في أمور القضاء، وهذا جزاؤه السجن!.. وأمر رجاله أن يضعوهم في السجن.

وعندما علم الأمير موسى بن عيسى بذلك ركب هو ورجاله وذهبوا جميعهم إلى السجن، ففتحوه وأخرجوا الجميع منه.. فأتى السجَّان إلى القاضي شريك وأخبره بذلك.. فقال: أنا لم أطلب القضاء، وإنما الخليفة أكرهني عليه، وما قبلتُ به إلا على شرط أن تنفّذ أحكامي كلها، وحمل أوراقه وكتبه ومتاعه وركب دابته وتوجَّه إلى بغداد.

وعندما علم الأمير بذلك خاف كثيراً، لأن الخليفة إذا علم بذلك فإنه سوف يعزله من الولاية، لذلك ركب ولحق بالقاضي خارج مدينة الكوفة،

وصار يناشده ويرجوه أن يعود إلى الكوفة وينفّذ له طلباته كلها. فقال له القاضي: لا أعود حتى يعود السجناء جميعهم إلى السجن، وأن تقبل أنت بحضور مجلس القضاء مع المرأة صاحبة البستان.. فقبل الأمير بكلّ ذلك، وعاد السجناء إلى السجن، وحضر الأمير مجلس الحكم مع المرأة، فحكم عليه القاضي أن يعيد بناء الحائط كما كان، وألا يُكره المرأة على بيع حصتها، فامتثل الأمير للحكم.

عند ذلك أمر القاضي بإخراج السجناء كلهم من السجن، وذهب إلى الأمير وسلّم عليه وقال له: هل تأمرني الآن بشيء؟ فذاك حق الشرع، وهذا حق الأدب.

العبرة من القصة

هكذا كان العلماء يحكمون على الأمراء، ويقيمون حكم الله تعالى، ولا يخافون من أحد سواه[1]؛ فالعدل أساس الملك.

---

(١) عن جابر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة» رواه مسلم. رياض الصالحين، رقم (٢٠٤). وقال أيضاً: «من ظلم قيد شبر من الأرض طُوّقه من سبع أرضين» متفق عليه. رياض الصالحين، رقم (٢٠٧).



٤٤ قِصَّةُ أَهْلِ الكَهْفِ

رحلة إلى الله تعالى

في الزمن القديم كان ملك الروم (دوقيانوس) كافراً، يعبد الأصنام ولا يؤمن بالله تعالى.. وكان يعذِّب كل من لا يعبد الأصنام ويعبد الله تعالى، وقد يقتلهم، وكان عنده شرطة من الكفار يتجسسون على الناس؛ فإذا رأوا أحداً يصلي أخذوه إلى الملك فيعذّبه حتى يكفر بالله تعالى، وإذا لم يكفر به قتله.

وكان في مدينة (أفسوس) التابعة لهذا الملك، ستة فتيان مؤمنون بالله تعالى، يعبدونه على دين سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام، قبل أن يولد سيدنا محمد ﷺ.. وكانوا أصدقاء لا يفترقون عن بعضهم إلا قليلاً، وكانت أسماؤهم: مكسلمينا ويمليخا ومشلينا ومرنوش ودبرنوش وشاذنوش.

ولما رأوا ظلم الملك الكافر، وما حلّ بالمؤمنين من قومهم من العذاب والفتنة، قرروا أن يفروا بدينهم؛ لئلا يصل إليهم الملك فيعذّبهم أو يفتنهم[١]، فحزموا أمتعتهم وجمعوا ما معهم من مال، وخرجوا معاً خفية في الليل.. وساروا فارّين بدينهم من ظلم الملك دوقيانوس.

وفي الصباح جلسوا يصلون ويعبدون الله ﷻ، وكان بالقرب منهم راعٍ اسمه كفشطيوس يرعى غنمه، فلما رآهم يصلُّون، أتى إليهم وقال لهم: أنا أعبد الله ﷻ مثلكم، وأريد أن أذهب معكم إلى حيث تذهبون، فوافقوا على ذلك.

---

(١) يقول الله ﷻ: ﴿ومن يهاجر في سبيل الله يجدْ في الأرض مُراغماً كثيراً وسعة﴾ [النساء: ١٠٠]، **والمراغم**: مكان الهجرة.

وعند ذلك ذهب وسلَّم الغنم إلى صاحبها، ثم عاد إليهم ومعه كلبه واسمه (قطمير)، وقال لهم: هذا الكلب ينفعنا كثيراً إن شاء الله تعالى، فهو يحرسنا ويحمينا من الأعداء والحيوانات.. وهكذا أصبحوا سبعة وثامنهم كلبهم.

وساروا حتى وصلوا إلى جبل قريب اسمه (ينجلوس)، فوجدوا فيه كهفاً، فقالوا: نعيش في هذا الكهف بضعة أيام[١]، ونرسل كل يوم إلى المدينة من يأتينا بأخبارها وأخبار ما يصنعه الملك بها، كما يأتينا بما نحتاجه من طعام وشراب.

وتطوع لهذا العمل (يمليخا)؛ فكان كلَّ يوم يتخفَّى ويلبس ثياباً بالية، ويأخذ معه قليلاً من المال، وينزل إلى المدينة فيرى ويسمع ما يحصل فيها وما يحدثه الملك في أهلها من ظلم وتعذيب، ثم يشتري شيئاً من الطعام والشراب، ويعود إلى رفاقه في الكهف فيقص عليهم ما رأى وسمع، ويعطيهم الطعام والشراب، فيأكلون ويشربون ويحمدون الله ﷻ... ومضى على ذلك أيام.

وفي أحد الأيام، بعد أن عاد يمليخا في المساء، وبعد أن أكلوا وشربوا وحمدوا الله تعالى وعبدوه؛ ناموا، ونام كلبهم عند باب الكهف ليحرسهم[٢]، واستغرقوا في نومهم، فلم يستيقظوا إلا بعد ثلاثمئة سنة ميلادية (أو ثلاثمئة وتسع سنين هجرية)[٣]؛ هذا ما أراده الله ﷻ لهم، وهو على ما يشاء قدير،

---

(١) الاكتشافات التاريخية الحديثة يقول بعضها: إن الكهف المذكور في القرآن هو في الأردن بالقرب من مدينة عمّان، بينما الكتب القديمة تقول: إنه بالقرب من مدينة (أفسوس) وهي في الأناضول، أي: في دولة تركيا.

(٢) يقول الله ﷻ: ﴿وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً﴾ [الكهف: ١٨]، **والوصيد**: عتبة الباب.

(٣) يقول الله ﷻ: ﴿ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً﴾ [الكهف: ٢٥].

وهو كرامة لهم خارقة للعادة، فلم يحدث أن نام بشر ثلاثمئة سنة نوماً طبيعيّاً، ثم استيقظ وهو بكامل صحته وقوته وكأنه نام منذ أمس فقط!.. وأثناء نومهم هذه الأيام الطويلة كانت الشمس إذا طلعت على الكهف تميل عنهم إلى اليمين، وإذا غربت تميل عنهم إلى الشمال؛ لئلا تؤذيهم!.. وكانوا يتقلبون إلى اليمين وإلى الشمال بقدرة الله تعالى؛ لئلا تأكل الأرض لحومهم.

وعندما مضى على نومهم ثلاثمئة سنة (أو ثلاثمئة وتسع سنين)، وكان الملك الظالم دوقيانوس قد هلك وخلف من بعده ملوك صالحون مؤمنون، إلى أن وصل المُلْك إلى الملك الصالح (بيدروس)، وفي زمنه استيقظ الفتية بعد نومهم الطويل في الكهف.. وعندما استيقظوا لم يكونوا يعلمون أنهم ناموا ثلاثمئة سنة، لذلك تساءلوا فيما بينهم: كم لبثنا في نومنا؟ فقال بعضهم: لبثنا منذ أمس فقط، وقال الآخرون: الله أعلم بما لبثنا، وماذا يهمُّنا كم لبثنا؟! إننا الآن جائعون، فأرسلوا من يشتري لنا طعاماً نأكله ونسدُّ به جوعنا، على شرط أن يتلطف، ولا يدع أحداً يشكُّ به، فيستدل الملك الظالم دوقيانوس وأعوانه علينا وعلى مكاننا فيأخذنا ويقتلنا.

وتطوَّع يمليخا كعادته للذهاب، فأخذ بعض القطع الفضية من النقود التي معهم والتي عليها اسم دوقيانوس، ونزل إلى المدينة، فوجد أن الطريق لم يختلف كثيراً، ولكن عندما وصل إلى المدينة وجد أن السور غير السور القديم، والأبواب غير الأبواب القديمة؛ فكيف تغيَّرَ كلُّ ذلك بين يوم وليلة، والأعجب من ذلك أنه عندما وصل إلى أحد الأبواب وجد مكتوباً عليه مدحاً لسيدنا عيسى عليه السلام، ومبلغ علمه أن دوقيانوس لا يؤمن بالله تعالى، ولا بسيدنا عيسى عليه السلام، بل يعبد الأصنام، ويعذّب الذين لا يعبدون الأصنام ويقتلهم!.. فتعجب من ذلك كلَّ العجب، فكيف حدث هذا بين يوم وليلة؟!..



ثم دخل المدينة وهو خائف يترقَّب، وقد أخفى نفسه بالثياب البالية، وأخذ يسير في شوارع المدينة، فوجد الشوارع غير الشوارع التي يعرفها، والبيوت غير البيوت التي يعهدها.. فصار يشكُّ في عقله، وهل هو في حلم أم في يقظة؟! وهل هذه مدينة أفسوس أم مدينة غيرها؟!..

وسأل أحد المارّين في الطريق عن اسم هذه المدينة، فقال له: اسمها أفسوس.. إذن فكيف تغيرتْ بهذا الشكل بين يوم وليلة وعهده بها منذ أمس فقط؟!.. وسار نحو إحدى الدكاكين التي تبيع الطعام وهو يقدم رجلاً ويؤخّر أخرى، حتى وقف عليها وألقى السلام، فردَّ صاحبها عليه السلام، فطلب بعض الأطعمة، فوزنها صاحب الدكان وهيأها وقدَّمها له، فأخرج بعض النقود الفضية التي معه وقدمها للبائع، ولكنّ هذا عندما رأى النقود اندهش وتعجَّب وصار ينقل نظره بين النقود وبين يمليخا برهة من الزمن، ثم قال له: من أين لك هذه النقود، فنحن لا عهد لنا بها؟ هل سرقتها؟ هل وجدت كنزاً قديماً؟ أم أنت من بلدة أخرى غير هذه البلدة؟.. فارتبك يمليخا، فهو لا يريد أن يفتضح أمره وأمر رفاقه، فيستدل الملك الظالم دوقيانوس عليهم ويقتلهم.

فقال للبائع: أنا لم أسرقها ولم أجد كنزاً، وأنا من هذه البلدة، أليست هذه مدينة أفسوس؟ وهذه النقود التي نتعامل بها دائماً.. وعندما عجز البائع عن معرفة الحقيقة من يمليخا أخذه إلى رئيس شرطة المدينة (آريوس)، وقال له: هذا الرجل أعطاني نقوداً لا أعرفها، ولا يريد أن يعترف من أين أتى بها، فلعلّه وجد كنزاً أو سرقها.

فاستقبل آريوس يمليخا باحترام، وأجلسه عنده، وصار يسأله عن مصدر النقود. فقال له: هذه نقودي التي أستعملها كلَّ يوم، وأشتري بها كلَّ يوم طعاماً من هذه المدينة.. فحصل بينهما مثل حوار الطرشان، فيمليخا يظن

أن الملك الظالم دوقيانوس لا يزال حيّاً، وأن هذه المدينة هي مدينة أفسوس التي تركها يوم أمس، ورئيس الشرطة آريوس لا يعلم أن يمليخا من رعايا الملك دوقيانوس ، وأنه نام ثلاثمئة سنة ثم استيقظ اليوم فقط.

وأخيراً قال له آريوس: أرني النقود التي معك.. فأراه إياها.. فإذا عليها اسم الملك دوقيانوس، فقال له: مَنْ دوقيانوس هذا؟ قال له يمليخا: هو ملك هذه المدينة، ألا تعرفه؟! فتعجَّب آريوس وقال له: هل أنت مجنون أم عاقل؟ أم تسخر مني أم ماذا؟ إن ملكنا هو بيدروس وليس دوقيانوس!.. فتعجَّب يمليخا وشكَّ في نفسه وفي عقله، فما هذا الذي يسمعه؟! ثم قال لآريوس: وما صنع الله بدوقيانوس؟ فقال له آريوس: إننا لا نعرف ملكاً اسمه دوقيانوس، ولم نسمع به أبداً، فازداد عجب يمليخا، ولكنه اطمأنَّ قليلاً فدوقيانوس الظالم غير موجود على أية حال.

وأخيراً قرر رئيس الشرطة آريوس أن يأخذ يمليخا إلى الملك الصالح بيدروس، وعندما مثل بين يديه؛ احترمه وأجلسه عنده وسأله عن قصته، فحكى له يمليخا القصة على حقيقتها عندما اطمأن إلى عدم وجود دوقيانوس الظالم: حكى له أن الملك دوقيانوس كان كافراً يعذّب المؤمنين ويقتلهم، وأنهم هربوا منه إلى الكهف في جبل ينجلوس ، فهم من مدينة أفسوس ومن رعايا دوقيانوس، وأنهم ناموا في الكهف منذ أمس على حدٍّ علمه، واستيقظوا اليوم، ونزل هو إلى المدينة ليشتري طعاماً لرفاقه الذين ينتظرونه في الكهف.

فسأل الملك بيدروس حاشيته: هل يعرف أحد منهم الملك دوقيانوس أو سمع به؟ فقام أحدهم وقال: أيها الملك الصالح، أنا أدرس التاريخ وأجمع كتبه، وعندي كتاب يقول: إنه منذ ثلاثمئة سنة كان يوجد ملك ظالم في أفسوس اسمه دوقيانوس يعبد الأصنام ويقتل المؤمنين، وقد هرب منه

ستة من أشراف مدينة أفسوس، هم: مكسلمينا ويمليخا ومشلينا ومرنوش ودبرنوش وشاذنوش، والتجؤوا إلى كهف في جبل ينجلوس. فقال يمليخا: هذه أسماؤنا يا سيدي!.. ثم انضم إلينا الراعي كفشطيوس وكلبه قطمير.

فتعجب الملك الصالح بيدروس من ذلك وقال: إن هذه كرامة عظيمة لهؤلاء الفتية المؤمنين الصابرين.. اذهبوا بنا لنراهم ونتبرك بهم.. وذهبوا جميعاً إلى الكهف ومعهم يمليخا حتى وصلوا إليه.

وقبل أن يدخلوا قال يمليخا للملك: دعوني أدخل قبلكم لكي أطمئنهم؛ لئلا يخافوا منكم ويظنوا أن دوقيانوس جاء ليأخذهم.. فسمح له، فدخل يمليخا عليهم الكهف، وقصَّ القصة على رفاقه وأن دوقيانوس هلك منذ ثلاثمئة عام، وأن أفسوس هي الآن بيد الملك الصالح المؤمن بيدروس.

وعند ذلك اطمأنوا جميعاً واضطجعوا فناموا النوم الأبدي في هذه المرة إلى يوم القيامة، ولما أبطأ يمليخا على الملك بيدروس؛ دخل الكهف هو وحاشيته، فوجد الفتية وكلبهم أمواتاً:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١].

العبرة من القصة

هكذا ترون يا أبنائي أن من يواجه ظلم الحكام وكفرهم، ويخاف على نفسه الفتنة أو الهلاك؛ عليه أن يهاجر في الأرض، فأرض الله ﷻ واسعة، وهو نعم المعين: ﴿قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ﴾ [النساء: ٩٧].



قِصَّةُ قَارُونَ (١)

نتيجة الغرور

﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القَصَص: ٧٦] .

إن مَنْ أنْعَمَ الله سبحانه وتعالى عليه بالمال والأولاد؛ عليه أن يشكر الله سبحانه وتعالى على ذلك؛ لكي تدوم النعم وتزداد، ولا يكون الشكر بالكلام فقط، بل بالفعل أيضاً؛ بأن يواسي الفقراء، ويتصدَّق على المساكين والمحتاجين، ويعفو عن المسيئين إذا تابوا.. وإذا لم يفعل ذلك؛ فإن الله سبحانه وتعالى يسلب النعمة منه، ثم يعذّبه كما حدث لقارون.

كان قارون من قوم موسى عليه السلام ، فهو قارون بن يصهر بن قاهث ابن لاوي بن يعقوب عليه السلام ، أي هو ابن عم موسى عليه السلام ، لأن يصهر والد قارون هو أخو عمران والد موسى عليه السلام .. وكان قارون حسن الوجه، جميل الصوت، عالماً بالكيمياء، حسن التدبير في التجارة والزراعة.

لذلك جعله فرعون جابياً يجبي له الضرائب من بني إسرائيل، فكان يظلمهم ويبغي عليهم.. وجمع من ذلك أموالاً كثيرة.

وعندما خرج موسى عليه السلام وبنو إسرائيل من مصر إلى صحراء سيناء، حمل قارون أمواله الكثيرة وخرج معهم، وصار يشتغل بالتجارة والزراعة،

(١) انظر: تفسير الخازن؛ والنسفي؛ وابن كثير.

فازدادتْ أمواله كثيراً، حتى صارتْ مفاتيح خزائنه التي يضع فيها أمواله كثيرة جدّاً لا يستطيع حملها إلا العصبة[١] من الرجال.. أما خزائن أمواله فكانت تحتاج إلى (٤٠) بل إلى (٦٠) بغلاً لكي تحملها.

ونزلت التوراة على سيدنا موسى عليه السلام في سيناء، وكان قارون ذكيّاً، وصوته جميلاً، لذلك حفظ التوراة كلها، وصار يقرؤها على بني إسرائيل بصوته الجميل، وصاروا يجتمعون حوله كلَّ يوم ليستمعوا إلى صوته الجميل.. فأصابه الغرور، وقال لنفسه: أنا أغنى رجل في بني إسرائيل، عندي المال والذهب والمواشي، والزراعة والتجارة والعبيد والجواري، وأحفظ التوراة كلها، وأقرؤها على بني إسرائيل بصوتي الجميل... فلماذا لا أكون نبيّاً مثل موسى وهارون عليهما السلام.

وصار يضايق موسى عليه السلام ويؤذيه بالكلام، ويغتابه أمام بني إسرائيل، ثم قال لموسى عليه السلام: لماذا استوليتَ أنت وأخوك هارون على كلِّ أمور النبوة ولم تتركوا لي شيئاً منها؟! فقال له موسى عليه السلام: هذا شيء ليس بيدي، وإنما هو أمرٌ من الله سبحانه وتعالى.

وعندما يئس قارون من النبوّة، كفر وأصبح منافقاً، يظهر الإيمان ويضمر الكفر والعياذ بالله تعالى، وازداد غروره، فكان لا يساعد الفقراء والمساكين، وجعل لبيته باباً من الذهب، ووضع على جدران بيته صفائح من الذهب.

وخرج مرة على بني إسرائيل في يوم السبت، راكباً على بغلة شهباء، سرجها من الذهب، وعليه ثياب صفر وحمر محلاة بالأرجوان، ومتزيناً بالذهب والجواهر، وعن يمينه ثلاثمئة غلام وعن يساره ثلاثمئة جارية على البغال الشهب، وخلفه أربعة آلاف من الخدم، دوابهم محلاة بالأرجوان!...

---

(١) **العُصبة من الرجال**: بين ٣ ـ ١٠ رجال.



فانبهر الضعفاء من بني إسرائيل بهذا المنظر، وقالوا: يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون، إنه لذو حظ عظيم.. فقال لهم الأتقياء من بني إسرائيل: ويلكم! إن طاعة الله سُبحانه وتعالى وثوابه خير من هذا كله، فهذا المال كله زائل لا سيما إذا نتج عن الظلم، أما ثواب الله تعالى فباقٍ ودائم.

وقال هؤلاء الأتقياء لقارون: من الأفضل لك أن تبتغي في هذا المال طاعة الله تعالى والدار الآخرة، ولا تَنْسَ نصيبك من الدنيا، وأن تُحسن إلى الفقراء والمحتاجين، فالمال مال الله تعالى... فأجابهم بكلِّ غرور: هذا المال نلتُه بعلمي وحسن إدارتي وتدبيري، ولن أعطي منه شيئاً لأحد أبداً.

ثم أمر الله سُبحانه وتعالى موسى عليه السلام أن يأخذ الزكاة من أغنياء بني إسرائيل ليوزعها على فقرائهم، فطلب سيدنا موسى عليه السلام من قارون أن يدفع زكاة ماله، فقال له: أنا عندي أموال كثيرة، زكاتها تبلغ مقداراً كبيراً، فكيف أدفع هذا المقدار الكبير؟! فقال له موسى عليه السلام: أنا أرضى منك أن تدفع من كلِّ ألف دينار ديناراً واحداً، ومن كلِّ ألف درهم درهماً واحداً؛ فهل هذا كثير؟! فذهب قارون وحسب المبلغ الذي عليه أن يدفعه، فوجده مبلغاً كبيراً ؛لم تسمح نفسه الشحيحة به، فأبى أن يدفع، وأراد أن يشوّه سمعة سيدنا موسى عليه السلام أمام بني إسرائيل، فصار يقول لهم: إن موسى يريد أن يأخذ الزكاة لنفسه، يريد أن يأخذ أموالكم لنفسه.. ثم ذهب إلى امرأة ساقطة من بني إسرائيل، وقال لها: إنني سوف أعطيكِ ألف دينار، وألف درهم، وطستاً من الذهب، إذا قلتِ: إن موسى يتحرّش بي.

وفي أحد الأيام جمع سيدنا موسى عليه السلام بني إسرائيل وقال لهم: إن الله سُبحانه وتعالى أمرني أن آخذ الزكاة من أغنيائكم وأوزعها على فقرائكم، ومن سرق أن أقطع يده، ومن زنى وكان غير متزوج أن أضربه مئة عصا، وإذا كان متزوجاً أن نرجمه حتى يموت. فقال له قارون: وإذا فعلت أنت ذلك؛

هل تطبق العقوبة عليك؟ قال: نعم. فدعا قارون المرأة الساقطة وقال لها: ألم يتحرّش بكِ موسى؟ قالت: نعم. فقال لها موسى عليه السلام: أسألك بالله تعالى الذي فلق البحر لبني إسرائيل، وأنزل التوراة؛ هل تحرشتُ بكِ؟ فخافت المرأة من الله تعالى، وقالت: لا... ولكن قارون طلب مني ذلك وقال: إنه سيعطيني ألف دينار، وألف درهم، وطستاً من الذهب.

عند ذلك غضب سيدنا موسى عليه السلام غضباً شديداً بسبب هذا الافتراء والكذب، ودعا الله سبحانه وتعالى أن يخسف بقارون وبداره الأرض، فخسف الله به وبداره الأرض حتى ابتلعتهم، وهو يصيح ويستغيث ولا من مجيب.. وهذا جزاء الغرور وعصيان أمر الله تعالى[١].

العبرة من القصة

الغرور، هو الذي أخرج إبليس من الجنة ومن رحمة الله تعالى، لذلك لا ينبغي للمرء أن يغتر، بل عليه أن يشكر الله سبحانه وتعالى على نعمه بالقول والفعل؛ لئلا يصيبه ما أصاب قارون.. وإن لم يخسف الله تعالى به الأرض فهو قادر على الذهاب بالمال والولد، وله في الآخرة عذاب عظيم.

---

(١) قال تعالى: ﴿فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين* وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأنّ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن منّ الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون * تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين﴾ [القصص: ٨١-٨٣].



الخُرَاسَانِيُّ الغَنِيُّ والمَكِّيُّ الفَقِيْرُ

إن الله لا يضيع أجر المحسنين

شيخ ضعيف نحيل، يتلمَّس طريقه في الليل المظلم قبيل الفجر، يمشي في شوارع مكة المكرّمة المفروشة بالرمال، يعتمد على عصاه، يريد أن يصل إلى الحرم قبل بزوغ الفجر ليصلي بضع ركعات من سنّة التهجد.. ويحمل في يده اليسرى قربة فارغة من الجلد، وطاستين من النحاس، فبعد أن يصلي التهجد سوف يملأ القربة من ماء زمزم، ويدور بها على الحجاج الذين أخذوا يأتون من جميع البلاد الإسلامية لأداء فريضة الحج في ذلك العام عام (٢٥٠هـ)، وكان الشهر ذي القعدة، في العشر الأخير منه، وقد اقترب موعد الحج.

وكان الشيخ يسقي الحجاج من ماء زمزم، فيجودون عليه ببعض الدراهم، يأخذها ويشتري بها طعاماً لزوجته وبناته التسع اللواتي ينتظرنه في البيت، وهو بيت قديم متهدم، حتى إنه ليس له باب من الخشب، وإنما وضع الشيخ مكان الباب قطعة من الخيش القديم لتفصل داخل البيت عن خارجه، لأنه ليس معه ثمن باب من الخشب، فهو رجل ضعيف فقير يعيش مما يجود عليه به المحسنون والحجاج.

وسار الشيخ في الشوارع الضيقة المظلمة، فلم يكن في ذلك الزمن كهرباء ولا مصابيح تضيء الشوارع، ولم تكن الشوارع معبدة، وإنما كانت مفروشة بالرمال، وفجأة تعثر الشيخ في سيره وسقط، فاستعاذ بالله تعالى من الشيطان الرجيم، ولملم ثيابه البالية، ونهض، ولكنه شعر بأن



شيئاً قاسياً يلتف حول رجله هو الذي سبب تعثره وسقوطه، فتناوله في الظلام؛ فإذا به حزام أسود من الجلد (هميان) ثقيل، وعندما حمله سمع له خشخشة.. فأخذه وعاد به إلى البيت، وكانت زوجته وبناته ما زلنَ في نومهنَّ، فأشعل شمعة في جانب البيت وفتح الحزام؛ فإذا هو مملوء بالدنانير الذهبية، فعدّها فوجدها ألف دينار، فأعادها إلى الحزام، وحفر حفرة في أرض البيت ووضع فيها الحزام، ثم عاد يمشي إلى المسجد الحرام.

وفي الطريق صار يوسوس له الشيطان ويقول: أنت رجل فقير، وصابر، وقد أرسل الله سبحانه وتعالى هذا المال إليك جزاء صبرك؛ فخذه وتنعّم به، عمّر به بيتك المتهدّم، واشترِ به ثياباً جديدة لك ولزوجتك وبناتك، واشترِ طعاماً طيباً، لحماً وأرزاً وتمراً، فأنت لم تذق اللحم أنت وعائلتك منذ سنة، واشترِ دكاناً اشتغل فيها بالتجارة؛ فقد أصبحت ضعيفاً لا تستطيع حمل قربة الماء لتسقي الحجاج منها.

هكذا كان يقول له الشيطان ليزيِّن له أخذ المال دون حق، ولكن إيمانه كان يقول له: هذا المال ليس لك ولا من حقِّك، وله صاحب هو أحقُّ به منك، وإذا أخذته فإن الله سبحانه وتعالى مطلع عليك، وسيعذّبك عليه عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة، فهل تريد أن تعيش من المال الحرام أنت وعائلتك؟!..

ووصل إلى المسجد الحرام عند أذان الفجر، فصلّى الصبح جماعة مع الإِمام، وبعد الصلاة قام رجل خراساني (من خراسان)، أخذ ينادي ويقول: يا سامعين الصوت، يا حجاج، يا مسلمون، إنني ضيّعت حزاماً فيه ألف دينار، من وجده فليرده عليَّ وله الأجر والثواب من الله تعالى.. فقام الشيخ وقال: وماذا تعطي من وجدَه؟ فقال الخراساني: لا أعطيه شيئاً، بل له الأجر والثواب من الله تعالى.. فجلس الشيخ، وجلس الخراساني.

وبعد الصلاة ملأ الشيخ قربتَهُ من ماء زمزم، وأخذ يسقي الحجاج فيجودون عليه بدراهم قليلة، وبعد شروق الشمس أخذ الشيخ قربته الفارغة والدراهم، وذهب فاشترى بها طعاماً لزوجته وبناته، وعاد إلى بيته لكي يستريح قليلاً، وكان يأمل أن يعطيه الخراساني ولو عشرة دنانير فقط من ألف الدينار، ويرد إليه الحزام، ويتخلص من هذه الورطة التي وقع فيها، ولكن الخراساني أبى أن يعطيه شيئاً.

وفي اليوم الثاني ذهب الشيخ إلى الحرم قبيل الفجر كعادته ليصلي التهجد والصبح، وليسقي الحجاج من ماء زمزم.. وبعد صلاة الصبح قام الخراساني مرة ثانية ونادى: يا مسلمون، يا حجاج، يا سامعين الصوت، يا بصلاة محمد عليه الصلاة والسلام، يا من رأى حزاماً فيه ألف دينار، فليردّه إليَّ وله الأجر والثواب من الله تعالى.. فقام الشيخ وقال له: وماذا تعطي من وجدَه؟ فأجابه الخراساني: لا أعطيه شيئاً، بل له الأجر والثواب من الله تعالى، فجلس الشيخ وجلس الخراساني أيضاً.

وبعد أن سقى الشيخ الحجاج من ماء زمزم، واشترى بما حصل عليه من الدراهم طعاماً لعائلته، عاد إلى بيته لكي يستريح، وقال لنفسه: لو أن الخراساني أعطاني ديناراً واحداً فقط، لكنتُ أعطيتهُ الحزام، وتخلّصت منه، لأنني أصبحت أشعر بأنه حمل ثقيل فوق أكتافي، فالشيطان يوسوس لي دائماً لكي آخذه كله، فأبني به بيتي، وأشتري ثياباً وطعاماً، وأفتح دكاناً للتجارة، وهو يوسوس لي الآن بأنّ هذا الخراساني رجل بخيل جدّاً لا يستحقُّ أن أردّ له هذا الحزام الممتلئ بالدنانير.

ولكن كيف أضيّع كلَّ هذه السنين التي قضيتها في الصلاح والتقوى والصلاة والصيام والحج في كلِّ عام، هل أضيع كلَّ ذلك وما يتبعه من جنة عرضها السموات والأرض، أعيش فيها خالداً في سعادة وهناء من

أجل ألف دينار؟!.. إنني لن أضيعها إن شاء الله تعالى ولو بملء الأرض ذهباً، لذلك أريد أن أتخلص من هذا الحزام الثقيل كيفما كان؛ لكي أتخلَّص من وسوسة الشيطان اللعين.

وفي اليوم الثالث ذهب الشيخ إلى الحرم كعادته في كلِّ يوم، وهو ينوي أن يرد الحزام إلى الخراساني، ولو كان بغير مقابل.. وبعد صلاة الصبح قام الخراساني كعادته في كلِّ يوم، ونادى بأعلى صوته: يا مسلمون، يا حجاج، يا سامعين الصوت، يا بصلاة محمد عليه الصلاة والسلام، إني ضيعت حزاماً فيه ألف دينار، فمن وجدَه فليرده عليَّ وله الأجر والثواب من الله تعالى، فقام الشيخ وقال له: حزامك عندي، اذهب معي إلى البيت لأعطيك إياه.. وعند ذلك شعر الشيخ كأن حملاً ثقيلاً كان على كتفه وانزاح عنه، فهو سيتخلص بعد قليل من هذا الحزام الثقيل ووسوسة الشيطان اللعين.

وسار الخراساني مع الشيخ إلى البيت، وفي الطريق نظر الخراساني إلى الشيخ المكي فوجده شيخاً، كبيراً، نحيلاً، ضعيفاً، أصفر الوجه، يجرُّ رجليه جرّاً من شدة الضعف، ثيابه بالية مرقعة، فقال في نفسه: ما أشدّ فقر هذا الرجل!.. إنني لم أرَ أشدّ فقراً منه في مكة المكرّمة، وعندما وصلوا إلى البيت، نظر الخراساني فوجد بيتاً من اللبن والطين، متهدِّماً، ليس له باب وإنما وضعوا قطعة من الخيش القديم بدلاً من الباب، يحركها الهواء كيف يشاء، وسقفه من أوراق النخيل اليابسة، إذا نزل المطر عليها تسرب أكثره إلى داخل البيت وسقط على الجالسين فيه.

دخل الشيخ إلى البيت وقال لزوجته وبناته: إن معي ضيفاً.. فتكوّموا جميعهم فوق بعضهم في زاوية البيت.. ودخل الخراساني إلى البيت، فوجد بيتاً فقيراً، خالياً من كلِّ شيء، ليس فيه إلا قطعة حصير بالية،

وقطعة بساط ممزقة، وتسع بنات مع أمهن في زاوية البيت، ثيابهن بالية، فيها رقع كثيرة.. ووجوههن صفراء من قلة الطعام والغذاء، فقال في نفسه: ما أشد فقر هذا البيت وهذه العائلة!..

وذهب الشيخ إلى إحدى زوايا البيت فحفر الأرض وأخرج الحزام، ولما رآه الخراساني قال: هذا هو حزامي، وأخذه وفتحه وأخرج الدنانير منه ووضعها على الأرض، فلمعت في ظلام البيت، وتطلع إليها البنات مشدوهات كأنهنّ لم يشاهدْنَ دنانير ذهبية قط!.. وعدّ الخراساني الدنانير فوجدها ألف دينار، فقال للشيخ: هذه دنانيري كاملة، جزاك الله تعالى خيراً، وأعادها إلى الحزام ثم أغلقه وحمله وانصرف خارجاً من البيت.

وما إن خرج الخراساني من البيت حتى هجمت الزوجة والبنات على الشيخ يصرخنَ به، ويقلْن: ألا ترى حالنا، وجوعنا وعرينا؟! أما كنت تستطيع أن تأخذ ولو ديناراً واحداً، نشتري به لحماً وثياباً وباباً لبيتنا؟!... والشيخ لا يزيد على أن يقول: إن الله لا يضيع أجر المحسنين، إن الله لا يضيع أجر المحسنين.. هل تردْن أن نأكل الحرام؟!.

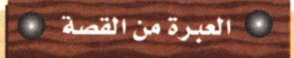
وبينما هم كذلك في داخل البيت، إذ سمعوا صوت الخراساني في الباب يدعو الشيخ ويقول: يا شيخ، يا شيخ!.. فسكتت البنات عند ذلك، وخرج الشيخ ليرى ما يريده الخراساني، فوجده واقفاً بالباب وبيده الحزام، وعندما رأى الشيخ؛ قال له: هذا الحزام ليس لي، وإنما هو لأخي، أعطاني إياه عندما علم أنني ذاهب إلى الحج، وأوصاني أن أعطيه إلى أفقر رجل أجده في مكة المكرّمة، وأنا والله لم أجد رجلاً أشدّ فقراً منك؛ فخذه فهو لك كله.

فلم يصدِّق الشيخ ما سمع، وكاد أن يُغمى عليه ويسقط على الأرض، فأمسك به الخراسانيُّ وأجلسه حتى استعاد وعيه، فأعطاه الحزام وسلّم

عليه وذهب!.. وأخذ الشيخ الحزام ودخل إلى البيت وهو يبكي من الفرح، ورمى بالحزام أمام المرأة والبنات، وقال لهنَّ: كنتنَّ تردنَ أن تأخذْن ديناراً واحداً حراماً؛ فأعطاكن الله سبحانه وتعالى ألف دينار حلالاً:

﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠] [١].

وبعد أن استراح الشيخ قليلاً أخذ بعض المال واشترى طعاماً وثياباً جديدة، ثم جدَّد بناء البيت، واشترى دكاناً وبضاعة، وصار يشتغل بالتجارة حتى أصبح من كبار الأغنياء بفضل صلاحه وتقواه[٢].

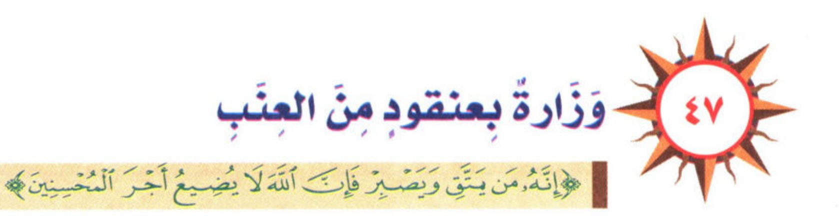

العبرة من القصة

المكافأة والجزاء يكونان على قدر البلاء والصبر.

---

(١) ويقول عز وجل: ﴿واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ [هود: ١١٥].

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما يصيب المسلم من نَصَبٍ ولا وصب. أي: من تعب أو مرض. ولا همّ ولا حزن، ولا أذى ولا غمّ؛ حتى الشوكة يُشاكها إلا كفّر الله بها من خطاياه» متفق عليه. رياض الصالحين، رقم (٣٧). وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط» حديث حسن، رواه الترمذي. رياض الصالحين، رقم (٤٣).



٤٧ وَزَارةٌ بِعنقودٍ مِنَ العِنَبِ

﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

وزارة بعنقود من العنب! ما أرخص تلك الوزارة إذن!.. ولكنها لم تكن كذلك، بل كانت غالية جدّاً، وعنقود العنب لم يكن إلا علامة على الطريق، علامة على الكرم والصدق والصلاح والتقوى، وكان قبله كثير من الدرس والسهر والتعب، وكان بعده كثير من التعب والجد والإِخلاص أيضاً.

الوزير هو عون الدين أبو المظفر يحيى بن محمد ابن هبيرة الشيباني.. وُلد في شهر ربيع الآخر سنة (٤٩٩هـ) في قرية (الدور) قرب بغداد، ووصل إلى رتبة الوزارة في عهد الخليفة العباسي المقتفي لأمر الله، ثم ابنه المستنجد بالله.

ولكنه قبل أن يصل إلى الوزارة عاش في الفقر والبؤس والذلِّ، فصبر صبر الكرام.. وبعد أن وصل إلى الوزارة لم ينتقم ممَّن أساء إليه قبلها، وهذا دليل الحلم والكرم، لأنه عفوٌ عند المقدرة.

وقد حكى هو نفسه عن بعض من أهانه وأساء إليه، ثم عفا عنه بعد أن أصبح وزيراً، فقال: أحضر لي الشرطة يوماً رجلاً متهماً بالقتل، فعرفتُه؛ لأنه من أهل قريتي (الدور)، فافتديتُه من أهل القتيل بستمئة دينار، ثم أعطيته خمسين ديناراً وصرفتُه، وقلتُ للجالسين حولي: هل تعلمون أن عيني اليمنى لا أبصر بها؟ قالوا: لا، لا نعلم. فقلت: إنني لا أبصر بها، وسببها هذا الرجل الذي افتديتُه وصرفتُه الآن.. كنت جالساً في بعض

الطريق في قريتي (الدور) وبيدي كتاب فقه أقرأ فيه، فأتى هذا الرجل ومعه سلة من الفاكهة وقال لي: قُم احمل هذه السلة، فقلت له: ما أنا بحمّال، فضربني بيده على عيني اليمنى فذهب بصرها منذ ذلك الوقت، وأردتُ الآن أن أكافئ إساءته بالعفو والإحسان بعد قدرتي عليه.

ودخل عليه مرة أحد الجنود الأتراك، فقال لحاجبه: أعطِ هذا الجنديَّ عشرين ديناراً، ولا تدعه يدخل عليَّ مرة أخرى، ثم قال للجالسين حوله: عندما كنت في قريتنا (الدور) وقع فيها قتيل، فأتى الجنود الأتراك وأخذوا جميع أهل القرية وأنا معهم، وكان نصيبي مع هذا الجندي الذي رأيتُموه الآن، وكان هو راكباً فرساً، فساقني أنا وبضعة رجال من قريتنا أمامه بعد أن ربط أيدينا وراء ظهورنا، وفي الطريق صار الرجال رفاقي يعطونه ما معهم من الدراهم فيفكهم ويطلق سراحهم، وبقيتُ وحدي؛ لأنه لم يكن معي شيء من المال أفتدي به نفسي، فصار يضربني ويسوقني أمامه بقسوة وعنف، وأنا ساكت، حتى أدركَتْنا صلاة العصر، فطلبت منه أن يسمح لي بالصلاة، فلم يسمح.. وهذا أكثر ما أغضبني منه[1].

أما وصوله إلى الوزارة فهذه قصتُه:

نشأ يحيى بن محمد بن هبيرة في قرية (الدور) في عائلة فقيرة، تشتغل بفلاحة الأرض وزراعتها، ولكنه لم يكن مهتمّاً بالفلاحة ولا بالزراعة، وإنما كل اهتمامه كان منصبّاً على قراءة الكتب وملاحقة الشيوخ والعلماء في كلِّ مكان.

---

(١) انظر: مقدمة كتاب: الإفصاح عن معاني الصحاح، لابن هبيرة. قال النبي ﷺ: **«أمرني ربي بتسع: خشية الله في السر والعلانية، وكلمة العدل في الغضب والرضا، والقصد في الفقر والغنى، وأن أصل مَنْ قطعني، وأعطي مَنْ حرمني، وأعفو عمّن ظلمني، وأن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبرة»** حديث حسن، رواه الحاكم ـ كتاب: جامع الأصول، رقم (٩٣١٧).

لذلك عندما أصبح شابّاً ذهب إلى بغداد، فقرأ القرآن الكريم وسمع الحديث النبويَّ، ودرس الفقه والأدب والبلاغة على شيوخ بغداد وعلمائها وأدبائها في ذلك العصر، حتى برع فيها جميعها، وبخاصة في الفقه على المذهب الحنبلي، كما أصبح أديباً وشاعراً كبيراً.

وعند ذلك أخذ يفتش عن وظيفة يعيش منها في بغداد.. ولأجل ذلك أخذ يراجع ديوان الوظائف في بغداد، التابع للخليفة العباسي المقتفي لأمر الله، وكلَّما راجعهم كانوا يقولون له: لا توجد وظيفة الآن.. حتَّى نفدت دراهمه، ويئس من وجود وظيفة له في بغداد، فعزم على العودة إلى قريته (الدور).

وخرج من بغداد بعد أن أنفق آخر درهم كان معه، واتجه في الطريق إلى قرية (الدور) سيراً على الأقدام، لأنه لم يكن معه أجرة دابة يركبها!.. وبعد أن سار في الطريق قليلاً أدركته صلاة العصر، فنظر حوله فرأى مسجداً قديماً على جانب الطريق، فمالَ نحوه ليصلي العصر، وسمع وهو يصلي أنيناً يأتي من جانب المسجد، لذلك بعد أن أنهى صلاته اتجه نحو ذلك الصوت، فوجد شخصاً مريضاً نائماً على الأرض في طرف المسجد، فلمسه بيده فوجده مصاباً بالحمى، فسأله عما يشعر به، فقال له: إن جسمه كلَّه يؤلمه، وإنه غريب منقطع ليس له أحد، لذلك لجأ إلى هذا المسجد المنقطع والبعيد عن العمران.. فسأله ابن هبيرة عمَّا يشتهيه، فقال له: إنني أشتهي عنقوداً من العنب.. عنقود من العنب؟! من أين لي عنقود من العنب الآن وأنا بعيد عن العمران، وليس معي درهم واحد؟! قال يحيى بن هبيرة لنفسه.

ولكنه أضاف: سأسعى جهدي للحصول على عنقود من العنب لهذا المريض الذي يودّع آخر أيام الدنيا، ويستقبل أول أيام الآخرة، لعلّه يدعو



لي دعوة مستجابة يفرّج بها الله تعالى عني ما أنا فيه.. وهكذا صَنَعَ المعروف لوجه الله تعالى مع هذا المريض الفقير المجهول، وهو لا ينتظر منه أي جزاء أو مقابل، فكان معروفه هذا نقطة تحوُّل غيَّرَتْ مجرى حياته، وأوصلتْه إلى الوزارة بعنقود من العنب.

ذهب ابن هبيرة يجري لكي يصل العمران قبل حلول الظلام، ووصل إلى دكان لبيع الفاكهة، فوجد فيها عناقيد شهية من العنب، فتناول عنقوداً كبيراً منها، وقال لصاحب الدكان: بكم هذا العنقود؟ قال: بنصف درهم، فقال له ابن هبيرة: ولكن ليس معي ثمنه الآن، وإنني أرهن عندك عباءتي هذه إلى أن آتيك بثمنه، فرضي منه البائع ذلك. فخلع ابن هبيرة عباءته وأعطاها للبائع، وأخذ عنقود العنب وذهب يركض إلى المسجد الذي فيه المريض، فوصل إليه مع غياب الشمس وهبوط الظلام، فتوضأ وصلَّى المغرب، وغسل عنقود العنب بالماء وقدّمه للرجل المريض.

وفرح المريض به فرحاً شديداً، وأكله كُلَّه.. وقال: الحمد لله الذي قضى شهوتي قبل أن أموت، فقد كنتُ أشتهي العنب منذ مدة طويلة، ولا أستطيع شراءه؛ لأنه ليس معي ثمنه.. ثم التفت إلى ابن هبيرة وقال له: أنت رحمة أرسلها الله ﷻ إليَّ.. اجلس يا بني لأحكي لك قصتي قبل أن أموت، فإنني أشعر أني سأموت في هذه الليلة.

أنا رجل من خراسان اسمي أحمد؛ كنتُ تاجراً من كبار تجار مدينة (مرو) في خراسان، وكان لي أخ تاجر مثلي، أصغر مني اسمه محمود، ومنذ سنة تقريباً اتفقتُ أنا وأخي على الذهاب في القافلة التي تذهب عادة من (مرو) إلى بغداد لشراء بضاعة من بغداد، نبيعها في خراسان، فاشتريتُ أنا بالمال الذي معي بضاعة من (مرو) لكي أبيعها في بغداد وأشتري بدلاً منها بضاعة من بغداد آخذها إلى (مرو).

أما أخي محمود فلم يشترِ بضاعة، وإنما كان معه ألف دينار وضعها في حزام وأعطاني إياه لأخبئه معي؛ لأنني أكبر منه وأوعى.. وقبل وصولنا إلى بغداد خرج علينا قطّاع الطرق، فهاجموا القافلة، ونهبوا البضاعة كلَّها، وقتلوا منّا ناساً وجرحوا آخرين.. وكنت أنا بين الجرحى، ولكنهم حسبوني من الأموات، فتركوني.. وبعد ذهابهم تحاملتُ على نفسي وقمتُ، وفتشتُ عن أخي بين القتلى وبين الجرحى فلم أجده.. فقلت: لعلِّي أجده في بغداد، وكانت قد أصبحتْ قريبةً منّا، فتوجهت إلى بغداد، وصرت أداوي جرحي في القرى التي أمرّ بها، حتى وصلت إلى بغداد وشفي جرحي.

أما بضاعتي أنا وأموالي فقد ذهبت كلُّها، أخذها اللصوص، ولم يبقَ معي إلا حزام أخي الذي فيه ألف دينار وبضعة دنانير لي كانت في جيوبي، وصرتُ أصرف على نفسي من دنانيري حتى نفدتْ، ولم تسمح نفسي أن آخذ شيئاً من دنانير أخي، فصرت أعمل وأصرف على نفسي إلى أن أصابني المرض وأشرفتُ على الموت كما ترى.

ومنذ سنة وأنا أبحث عن أخي في بغداد، ولكنني لم أجد له أثراً، وحزامه لا يزال معي، وأظن أنني سأموت في هذه الليلة، فإذا متُّ أرجو أن تغسلني وتدفنني، وأن تأخذ الحزام الذي فيه ألف دينار، وأن تبحث عن أخي محمود؛ فإن وجدتَه فأعطه الحزام، وإن لم تجده فالحزام لك، افعل به ما تشاء.

يقول ابن هبيرة: وفي الليل، وأنا نائم إلى جانب الرجل المريض سمعتُه يتشهَّد ويشهق، فنظرت إليه، فإذا هو قد مات.. فقمتُ وغسلتُه وصليتُ عليه ودفنتُه، وأخذتُ الحزام، وعدلتُ عن الذهاب إلى قريتي (الدور) بعد أن صار معي ألف دينار، وتوجهتُ إلى بغداد في الصباح، فذهبتُ إلى بائع العنب فأعطيته ديناراً؛ أخذ منه نصف درهم ثمن العنب وردّ إليَّ الباقي، وأعطاني عباءتي.

وذهبتُ إلى شاطئ نهر دجلة لأنتقل إلى القسم الآخر من بغداد، فوجدتُ قارباً فيه ملاّح ينقل الناس بالأجرة فركبتُ معه، ودجلة نهرٌ عريض؛ يستغرق قطعه نحو نصف ساعة أو أكثر، فصرت أحادث الملاّح، فوجدتُ لهجتَه غير بغدادية، فسألتُه: من أي البلاد أنت؟ قال: أنا من خراسان، من مدينة (مرو). قلت: ما اسمك؟ قال: محمود. قلت: وما الذي جاء بك إلى هنا؟ قال: هذه قصة طويلة لا شأن لك بها. فأقسمتُ عليه أن يحكي لي قصته، فقال: أنا كنتُ تاجراً في (مرو) وكان لي أخ أكبر مني اسمه أحمد تاجر أيضاً، واتفقنا أن نذهب إلى بغداد لنشتري بضاعة منها نبيعها في (مرو)، وكان معي ألف دينار وضعتُها في حزام وخبأتُها مع أخي؛ لأنه أكبر مني، وذهبنا مع القافلة، وقبل وصولنا إلى بغداد خرج علينا اللصوص فنهبوا القافلة وقتلوا وجرحوا خلقاً منها، وهربتُ أنا منهم قبل أن يصلوا إليَّ.

وفي اليوم الثاني عُدتُ إلى مكان القافلة ففتشتُ بين القتلى والجرحى فلم أجدْ أخي.. والظاهر أنه طمع في ألف الدينار التي لي معه، فأخذها وهرب بها وتركني أقاسي الفقر والحرمان!.. فجئت إلى بغداد وجلست على شاطئ دجلة حزيناً، فرآني صاحب هذا القارب فسألني عن حالي، فحكيتُ له قصتي.. فقال: تعالَ اشتغل معي على هذا القارب؛ فإنني قد أصبحتُ شيخاً عجوزاً ضعيفاً، لا قدرة لي على العمل، وليس لي ولد.

فاشتغلتُ معه، ثم زوّجني بنتَه وأسكنني في بيته، ثم توفي منذ بضعة أشهر رحمه الله تعالى.

يقول ابن هبيرة: فسألتُه عن صفات حزامه؛ فكانتْ مطابقة لصفات الحزام الذي معي، فتيقّنتُ أنه هو صاحب الحزام، فأخرجتُه له، فلما رآه شهق وكاد أن يغمى عليه، فرششتُ عليه الماء فانتبه، وقال: من أين لك هذا الحزام؟ فحكيتُ له قصة أخيه وقلتُ له: إنه لم يهرب بالحزام، بل

كان يبحث عنك في بغداد ليردَّه إليك، رحمه الله تعالى رحمةً واسعة.. وفرح فرحاً شديداً بالحزام، فقلت له: عدّ الدنانير.. فوجدها (٩٩٩) ديناراً، فقلت له: الدينار الناقص صرفتُه لأدفع منه ثمن عنقود من العنب لأخيك. فقال: سامحك الله به، وهذه عشرة دنانير أخرى لك، وأعطاني عشرة دنانير ذهباً، وتركتُه وذهبتُ.

وعندما وجدتُ نفسي في بغداد قلتُ: لأذهب إلى ديوان الوظائف وأسألهم عن الوظيفة.. فذهبتُ، وما أن رأوني حتى قالوا: أين أنت؟! إننا نبحث عنك، فقد شغرتْ عندنا وظيفة لك..

وهكذا كان عنقود العنب هو السبب في رجوعي إلى بغداد، وهو السبب في حصولي على الوظيفة.. وتنقلتُ في الوظائف حتى أصبحتُ مشرفاً على مخازن الخليفة المقتفي لأمر الله، ثم أصبحتُ كاتباً في ديوان الخليفة.. ولما رأى الخليفة كفايتي وأمانتي ونصحي قلّدني الوزارة في سنة (٥٤٤هـ).

وبعد أن توفي الخليفة المقتفي لأمر الله صار ابن هبيرة وزيراً لابنه المستنجد بالله، وبقي في الوزارة إلى أن توفي في سنة (٥٦٠هـ)، رحمه الله تعالى.

العبرة من القصة

الأمانة والصدق والتقوى والصلاح أساس النجاح في الدنيا وفي الآخرة[1].

---

(١) وقال النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: **«ألا أدلك على أكرم أخلاق الدنيا والآخرة؟.. أن تصل مَنْ قطعك، وتعطي مَنْ حرمك، وأن تعفو عمّن ظلمك»** رواه الطبراني في الأوسط. وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: **«أكمل الناس إيماناً أحسنهم خلقاً»** حديث حسن صحيح، رواه الترمذي. رياض الصالحين، رقم (٦٢٧).

٤٨ طاعةُ الشَّيْطَانِ تُدْخِلُ النَّارَ

كان يا ما كان، يا قارئين يا كرام، بعد الصلاة والسلام على خير الأنام، وصحابته الكرام.

كان في الزمن القديم رجلٌ عابدٌ من بني إسرائيل اسمه (برصيصا)، بنى لنفسه صومعةً خارج البلد، وبقي يتعبَّدُ الله ﷻ فيها سبعين سنة؛ لم يرتكب خلالها خطيئة قطُّ.

كان لا يترك الصوم والصلاة، يصوم فلا يفطر إلا كلَّ عشرة أيام، ويصلي فلا ينام إلا كلَّ عشرة أيام، ويأكل مما يزرعه في صومعته من الخضروات ويشرب من نبع قريب.

فتضايق إبليسُ اللعين منه كثيراً؛ كيف هذا الرجل يعبد الله تعالى سبعين سنة ولا يذنب ذنباً واحداً؟! فجمع شياطينه ووبّخهم، وقال: كيف تَدَعون (برصيصا) يعبدُ الله تعالى سبعين سنة دون أن يرتكب ذنباً قط، هل عجزتم عنه؟! أليس فيكم من يستطيع أن يغويه ويضلّه؟!..

فسكتوا جميعهم لِمَا يعرفون من شدة عبادة (برصيصا)!.. وأخيراً قام أحدُ الشياطين الكبار، وقال: أنا عليَّ به. فقال له إبليس: اذهب وعليك به، وإياك أن تعود خائباً فأحرقك في النار.

تزيّى الشيطانُ بزيِّ راهب عابد، حلق رأسه ولبس لباس الرهبان، وذهب إلى صومعة برصيصا وطرق الباب، فأطل عليه برصيصا من الصومعة وقال له: ماذا تريد؟ قال: أريد أن تدخلني إلى صومعتك لأتعلم العبادة منك وأعبد الله تعالى معك. فقال له برصيصا: أنا لا أريد أحداً معي، اذهب إلى غيري.. فلم يذهب الشيطان، وإنما جلس أمام نافذة برصيصا وصار يصلي، وبقي هكذا أربعين يوماً، وكلما أطلَّ عليه برصيصا من النافذة وجده يصلي ويتعبَّد، وكلُّ صلاته وتعبُّده كذب ونفاق، ولكن برصيصا لا يعرف ذلك.

وبعد الأربعين يوماً خجل برصيصا، وقال لنفسه: هذا الرجل أعبد مني وأكثر تقوى مني، ويجب عليَّ أن أدخله إلى صومعتي لأتبرّك به، وفتح له الباب وقال له: ادخل يا أخي، ولا تؤاخذني إذا كنت أهملتُك كلَّ هذه المدة.. فدخل الشيطان إلى الصومعة، واجتاز أولى العقبات. وصار يتعبَّد مع برصيصا في الصومعة، وكان أكثر عبادة من برصيصا، فبينما كان برصيصا يفطر كلَّ عشرة أيام؛ كان الشيطان لا يفطر إلا كلَّ أربعين يوماً، وبينما كان برصيصا ينام كلَّ عشرة أيام؛ كان الشيطان لا ينام إلا كلَّ أربعين يوماً، وكلُّه كذب ونفاق، ولكن برصيصا لا يعرف ذلك.

واستصغر نفسه أمام هذا الرجل العابد، وصار يتبرَّك به ولا يريد أن يفارقه.. ومضى على ذلك سنة، ثم قال له الشيطان الذي كان على صورة رجل عابد: إنني أريد أن أتركك وأذهب إلى مكان آخر. فقال له

(برصيصا): لماذا تتركني؟! فقد أنستُ بك وأحببتُك، وأنا أتبرّك بك وأخدمك طول عمري، فابقَ معي.. ولكن الشيطان قال له: لا بد من الذهاب، وأريد أن أعلمك دعاءً؛ إذا جاءك رجل أو امرأة قد تلبّسه جنيٌّ ودعوت له بهذا الدعاء؛ فإن الجنيَّ يخرج حالاً ويُشفى.. وعلّمه الدعاء وذهب.

ذهب إلى البلدة القريبة من صومعة برصيصا، ودخل في أحد الشباب فيها، فجنّ الشاب وصار يتخبط، فأخذه أهله إلى الأطباء، ولكنه لم يشفَ، وأخيراً وسوس لهم الشيطان أن يأخذوه إلى برصيصا فأخذوه، فدعا برصيصا بالدعاء الذي علّمه إياه الشيطان، فخرج الشيطان من جسم الشاب لكي يُظهر للناس أن برصيصا يشفي المجانين، وشُفي الشاب وعاد مع أهله سليماً معافًى.

وانتشر الخبر في المدينة، لذلك صار كلَّما دخل الشيطان في رجل أو امرأة أخذوه إلى برصيصا فيدعو له فيشفى.

وأخيراً دخل الشيطان في جسم بنت أخي الملك.. وكان لها ثلاثة إخوة من الرجال، فجلبوا لها الأطباء؛ فلم تشفَ، ثم سمعوا أن برصيصا يشفي المجانين، فأخذوها إليه فدعا لها فشُفيت، ولكن الشيطان دخل فيها ثانية، وصار كلما شُفيت دخل فيها من جديد.. وعند ذلك وسوس الشيطان لإخوتها أن يبنوا لها بيتاً مقابل صومعة برصيصا لكي يقرأ لها صباحاً ومساءً، وصار كلَّ يوم يبقى عندها واحد من إخوتها ثم صاروا لا يحضرون إليها إلا كل بضعة أيام.

وعند ذلك استغل الشيطان هذه الفرصة، ففي أحد الأيام عندما أتى برصيصا ليقرأ لها في المساء وسوس له الشيطان وقال له: نم هنا إلى الصباح أفضل من أن تذهب ثم تعود في الصباح إلى هنا مرة ثانية،



فنام، وفي الليل وسوس له الشيطان وقال له: انظر إلى هذه الفتاة، كم هي جميلة، إنها أجمل فتاة في المنطقة كلِّها، اذهب ونم معها فليس هنا أحدٌ يراك.. فذهب ونام معها ونسي أن الله تعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.. وتكرر هذا العمل عدة مرات.

وبعد بضعة أشهر ظهر الحمل على الفتاة، فخاف برصيصا أن يفتضح أمره أمام الناس، فوسوس إليه الشيطان أن يقتل الفتاة ليخفي جريمته، فقتلها ودفنها في مكان بعيد عن الصومعة.

وعندما أتى إخوتُها ولم يجدوها سألوا برصيصا عنها؛ فقال لهم: لا علم لي بها، قد يكون الشيطان الذي دخل فيها قد خطفها.. فعادوا إلى بيتهم خائبين.

ولكن الشيطان أتى إليهم في المنام، وقال لهم: إن برصيصا قد قتلها، ودلّهم على المكان الذي دفنها فيه، وقال لهم: إنها كانت حاملاً من برصيصا.

فذهبوا إلى ذلك المكان، فوجدوا أختهم مدفونة هناك، فاستخرجوها فوجدوها حاملاً كما قال الشيطان، فأخبروا الملك بذلك.. فأمر جنوده أن يقبضوا على برصيصا ويحضروه إليه، فواجهه بالحقيقة، فاعترف برصيصا بكلِّ ما فعل، فحكم عليه بأن يقتل ويصلب ليكون عبرة للناس.

وقبل أن يُقتل تمثَّل له الشيطان وقال له: ألا تعرفني؟ قال: لا، قال: أنا العابد الذي بقي في صومعتك سنة كاملة يعبد الله تعالى معك!.. فقال له برصيصا: أنت الشيطان إذن، أنت أصل البلاء. فقال له الشيطان: إذا كنت تريد أن أخلصك من هذه الورطة فاسجد لي. فقال له برصيصا: إذا سجدتُ لك؛ فقد كفرت بالله تعالى، فقال الشيطان: لا أخلصك من

هذه الورطة إلا إذا سجدت لي. فقال برصيصا: كيف أسجد لك وأنا مقيّد بالحديد؟! فقال الشيطان: يكفي أن تسجد لي بعينيك. فسجد له برصيصا بعينيه.. فكفر فمات كافراً والعياذ بالله تعالى. ولم يخلِّصه الشيطان من شيء، بل فرَّ هارباً مسروراً، وذهب إلى إبليس وأخبره بما كان من خبر برصيصا، ففرح إبليس فرحاً كبيراً. وهذا جزاء من يطيع الشيطان(١).

العبرة من القصة

على الإنسان ألا يطيع وسوسة الشيطان ووسوسة النفس الأمّارة بالسوء، ولكن كيف يعرف الإِنسان أن هذا وسوسة شيطان، أو وسوسة نفس أمارة بالسوء؟ إذا وسوست له نفسه بشيء عليه أن يرى: هل هذا الشيء فيه مخالفة لأوامر الله تعالى؟ فإذا كان فيه مخالفة لأوامر الله تعالى؛ فهو وسوسة شيطان، عليه أن يبتعد عنه حالاً وهو يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

وعلى الإِنسان ألا يبقى مع امرأة غريبة عنه وحدهما في مكان مغلق، وإلاّ كان الشيطان ثالثهما، كما حدث لبرصيصا على الرغم من عبادته سبعين سنة(٢).

---

(١) يقول الله ﷻ: **﴿كمثل الشيطان إذ قال للإِنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين * فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين﴾** [الحشر: ١٦-١٧].

(٢) يقول النبيُّ ﷺ: **«ألا لا يخلونَّ رجل بامرأة، إلا كان ثالثهما الشيطان»** رواه الترمذي.

٤٩ مَشَاهِدُ الإِسْرَاءِ والمِعْرَاجِ

في مشاهد الإسراء والمعراج عبرة وموعظة لجميع الناس: للمؤمنين والكافرين، للطائعين والعاصين.

المؤمنون والطائعون يرون ما ينتظرهم من السعادة والهناء، فيزدادون إيماناً وطاعة لله تعالى.. والكافرون والعاصون يرون ما ينتظرهم من العذاب والشقاء، فيكفُّون عن كفرهم وعصيانهم لله تعالى إن كان لهم عقول يفكّرون بها، وقلوب يفقهون بها، وإن كانوا ينظرون إلى أبعد من أنوفهم، ويفكّرون في مستقبلهم.

وقد قصّ النبيُّ ﷺ ما رآه في رحلة الإسراء والمعراج على أصحابه رضي الله عنهم، فقال لهم ما معناه[١]:

كنتُ مضطجعاً في حجر إسماعيل بين النائم واليقظان - وفي رواية:في بيت أم هانئ بنت أبي طالب، أي: بنت عم النبي ﷺ - إذ أتاني جبريلُ وميكائيلُ عليهما السلام، فأخذاني إلى بئر زمزم، وكان معهما طستٌ من ذهب، فشقّا صدري، وغسلا قلبي بماء زمزم ثلاث مرات، ثم ملأاه علماً وحلماً، وإيماناً ويقيناً وإسلاماً، وأغلقاه بعد أن ختماه[٢].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير، وتفسير الخازن عند تفسير آية الإسراء.

(٢) هذه العملية ضرورية لرحلة الإسراء والمعراج؛ لأنها ليست رحلة عادية، بل هي معجزة لم تحصل لأحد من البشر غير سيدنا محمد ﷺ، فالمسافة بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى نحو ألف كيلومتر أو تزيد؛ تقطعها الطائرة في ساعة من الزمن، ويقطعها الصاروخ في أقل من ذلك، ولكن مع اتخاذ احتياطات كثيرة كتكييف الهواء وتأمين الأوكسجين داخل الطائرة والصاروخ، واتخاذ الوسائل التي تحدُّ من ارتفاع الحرارة الناجمة عن الاحتكاك بالهواء... إلخ. =

ثم أتاني جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بالبراق، وهو دابّة بيضاء أصغر من البغل وأكبر من الحمار، سريع كالصاروخ أو أكثر[١]. فركبتُه وسِرْنا باتجاه المسجد الأقصى في فلسطين.

وفي الطريق إلى هناك، كشف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له الحجاب عن بعض مشاهد المؤمنين والكافرين والعاصين؛ ليقصَّ ذلك على أمته، وليكون ذلك عبرة لهم ولغيرهم من الأمم. قال:

١ ـ شاهدتُ قوماً يزرعون في يوم، ويحصدون في يوم، كلَّما حصدوا عاد كما كان.. فقلت: يا جبريل! ما هذا؟ قال: هؤلاء المجاهدون في سبيل الله تعالى، تُضاعَف لهم الحسنة بسبعمئة ضعف (بينما هي تضاعف لغيرهم بعشر أمثالها فقط).

٢ ـ ثم شاهدتُ قوماً تُضربُ رؤوسهم بالحجارة؛ كلما ضُربتْ عادتْ كما كانتْ، فتضرب من جديد، فقلتُ: ما هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يتكاسلون عن الصلاة.

٣ ـ ثم شاهدتُ قوماً عُراة، على عوراتهم من الأمام ومن الخلف أوراق تسترها، وهم يرعون كما ترعى الإِبل والغنم، ويأكلون الشوك والحجارة

= أما المسافة بين المسجد الأقصى والسموات العلى فلا يعلمها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لذلك كانت هذه الرحلة التي حصلتْ بالجسم والروح ـ كما يقول جمهور العلماء ـ معجزة للنبي ﷺ. ولذلك كان لا بد من عملية شق الصدر التي أجراها له جبريل وميكائيل عَلَيْهِمَا السَّلَامُ لكي يتحمل هذه الرحلة المعجزة؛ فأجهزة الجسم البشري كجهاز الدوران وجهاز التنفس والجهاز العصبي وغيرهما لا تتحمل مثل هذه الرحلة، لذلك قام جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بتكييف طبيعة هذه الأجهزة في جسم النبي ﷺ لهذه الرحلة، ولتتحمل التجول والعيش في السموات العلى.

فصارت طبيعة جسم النبي ﷺ كطبيعة أهل الجنة في الآخرة، وعند ذلك لا يعود من المبرر الاختلاف: هل رأى ربه ليلة المعراج أم لم يره؟ فمن الثابت بنصِّ القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف أن أهل الجنة يرون ربهم في الآخرة. وما دام النبي ﷺ قد تجوَّل في السموات واطلع على الجنة والنار، فليس من العجيب بعد ذلك أن يكون قد رأى ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(١) يضع حافره في منتهى بصره.

الساخنة الحارة، فقلتُ: ما هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين لا يؤدُّون زكاة أموالهم.

٤ ـ ثم شاهدتُ قوماً أمامهم لحم مطبوخ، ولحم آخر نيء قذر خبيث، فكانوا يأكلون من اللحم النيء الخبيث القذر، ويَدَعون اللحم الطيب المطبوخ، فقلت: ما هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء من أمتك تكون عند الواحد منهم الزوجة الطيبة الحلال، فيدعها ويأتي المرأة الخبيثة الحرام.. والمرأة تدعُ زوجها الطيب الحلال، وتأتي الرجل الخبيث الحرام.

٥ ـ ثم شاهدتُ خشبةً على الطريق لا يمرُّ بها ثوب إلا شقته، ولا شيء إلا مزقته.. فقلتُ: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا مثل أقوام من أمتك يقعدون على الطريق، فيفسدون، ويقطعون الطريق، وينهبون الأموال.

٦ ـ ثم شاهدتُ رجلاً قد جمع حزمة عظيمة من الحطب ويريد أن يحملها فلا يستطيع.. قلتُ: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الرجل من أمتك يكون عنده أماناتٌ للناس، ولا يؤدِّيها لهم.

٧ ـ ثم رأيتُ أقواماً تُقرض ألسنتهم وشفاههم بمقصَّات من حديد، كلما قُرضت عادت كما كانتْ، فتقرض من جديد، وهكذا.. فقلتُ: ما هذا يا جبريل؟ قال: هؤلاء خطباء الفتنة، يقولون ما لا يفعلون؛ يأمرون الناس بالمعروف ولا يفعلونه، وينهونهم عن المنكر ويفعلونه.

٨ ـ ثم شاهدتُ جحراً صغيراً في الأرض، خرج منه ثور عظيم الجسم، ثم أراد هذا الثور أن يدخل في الجحر الذي خرج منه فلم يستطع.. فقلت: ما هذا يا جبريل؟ فقال: هذا الرجل يتكلَّم بالكلمة العظيمة ثم يندم عليها، يريد أن يردَّها إلى حيث كانت من عقله فلا يستطيع، فالخارج لا يعود، لذلك على المرء أن يفكّر كثيراً قبل أن يتكلَّم.



٩ ـ ثم مررنا بوادٍ فيه ريح طيبة باردة ورائحة مسك، وسمعتُ منه صوتاً حسناً. فقلت: يا جبريل! ما هذا؟ فقال: هذه ريح الجنة ورائحتُها، وهذا صوتها تقول لربِّها: يا ربِّ، آتني ما وعدتني، فقد كثرتْ قصوري وغرفي وجواهري وأنهاري، فآتني ما وعدتني. فقال لها ربُّها: لك كلُّ مسلم ومسلمة، ومؤمن ومؤمنة، من آمن بي وبرسلي وعمل صالحاً، ولم يشرك بي شيئاً، ومن خافني فهو آمن، ومن سألني أعطيتُه، ومن توكل عليَّ كفيتُه.

١٠ ـ ثم مررنا على وادٍ وجدت فيه ريحاً خبيثة منتنة، وسمعتُ منه أصواتاً منكرة، فقلتُ: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذه جهنم، وهذه ريحها ورائحتُها، وهذا صوتها تقول: يا ربِّ، آتني ما وعدتني، فقد كثرتْ سلاسلي وأغلالي، وعقاربي وحياتي، وعظمت ناري، فآتني ما وعدتني. فقال لها ربها: لك كلُّ مشرك ومشركة، وكافر وكافرة، وكل خبيث وخبيثة، وعاصٍ وعاصية، وكلُّ جبار لا يؤمن بيوم الحساب.

١١ ـ ثم سرنا، فإذا برجل عن يميني يقول: يا محمد! انظرني أريد أن أسألك، انظرني أريد أن أسألك.. فلم ألتفت إليه.. ثم رأيت رجلاً آخر عن يساري يقول: يا محمد! انظرني أريد أن أسألك، انظرني أريد أن أسألك، فلم ألتفت إليه أيضاً، وبعد أن جاوزناهما، قلت: يا جبريل من هذان الرجلان؟ قال: الرجل الأول داعي اليهود، ولو التفتَّ إليه لتهودَتْ أمتُك. والرجل الثاني داعي النصارى، ولو التفتَّ إليه لتنصرَتْ أمتُك.

١٢ ـ ثم سرنا فإذا بامرأة جميلة حاسرة عن ذراعيها، عليها من كلِّ زينة خلقها الله تعالى، فلما رأتني صارتْ تقول: يا محمد! انظر إليَّ، يا محمد! انظر إليَّ، فلم ألتفتْ إليها.. فلما جاوزناها قلتُ: يا جبريل من هذه؟ قال: هذه الدنيا؛ ولو التفتَّ إليها لاختارت أمتُك الدنيا على الآخرة.

قال: ثم سرنا حتى أتينا بيت المقدس، فنزلتُ عن البراق، وتقدم جبريل عليه السلام فثقب الصخرة بإصبعه، وربط بها البراق، ثم صليتُ أنا وجبريل ركعتين.. وبعد الصلاة لقيتُ أرواح الأنبياء في بيت المقدس.. فأثنوا على ربهم وحمدوه، فقال إبراهيم عليه السلام: الحمد لله الذي اتخذني خليلاً، وأنقذني من النار. وقال موسى عليه السلام: الحمد لله الذي كلّمني، وجعل هلاك آل فرعون ونجاة بني إسرائيل على يدي. وقال داود عليه السلام: الحمد لله الذي جعل لي ملكاً عظيماً، وألانَ لي الحديد، وسخَّر لي الجبالَ والطيرَ. وقال سليمان عليه السلام: الحمدُ لله الذي سَخّر لي الرياح والشياطين يعملون لي ما شئتُ من تماثيل وقدور وقصور، وعلمني لغة الحيوانات، وآتاني ملكاً عظيماً. وقال عيسى عليه السلام: الحمد لله الذي خلقني بكلمته، وعلمني الحكمة والتوراة والإنجيل، وجعلني أبْرِئ الأبرصَ والأعمى، وأحيي الموتى بإذنه. فقلت أنا ـ أي: النبي صلى الله عليه وسلم ـ : الحمد لله الذي أرسلني رحمة للعالمين بشيراً ونذيراً، وأنزل عليَّ القرآن، وجعل أمتي خير الأمم.

عند ذلك قدّم لي جبريل عليه السلام إناءً فيه ماء فشربتُ منه قليلاً، ثم قدم إناءً آخر فيه لبن (حليب)، فشربتُ منه حتى رويتُ. فقال لي جبريل عليه السلام: لقد اخترت الفطرة ـ لأن اللبن (الحليب) يوافق فطرة الإنسان، ويلائم صحته ـ ثم قدّم لي إناء آخر فيه خمر، فقلت: لا أريده. فقال جبريل عليه السلام: إنها حرام على أمتك، ولو شربتَ منها لضلّتْ أمتُك.

ثم نُصب المعراج[1]، فصعدت عليه أنا وجبريل، حتى بلغنا السماء الدنيا، فطلب جبريل عليه السلام فتح بابها، ففُتِح ودخلنا، فإذا بأبينا آدم عليه السلام جالس وعن يمينه باب تأتي منه ريح طيبة، وعن شماله باب تأتي منه

---

(١) **المعراج:** مصعد رباني يسير بقدرة الله سبحانه وتعالى.

ريح خبيثة، فإذا نظر إلى الباب الذي عن يمينه ضحك واستبشر، وإذا نظر إلى الباب الذي عن شماله بكى وحزن.. فسألتُ جبريل عن ذلك، فقال: الباب الذي عن يمينه باب الجنة؛ فإذا نظر إلى من يدخل الجنة من ذريته؛ ضحك واستبشر، والباب الذي عن شماله باب جهنم؛ فإذا نظر إلى من يدخله من ذريته؛ بكى وحزن.

ثم صعدنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل عليه السلام ففُتحتْ، فدخلنا فوجدنا ابني الخالة يحيى بن زكريا عليهما السلام، وعيسى عليه السلام وهو مربوع؛ لونه إلى الحمرة والبياض، جعد الشعر، حديد البصر؛ يشبه عروة بن مسعود الثقفي.

ثم صعدنا إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل عليه السلام، ففُتحتْ، فدخلنا؛ فإذا بأخي يوسف عليه السلام، وقد أُعطي الحسن والجمال؛ فهو كالقمر ليلة البدر.

ثم صعدنا إلى السماء الرابعة، فاستفتح جبريل عليه السلام، ففتحتْ، فدخلنا، فإذا بإدريس عليه السلام قد رفعه الله تعالى مكاناً علياً، فرحَّب بي، ودعا لي بخير، وقال: مرحباً بالنبيِّ الصالح والأخ الصالح[1].

ثم صعدنا إلى السماء الخامسة، فاستفتح جبريل عليه السلام، ففُتحتْ، فدخلنا، فإذا بهارون عليه السلام جالس، وحوله قوم من بني إسرائيل يقصُّ عليهم ويحكي لهم، وهو محبوب عندهم.

ثم صعدنا إلى السماء السادسة، فاستفتح جبريل عليه السلام، ففُتِحَتْ، فدخلنا، فإذا بموسى عليه السلام يبكي! فقلت لجبريل عليه السلام: ما يبكيه؟ قال: لأنه يرى أمتك أكثر من أمته وخيراً منها، وموسى عليه السلام أسمر، طويل، سبط الشعر، يصل شعر رأسه إلى أذنيه.

---

(١) اتفق المؤرِّخون على أن إدريس عليه السلام هو أخنون أو أخنوخ جدّ نوح عليه السلام، وينتهي نسبه إلى شيث بن آدم عليهما السلام. تفسير الخازن؛ والنبوة والأنبياء، للشيخ محمد علي الصابوني.

ثم صعدنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل عليه السلام، ففُتحتْ، فدخلنا، فإذا بإبراهيم عليه السلام جالس عند باب البيت المعمور، وهو أشبه الناس بي، وعنده قوم جلوس بيض الوجوه، وقوم آخرون قد خالط بياض وجوههم السواد، وإلى جانبهم نهر قاموا فاغتسلوا فيه فخفَّ السواد من وجوههم، ثم دخلوا نهراً آخر فاغتسلوا فيه فخفَّ سواد وجوههم أيضاً، ثم دخلوا نهراً ثالثاً فاغتسلوا فيه فزال سواد وجوههم، وأصبحوا بيض الوجوه مثل رفاقهم، فجاؤوا فجلسوا معهم. فقلت: ما هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء البيض الوجوه؛ قوم مؤمنون لم يرتكبوا في حياتهم إثماً، ولم يظلموا أحداً.. أما الذين خالط بياض وجوههم السواد، فقد خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، ولكنهم تابوا فتاب الله تعالى عليهم.. أما الأنهار الثلاثة: فالنهر الأول: رحمة الله تعالى، والنهر الثاني: نعمة الله تعالى، والنهر الثالث: سقاهم ربهم منه شراباً طهوراً. ثم قال لي جبريل عليه السلام: سلّمْ على أبيك إبراهيم.. فسلَّمت عليه، فدعا لي بخير.

ثم قال قائل: يا محمد هذا مالك خازن جهنم، فالتفتُّ إليه، فبدأني بالسلام، فرددتُ عليه السلام.. وهو لم يضحك في حياته قط.

ثم نظرتُ فرأيتُ قوماً يأكلون الجيف[1]، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، يغتابونهم، فكأنما هم يأكلون لحومهم بعد موتهم.

ثم رأيت أقواماً أفواههم كأفواه الإبل يفتحونها ويتناولون بها لحماً منتناً، فيخرج من أسافلهم، فيضجُّون إلى الله عز وجل، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء من أمتك الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً، إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً.

---

(١) الجيف: جمع جيفة، وهي جثة الميت إذا أنتنت.

ثم رأيتُ نساء قد تعلَّقنَ بأثدائهنَّ وهنَّ يصرخنَ ويستغثنَ، فقلتُ: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الزناة من أمتك اللائي يرتكبن الفواحش.

ثم رأيت أقواماً بطونهم منتفخة فيها الحيات تُرى من خارج بطونهم، كلَّما أراد أحدهم أن ينهض وقع، فيجيء الناس ويدوسونهم بأقدامهم فيصرخون ويستغيثون. فقلت: يا جبريل! من هؤلاء؟ قال: هؤلاء من أمتك الذي يأكلون الربا، لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخطبه الشيطان من المسِّ.

ثم رأيتُ أقواماً يقطع اللحم من جنوبهم ويوضع في أفواههم، ويقال لهم: كلوا من لحمكم كما كنتم تأكلون من لحوم إخوانكم. فقلت: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الهمّازون[١] من أمتك الذين يسعون بين الناس بالفساد.

ثم نظرتُ فإذا رعد وبرق وصواعق، ونظرت أسفل مني فإذا بدخان وأصوات، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هذه الشياطين يحومون على أعين بني آدم.

ثم صليتُ في البيت المعمور في السماء السابعة، وهو فوق الكعبة المشرّفة، وكان إبراهيم عليه الصلاة والسلام مستنداً بظهره إليه.. ويطوف بالبيت المعمور كلَّ يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه إلى يوم القيامة.. ثم رُفِعْتُ إلى سدرة المنتهى، وهي شجرة نبقٍ في نهاية السماء السابعة عن يمين العرش، إليها ينتهي علم الخلائق، وما خلفها غيبٌ لا يعلمه أحدٌ إلا الله عَزَّ وَجَلَّ، ويخرج من أصلها أنهار من ماء صافٍ، وأنهار من لبن لم يتغيَّرْ طعمه، وأنهار من عسل مصفّى، وأنهار من خمر لذة للشاربين[٢].

---

(١) الهمّازون: جمع همّاز، وهو الذي يسعى بين الناس بالفساد.

(٢) خمر الجنة غير خمر الدنيا، فهي لا تضر الجسم ولا تؤذي العقل ولا تسبب السكر.

ومن أنهار سدرة المنتهى: نهر الكوثر ونهر الرحمة، وقد اغتسلتُ في نهر الرحمة، فغُفر لي ما تقدّم من ذنبي وما تأخر.. ويسير الراكب في ظل سدرة المنتهى سبعين سنة لا يقطعها؛ ثمارها كقِلال[1] هَجَر، وورقها كآذان الفيلة - أي: كبير جدّاً - إذا غشيها من نور الله ﷻ ما غشي تغيَّرتْ؛ فما أحدٌ من خلق الله تعالى يستطيع أن يصفها من حسنها، ولو وضعت ورقة من أوراقها في الأرض لأضاءت أهل الأرض.

واطلعتُ هناك على الجنة فإذا بالأنهار تجري فيها من كلِّ نوع: أنهار من ماء، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من عسل مصفًّى، وأنهار من خمر لذة للشاربين.. وإذا برمّانها وثمارها كالدلاء[2] عِظَماً، وإذا بطيرها كالجِمَال.. وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ثم اطلعتُ على النار؛ فإذا فيها غضب الله تعالى ونقمته؛ لو طرحتْ فيها الحجارة والحديد لأكلتْها.. ثم أغلقت دوني.

ورأيتُ هناك جبريل عليه السلام على صورته الحقيقية؛ وله ستمئة جناح، رأيتُ رفرفاً[3] أخضر قد سدّ الأفق.

ووصلت إلى منزلة سمعت فيها صوت الأقلام، أقلام القدر بما هو كائن إلى يوم القيامة.

وهناك فارقني جبريل عليه السلام وقال: هذه حدودي، ولو تقدمتُ خطوة أكثر من ذلك لاحترقتُ، لأن علم الخلائق - بما فيهم الملائكة - ينتهي عند سدرة المنتهى. فقلت: أتتركني وحدي يا أخي يا جبريل؟ قال: هذه حدودي، لا أستطيع تجاوزها؛ فشأنك أنت وربُّك.

---

(١) **القِلال**: جمع قُلة، وهي إناء من الفخار يحفظ فيه الماء (خابية).

(٢) **الدلاء**: جمع دلو.

(٣) **الرفرف**: الستر.

وسِرْتُ في النور، وكلّمني ربي فقال: سَلْ يا محمد. فقلتُ: لقد اتخذتَ إبراهيم خليلاً، وكلَّمْتَ موسى تكليماً، وأعطيتَ داود مُلكاً عظيماً، وألَنْتَ له الحديد وسخّرت له الجبال، وأعطيتَ سليمان ملكاً عظيماً، وسخّرتَ له الإنس والجن والشياطين والرياح وعلمتَه منطق الحيوان، وعلَّمتَ عيسى التوراة والإنجيل، وجعلتَه يبرئ الأعمى والأبرص، ويحيي الموتى بإذنك، وحفظتَهُ وأمه من الشيطان الرجيم.

فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: وقد اتخذتكَ حبيباً وخليلاً، وأرسلتُك إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً، وشرحتُ لك صدرك، ورفعتُ لك ذكرك، فلا أُذكر إلا ذُكرتَ معي، وجعلتُ أمتك خير الأمم، وأعطيتُك سبعاً من المثاني - أي: سورة الفاتحة - وخواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش، وأعطيتُك نهر الكوثر. يقول النبي ﷺ: **«فضَّلني ربي بستٍّ: أعطاني فواتح الكلام وخواتمه، وجوامع الحديث، وأرسلني إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً، وقذف في قلوب أعدائي الرعب من مسيرة شهر، وأُحلّت لي الغنائم ولم تُحلّ لأحد قبلي، وجُعلت لي الأرضُ كلها مسجداً وطهوراً»**.

ثم فرض ربي عليَّ وعلى أمتي خمسين صلاة في اليوم والليلة، وعندما مررتُ بموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في عودتي قال: ما فرض عليك ربُّك؟ قلت: خمسين صلاة في اليوم والليلة. فقال: ارجع إلى ربك واسأله التخفيفَ؛ فإن أمتَك لا تطيق ذلك. فرجعت إلى ربي فوضع منها عشراً، وما زلتُ أذهب وأعود بين ربي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وبين موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حتى أصبحتِ الخمسون صلاة خمس صلوات، وقال الله عَزَّ وَجَلَّ: خمس صلوات بخمسين صلاة، وكل حسنة بعشر أمثالها. فقال لي موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك لا تطيق ذلك، فقد بلوتُ بني إسرائيل فوجدتُهم لا يطيقون.. فقلت له: لقد استحييتُ من ربي، ورضيتُ بأن تكون كلُّ حسنة بعشر أمثالها.

وبعد ذلك هبطتُ أنا وجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى بيت المقدس وهبط معنا الأنبياء كلُّهم، وحانتْ صلاة الصبح، فقدّمني جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فصليتُ إماماً بهم إظهاراً لشرفي وفضلي عليهم، صلوات الله وسلامه عليهم، ثم خرجتُ من بيت المقدس، وركبتُ البراق، وعدتُ إلى مكة المكرّمة، وفي طريقي إلى مكة المكرّمة مررتُ بقافلة لقريش وقد هرب منهم بعير، فهم يطلبونه، كما انكسرتْ لهم ناقةٌ حمراءُ. وفي مقدمة القافلة جمل أسمر (أورق).. وعندما حدّثتُ قريشاً بحديث الإسراء والمعراج كذّبوني؛ فذكرتُ لهم ما شاهدتُه في قافلتهم، وأخبرتُهم أنها ستصل إليهم في هذا اليوم، فكان كما ذكرتُ، وسألوهم عن البعير الذي هرب وعن الناقة التي انكسرت، فكان كما ذكرت لهم.

وعندما أرسل النبي ﷺ رسالته إلى هرقل قيصر الروم مع دِحْية الكلبي، وكان قيصر في الشام؛ طلب أحداً من قريش ليسأله عن النبي ﷺ، فأَتَوْه بأبي سفيان، فسأله: هل كان يكذب عليكم؟ فقالت أبو سفيان: لا، ولكنه زعم مرة أنه خرج من أرضنا ليلاً، فأتى مسجدكم هذا في بيت المقدس، فصلَّى فيه، ثم عاد في الليلة نفسها قبل الصباح.. وكان بَطْريقُ القدس واقفاً عند رأس قيصر، فسألَ أبا سفيان: متى كانت هذه الليلة؟ فقال له: يزعم أنها ليلة السابع والعشرين من رجب قبل هجرته إلى يثرب بسنة، أي: توافق سنة (٦٢١م)... فقال البطريق: كنتُ لا أنام كلَّ ليلة، حتى أغلق أبواب بيت المقدس كلَّها بيدي، وفي الليلة التي ذكرها هذا الرجل استعصى عليَّ أحد الأبواب فلم أستطع إغلاقه، واستعنتُ بالنجارين فلم يستطيعوا إغلاقه، فتركناه مفتوحاً، وفي الصباح وجدتُ الحجر الذي في زاوية المسجد مثقوباً، وعلى الأرض أثر دابة رُبطتْ هناك، فصاحبك صادق إذن[١].

(١) تفسير ابن كثير، آية الإسراء.

وهكذا نرى أن في مشاهد الإسراء والمعراج عبرة أي عبرة لمن كان فيه ذرة من العقل والفهم، فقد قيل: العاقل من اتَّعظ بغيره، والجاهل من اتَّعظ بنفسه أو اتَّعظ به غيره، والعاقل من يحتاط للأمر قبل وقوعه لا بعد وقوعه.

وقد قصَّ علينا سيدنا رسول الله ﷺ مشاهد الإسراء والمعراج هذه لنتَّعِظَ بها، لكي نرى ما ينتظر المتقين في الجنة من النعيم، فنكون منهم، ولكي نرى ما ينتظر الكافرين والعاصين من العذاب والشقاء، فنبتعد عن طريقهم وسلوكهم.

قصّ علينا كيف يزرع المجاهدون في سبيل الله تعالى ويحصدون في يوم واحد، وكيف تُضاعف حسناتهم إلى سبعمئة ضعف لكي نكون منهم، وقصّ علينا كيف تضرب رؤوس المتكاسلين عن الصلاة بالحجارة؛ لكي لا نتكاسل عنها، وقصّ علينا قصة الذين لا يدفعون الزكاة كيف يعيشون عراة يرعون كالبهائم، ويأكلون الشوك والحجارة المحماة؛ لكي نسارع إلى دفع الزكاة، وقصّ علينا قصة الزناة الذين يدعون اللحم الطيب، ويأكلون اللحم الخبيث المنتن، والنساء اللواتي يُعلَّقنَ من أثدائهنَّ، لكي لا نكون منهم.

وقصّ علينا قصة الذي لا يؤدِّي الأمانات إلى أهلها؛ كيف يجمع الحزمة

الكبيرة من الحطب، ثم لا يستطيع حملها؛ لكي نسارع إلى أداء الأمانات إلى أهلها، وقصّ علينا قصة الذين يأمرون بالمعروف ولا يفعلونه، وينهون عن المنكر ويفعلونه؛ كيف تُقرض ألسنتهم وشفاههم بمقارض الحديد؛ لكي لا نكون منهم، وقصّ علينا قصة الذين يغتابون الناس؛ كيف يأكلون الجيف المنتنة؛ لكي نبتعد عن الغيبة، وقصة الهمّازين الذين يسعون بين الناس بالفساد؛ كيف يُقطع لحمهم من جنوبهم ويوضع في أفواههم؛ لكي يأكلوه، لكي لا نكون منهم.

وقصّ علينا قصة آكلي الربا؛ كيف تنتفخ بطونهم وتمتلئ بالحيات، ولا يستطيعون القيام، فيقومون ويقعون، ويدوسهم الناس بأقدامهم؛ لكي نعتبر ونتعظ ولا نفعل فعلهم؛ لئلا يكون مصيرنا كمصيرهم.. ثم ذكر لنا: أن الذين يتوبون يتوب الله ﷻ عليهم، على أن ينووا ألاّ يعودوا إلى ما فعلوه، فيغسلهم الله تعالى في نهر رحمته ونهر نعمته، فتبيضُّ وجوههم بعد اسودادها، إن في ذلك لعبرة لأولي العقول والألباب..

وصلَّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلَّم.

٥٠ الصَّداقَةُ: إِخْلاصٌ وَوَفاءٌ

صالح وخليل، نشأا في أحد أحياء مدينة حلب السورية، في بيتين متجاورين، عمرُهما واحد، ومدرستُهما واحدة، والشارع الذي يلعبان فيه واحد.. ما كانا يفترقان أبداً إلا ليأكلا أو يناما، كانا يذهبان معاً إلى المدرسة، ويلعبان معاً في الشارع، ويذاكران معاً دروسهما، لذلك شبّا صديقَيْنِ حميمَيْنِ، كأخوين توءَمين.

ولكن هل تصفو لهما الأيام هكذا؟ وهل يدوم للدنيا حال؟:

وسالمتْكَ الليالي فاغترَرَتْ بها وعندَ صفوِ الليالي يحدث الكَدَرُ

تأخرتْ أحوال والد صالح، وساءتْ حالتُهُ المالية في حلب، ولم يعد له عمل يعيش منه، وكان له أقارب في مدينة بغداد، فصمَّمَ على أن يرحل عن حلب إلى بغداد لعلّ أقاربه يساعدونه هناك، فيجدون له عملاً يعيش منه هو وعائلته.. وأخبر صالح بذلك خليلاً، فاغتمّ وحزن، كما اغتمّ صالح وحزن قبله أيضاً، ولكن ماذا يفعلان؟! وهذا حكم الله سبحانه وتعالى، ولا رادّ لحكمه ومشيئته.. وكانا يجتمعان فيبكيان، ويفترقان فيبكيان، وتعاهدا على أن يتصلا ببعضهما بالمراسلة باستمرار، فالمراسلة نصف المشاهدة.

وحلَّ يوم السفر، يوم الفراق، وكان يوماً مشهوداً، علا فيه النحيبُ والبكاءُ، ولكن لا بدّ مما ليس منه بدّ، وركب صالحُ وعائلتُه القطارَ الذاهبَ إلى بغداد، وسار القطار وصالح يلوِّح بيديه لصديقه خليل الذي جاء لوداعه، وخليل يلوِّح له أيضاً.. ودموعهما تجري على خديهما في صمت وسكون، حتى غاب القطارُ عن عيون خليل، وغاب خليلُ عن عيون صالح،

وانتقلت المشاهدة عند ذلك من العين إلى القلب:

وتلفَّتَتْ عيني ومُذْ خَفِيَتْ عني الطُّلولُ[1] تَلَفَّتَ القَلْبُ

وظلَّ الصديقان على الاتصال فيما بينهما بالمراسلة، فكانا يكتبان إلى بعضهما رسالةً كلَّ يوم تقريباً، ثم صارا يكتبان كلَّ أسبوع، وبعد أن طال الزمن وضعفتِ الهمةُ صارا يكتبان كلَّ شهر، ثم كلَّ بضعة أشهر، ولكنهما ظلَّا على اتصال فيما بينهما على كلِّ حال.

ودارت الأيام، وكرّتِ السنون، واشتغل والد صالح في بغداد بالتجارة وتحسَّنت أحواله، ودرس صالح في الجامعة وتخرَّج منها حاملاً شهادة الاقتصاد، وتوفي والده، واشتغل هو بالسياسة حتى أصبح وزيراً للاقتصاد في بغداد.

أما خليل فقد توفي والده، ولم يستطع أن يكمل دراسته، وصار يعمل في دكان والده في حي السويقة.. وفي إحدى الليالي حدث حريق في حي السويقة أتى على الحي بأكمله بما فيه دكان خليل، وهكذا نام غنيّاً ميسوراً، واستيقظ فقيراً مُعدماً.

وضاقتْ به الأحوال، وانسدَّتْ في وجهه الأبواب، فعزم على السفر إلى صديقه صالح في بغداد، وركب القطار إلى هناك، وعندما وصل إلى بغداد نزل في أحد الفنادق الرخيصة، وفي الصباح ذهب إلى وزارة الاقتصاد، وكتب اسمَه على قصاصة من الورق، وأعطاها إلى حارس الوزير، وعندما رآها الوزير خرج بنفسه، واستقبل صديقه العزيز، وأدخله إلى مكتبه، وبعد أن سأله عن صحته وأحواله، سأله عن سبب مجيئه إلى بغداد، فقصَّ عليه كيف حدث الحريق في السويقة، وكيف احترقتْ دكانه فأصبح فقيراً مُعدماً، لذلك جاء إلى بغداد راجياً أن يجد له صديقه صالح عملاً يعيش منه.

---

(١) **الطلول**: جمع طلل، وهو آثار الديار.



فطمأنه صديقه الوزير وقال له: اذهب معي الآن لكي نتغدَّى معاً، وعدْ إليَّ غداً في الصباح.. وعندما عاد خليل في اليوم التالي إلى مكتب صديقه صالح؛ فاجأه هذا بقوله: إن وزارة الاقتصاد لا توظِّف إلا الذين يحملون شهادات جامعية، وأنت لم تكمل دراستك يا صديقي، لذلك فعليك أن تفتِّش عن عمل بنفسك، وإنني متأسِّف لأنني لا أستطيع مساعدتك.

فخرج خليل من مكتب صديقه وهو لا يرى طريقه من شدة الحزن والألم، فقد انهارتْ آمالُه كلُّها فجأة، وجلس على أول مقعد وجده في طريقه على شاطئ دجلة، وصار يفكّر ماذا يصنع، فقدِ انهارتْ آماله كلُّها، وهو لا يعرف أحداً في بغداد، وليس معه مال يعيش منه، واسودَّتِ الدنيا في عينيه، وسالتْ دموعه على خديه.

وفجأة جلس رجل بجانبه، ولمَّا رآه على هذه الحالة سأله عمّا به، فحكى له قصتَه كلَّها، وكيف أنه الآن أصبح يائساً جدّاً لا يعلم ماذا يصنع، فقال له الرجل: ما دام عندك خبرة في التجارة، فأنا عندي مخزن للتجارة، وقد تقدمتْ سِني وتأخَّرتْ صحتي، فتعال اشتغل معي.. فوافق خليل حالاً، وفرح فرحاً شديداً.. وعاد الأمل إليه بعد اليأس الشديد.. وصار يعمل في مخزن الرجل، وينام في غرفة صغيرة ملحقة بالمخزن، وبعد بضعة أشهر تحسَّنتْ تجارة المخزن بفضل إخلاص خليل في العمل، فقال له الرجل: إنك تاجر ممتاز، فلماذا لا تتزوج هنا وتستقر ويصبح لك عائلة وأولاد؟.. فأجابه خليل: ومَنْ يزوِّجني وأنا لا أعرف أحداً ولا أملك شيئاً؟! فقال له الرجل: أنا عندي بنت ليس لي أولاد غيرها، وقد سجَّلتُ هذا المخزن باسمها، فإذا كنتَ توافق على الزواج منها يصبح هذا المخزن ملككما، فتحصل على الزوجة والمال معاً، فوافق خليل حالاً وهو يكاد يطير من الفرح.

وفي ليلة العرس صنع التاجرُ والدُ العروس وليمةً عظيمةً دعا إليها أعيان البلد ومنهم الوزير صالح.. وبعد أن تناولوا الطعام جلسوا يتحدَّثون، فقال لهم صالح: سأقصُّ عليكم أغرب قصة مرت عليَّ في حياتي: إنني نشأت في مدينة حلب، وكان لي فيها صديق هو أعزُّ عليَّ من أخي، لذلك حزنتُ حزناً شديداً عندما تركتُ حلب وسافرتُ مع عائلتي إلى بغداد، ولم أنسَ صديقي طوال حياتي، وتحسنتْ أحوالي هنا في بغداد حتى صرتُ وزيراً، ومع ذلك لم أنسَ صديقي، وفرحتُ به فرحاً شديداً عندما أتى من حلب إلى بغداد بسبب احتراق دكانه في حلب منذ بضعة أشهر، وجاء إلى مكتبي يطلبُ مساعدتي، ولكنني رأيتُ أنني إذا ساعدتهُ مساعدة مباشرة بالجاه أو بالمال؛ فإنه سيشعر بالذلِّ طوال حياته أمامي، لذلك استمهلتُه إلى الغد، وأرسلتُ إلى صديقي التاجر صاحب هذا البيت، وطلبتُ منه أن يأتي إلى مكتبي في صباح الغد حتى إذا رأى الرجل الحلبي يخرج من عندي يتبعه ويساعده بكلِّ ما يستطيع.. وأنا أقدِّم له كلَّ ما تكلِّفه مساعدتُه، وقد كان ذلك، ونجح صديقي في عمله ولله الحمد، ونال إعجاب التاجر بإخلاصه واستقامته حتى زوجه بنته، ووهب له مخزنه وماله، واسم صديقي هذا خليل، وهذه الليلة هي ليلة عرسه فهنيئاً له.. فقام خليل واعتنقَ صديقه صالحاً وهو يشكره، ويطلب منه أن يسامحه على سوء ظنه به.. وعاشا بقية حياتهما في بغداد صديقَيْنِ حميمَيْنِ كأخوين توءَمين مثلما كانا في حلب.

العبرة من القصة

الصداقة إخلاص ووفاء، وليست كلاماً في كلام[1].

---

(١) قال النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحب لنفسه» متفق عليه. رياض الصالحين، رقم (٢٣٧).



حِكَايَةُ عِقْدِ اللُّؤْلُؤِ(١)

جزاء التقوى والصبر

أبو الوفا علي بن عقيل، شيخ الحنابلة في بغداد، ولد سنة (٤٣١هـ)، وتوفي سنة (٥١٣هـ).. حكى لأصحابه في بغداد في أحد الأيام هذه الحكاية، قال:

كنتُ شابّاً فقيراً، أعيش من عمل يدي، وأتردد على علماء بغداد لأتعلّم الفقه، وأحكام الشرع.. وفي إحدى السنين، سمعتُ بأن قافلة الحجاج تستعدُّ لمغادرة بغداد إلى مكة المكرّمة والمدينة المنوّرة لأداء فريضة الحج، وزيارة النبي ﷺ؛ فاشتاقتْ نفسي إلى الحجِّ، ولكنني شابٌّ فقير، لا أملك أجرة القافلة، ولا مصروف الحجِّ، فحزنتُ كثيراً، وجلستُ في المسجد حزيناً، باكياً، يائساً، فرآني شيخي الذي أتعلّم عنده على هذه الحالة، فسألني عمَّا بي، فذكرتُ له اشتياقي إلى الحج، ولكنني فقير لا أملك أجرة القافلة ولا مصروف الحج، وقافلة الحجاج ستغادر بغداد بعد بضعة أيام إلى الحجاز؛ فهوَّنَ شيخي عليَّ الأمر وقال لي: في هذه القافلة تاجرٌ غنيٌّ، صديق لي، سوف أكلمه ليأخذك معه، على أنْ تخدمه طوال الطريق.

---

(١) وردتْ هذه الحكاية مختصرة في كتاب: سير أعلام النبلاء، للذهبي: ١٩/٤٤٣؛ كما وردت حكاية تشبهها في كتاب: شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي، في حوادث سنة (٥٣٥هـ): ٤/١٠٨. وقد مزجتُ بين الحكايتين، وثمة حكاية أخرى تشبهها رواها أسامة بن منقذ في كتاب: الاعتبار، طبعة سنة ١٩٨٨م، ص ١٥٧ وما بعدها.



وهكذا يسَّرَ لي المولى ﷻ أداء فريضة الحج، وكان الطريق طويلاً، والرحلةُ شاقّةً، تستمر أكثر من شهر على ظهور الجمال أو البغال، أو مشياً على الأقدام، حتى نصلَ إلى مكة المكرّمة.

ووصلنا إلى مكة المكرّمة في شهر ذي القعدة، فاستأجرَ التاجر الذي أخدمه بيتاً وضعنا فيه متاعنا، ثم ذهبنا إلى الحرم لكي نطوف حول الكعبة المشرَّفة طواف القدوم.. وعندما رأيتُ الكعبة صرتُ أدعو الله تعالى، لأنّ الدعاء مستجاب عند رؤيتها، وسَعَيْنا بين الصفا والمروة بعد الطواف، ثم عُدنا إلى البيت لكي ننام ونستريح.

وفي ثامن ذي الحجة ذهبنا إلى مِنى، وبِتْنا بها، وفي اليوم التاسع صعدنا إلى جبل عرفات، ووقفنا هناك، حتَّى دخل الليل، فذهبنا إلى المزْدلفة ونمنا بها حتى الفجر، فذهبنا إلى مِنى ورمينا جمرة العقبة، ثم طفنا حول الكعبة مرة ثانية، ثم حلقْنَا شعرنا وتَحَلَّلْنا.

وبعد انتهاء أيام مِنًى، أراد التاجر الذي أخدمه أنْ يسافر مع القافلة إلى المدينة المنوَّرة لزيارة النبي ﷺ، ثم يعودون بعدها إلى بغداد، فطلبْتُ منه أنْ يسمح لي بالبقاء في مكة المكرّمة لكي أجَاوِرَ حول الكعبة بضعة أشهر، وأسمع من علماء مكة وفقهائها ومحدثيها، فسمح لي.. ففرحتُ بذلك كثيراً.

وكنتُ أعمل في مكة المكرَّمة: أحمل الأثقال، وأسقي الماء، لكي أستطيع أن أعيش، وأصابني تعبٌ شديد وجوع كثير، وكنتُ أستيقظ في كلِّ ليلة قبل الفجر بساعة أو ساعتين، فأذهب إلى الحرم لكي أطوف حول الكعبة، وأصلِّي إلى أن يطلع الفجر.

وفي إحدى الليالي، بينما كنتُ ذاهباً إلى الحرم، عثرتْ رجلي بكيسٍ صغير، فأخذتُه بيدي وعدْتُ به إلى البيت، وأشعلْتُ شمعةً، ونظرْتُ إليه

فوجدته من الحرير الأخضر الفاخر، وحَلَلْتُه فوجدْتُ فيه عقداً من اللؤلؤ الغالي الثمن، حبّاته كبيرة، مُتَناسقة، تلمعُ في جوف الليل، كما تلمع النجوم في السماء؛ فأعدتُ العقد إلى الكيس، وخبَّأتُه في مكان أمين، وأسرعتُ بالذهاب إلى الحرم قبل أن تفوتني صلاة الصبح فيه.

وبعد الصلاة وَقَفَ رجلٌ من المصلين وبيده كيس صغير، وقال: لقد ضاع مني عقدٌ من اللؤلؤ، من يردّه إليَّ له هذا الكيس فيه خمسمئة دينار، حلالاً زُلالاً.. فلم يردّ عليه أحد، وسكتُّ أنا أيضاً، وذهبْتُ إلى البيت.

وطوال النهار صار الشيطان ونفسي الأمّارة بالسوء يحدثانني ويقولان: هذا رزقٌ ساقه الله تعالى إليك، كي تستعين به على المجاورة والعيش في مكة المكرَّمة سنين طويلة، ولكي تستريح من حمل الأثقال وسقي الماء، وتتفرغ لحضور مجالس العلماء والفقهاء والاستماع إليهم.. ولكن إيماني وضميري كانا يعترضان على ذلك، ويقولان: كيف تأخذ المال الحرام؟! وكيف تستعين على أخذ العلم والفقه بالمال الحرام؟!وكيف تنتظر من الله تعالى أن يوفِّقك ويساعدك، وأنت تصرُّ على أخذ العقد وهو ليس لك؟! كما أنك تعلم أن كلَّ لحم ينبت في الإنسان من أكل الحرام سوف تحرقه النار[1]، هذا العقد ليس لك، وقد عرفتَ صاحبه، فإياك أن تأخذه، وأنت تعلم أن الحسنة بمكة المكرَّمة بمئة ألف حسنة، والسيئة كذلك فيها بمئة ألف سيئة، فإذا رَدَدْتَ العقدَ إلى صاحبه كسبْتَ مئة ألف حسنة، وهذا أجرٌ عظيم، وإذا أخذتَهُ كان عليك مئة ألف سيئة، وهذا ذنبٌ كبير، سوف يدخلك نار جهنم، والعياذ بالله تعالى.

---

(١) عن النبي ﷺ: أنه ذكر «الرجل يطيل السفر، أشعث، أغبر، يمدُّ يديه إلى السماء يقول: يا ربّ يا ربّ، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذي بالحرام، فأنَّى يُستجاب له» رواه مسلم، رقم (١٨٥). وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «كل جسد نبت من سُحْتٍ. أي: من حرام. فالنار أوْلى به» رواه البيهقي، وأبو نعيم في الحلية.

لذلك قررْتُ أنْ أردَّ العقد إلى صاحبه في اليوم التالي، لكي أكون من المحسنين الذين لا يضيع الله تعالى أجرهم: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يُوسُف: ٩٠].

وفي اليوم الثاني ذهبتُ إلى صلاة الفجر في المسجد الحرام، وبعد الصلاة وقف صاحب العقد وصاح: لقد ضاع مني عقد من اللؤلؤ، ومن وجده وَرَدَّه إليَّ، له الأجر والثواب من الله تعالى، وله هذا الكيس، فيه خمسمئة دينار حلالاً زُلالاً.. فقمتُ وقلتُ له: عقدك عندي، اذهبْ معي إلى البيت لأردَّه إليك، فذهب معي، وفي الطريق سألتُه عن صفات الكيس الذي فيه العقد، كما سألتُه عن صفات العقد وعدد حبّاته ولون خيطه، فكان جوابه مطابقاً لصفات الكيس والعقد، وتأكدتُ أنّ العقدَ عقدُه.. وفي البيت أعطيتهُ العقد فلما رآه قال: هذا هو عقدي والله، جزاك الله تعالى خيراً، وأعطاني كيسَ الدنانير؛ ولكنني تذكرتُ أنه في المذهب الحنبلي لا يجوز أخذ مكافأةٍ على ردّ الأمانة، لذلك رددتُ الكيسَ إليه وقلت له: أنا أطلب الأجر والثواب من الله ﷻ وحده، ولا يجوز أن آخذ على ردِّ الأمانة شيئاً، وحاول كثيراً أن يعطيني ولو شيئاً من الدنانير، ولكنني رفضتُ، وأخذ عقده وانصرف؛ ونمتُ أنا في ذلك اليوم ملء عيوني مرتاحَ البال، مطمئنَّ الضمير، وكأنَّ حملاً ثقيلاً قد انزاح عن صدري.

وبعد أن أمضيتُ بضعة أشهر في مكة المكرَّمة، ذهبتُ خلالها إلى المدينة المنوَّرة حيث زرتُ النبي ﷺ ثم عدتُ إلى مكة المكرَّمة، رأيت جماعةً من تجار العراق يريدون السفر إليه عن طريق البحر، فسافرتُ معهم إلى جدة، وركبنا هناك سفينة متجهة إلى العراق.. وسارَتِ الأمور في الأيام الأولى على ما يُرام، ثم هبّتِ الريح واشتدتْ، وهاج البحر وماج، وتلاطمت الأمواج، وصارتِ السفينة تعلو وتهبطُ وتميل يميناً وشمالاً،

وتتقاذفها الأمواج، ونحن ندعو ونستغيث، ونرجو الله تعالى أن يخلِّصنا من هذا البلاء الشديد، ثم أتتْ موجةٌ عاليةٌ كالجبل قلبت السفينةَ رأساً على عقب، ففرق الرجالُ وضاعَتِ الأموال، وتعلَّقْتُ أنا بلوحٍ من الخشب وجدتُه أمامي، وصارتِ الأمواج تسوقني أمامها مدة يومين إلى أنْ ألقَتْني على ساحل إحدى الجزر، وأنا في الرمق الأخير من شدة الخوف والجوع والعطش.

ولمَّا رآني أهل تلك الجزيرة حملوني وأسعفوني، وسقوني وأطعموني، فعادَتْ إليَّ قوتي وعافيتي، وكان في الجزيرة مسجدٌ واحد فقط، فسكنْتُ فيه، ولما رآني أهل الجزيرة أحفظ القرآن طلبوا مني أن أصلي فيهم إماماً، وقالوا: إنَّ إمام مسجدهم، قد حجَّ في هذا العام، وبعد عودته من الحج مرض وتُوفي إلى رحمة الله تعالى، وليس عندهم أحدٌ غيره يحفظ القرآن ليصلي بهم إماماً، لذلك صرتُ أصلِّي إماماً بهم.. ولمَّا رأوني أحسن الكتابة والقراءة أيضاً طلبوا مني أن أعلِّم صبيانهم الكتابةَ والقراءةَ، وقراءةَ القرآن، وصاروا يعطونني كثيراً من الأموال.

وفي أحد الأيام أتاني عقلاءُ الجزيرة وقالوا لي: يا شيخ، نحن ما عدنا نستطيع الاستغناء عنك؛ من أجل إمامتنا في الصلاة، وتعليم صبياننا القراءة والكتابة وقراءة القرآن، أفلا تتزوج عندنا، ويستَقِرُّ بك المقامُ في جزيرتنا؟ فقلت لهم: ومن أتزوج؟ قالوا: إمامنا السابق تُوفي وتركَ بنتاً وحيدةً ليس لها أحد في هذه الجزيرة، نزوّجك منها.. فقبلتُ منهم ذلك.

وعقدنا عقدَ الزواج، وحدَّدْنا يوماً للزواج، وفي اليوم الموعود، أتوا بالعروس إلى بيتي في المسجد، ودخلتُ عليها، فوجدتُها صبيةً، شابةً، جميلة، ولكنَّ الذي استرعى نظري منها هو عقدٌ كانتْ تلبسه في عنقها،

فهو يشبه كثيراً العقد الذي وجدتُهُ في مكة المكرَّمة، والذي رَدَدْتُه إلى صاحبه دون مقابل؛ وصِرْتُ أديم النظر إلى العقد، فحزنتْ وبكتْ، وقالت: تنظر إلى العقد ولا تنظر إليَّ؟! فقلتُ لها: أريد أن أسألِكِ: من أين لكِ هذا العقد؟ قالتْ: عندما ذهب أبي إلى الحجِّ في هذه السنة؛ اشتراه لي من مكة المكرَّمة. فقلت لها: ما هي صفات أبيك؟ فَوَصَفَتْهُ لي، فكانت صفاته مطابقةً لصفات صاحب العقد الذي وجدتُه في مكة المكرَّمة، عند ذلك تأكدتُ أنَّ العقد الذي تلبسه هو العقد الذي وجدتُه في مكة المكرَّمة نفسه، وأنَّ صاحب العقد الذي قابلتُه في مكة المكرَّمة هو أبو زوجتي.

وعند ذلك قصصْتُ عليها قصتي، وكيف أنني وجدتُ هذا العقد في مكة المكرَّمة في كيس من الحرير الأخضر، وكيف رددتُه إلى صاحبه دون أن آخذ منه شيئاً؛ فاندهشَتْ وبكَتْ، وذهبَتْ وأحضَرَتْ كيسَ الحرير الأخضر الذي كان العقد فيه، فقلت لها: هذا هو والله الكيس نفسه، إنَّ هذا لأمرٌ عجيب، هذا جزاء التقوى والإحسان وطاعة الله ﷻ، فقد أنقذني من الموت غَرَقاً، وأرسلني إلى هذه الجزيرة بالذات، وزَوَّجَني منك بالذات، لكي يردّ إليَّ العقد بالحلال، بعد أن أبيتُ أن آخذه بالحرام.

فقالتْ: والله، إن أبي كان يذكرك دائماً، ويثني عليك كثيراً، ويقول: ما رأيْتُ رجلاً أكثر تقوى ومروءة منه، وكان يدعو الله ﷻ أنْ يجعلك زوجاً لي، وها قد استجاب الله ﷻ الدعاء؛ فهنيئاً لنا ورحمة الله تعالى على والدي.

وعِشْتُ مع زوجتي بضع سنين عيشةً هنيئةً سعيدةً، إلى أنْ حَمَلَتْ، وحان موعد الولادة، فَتَعَسَّرَتْ ولادتها، ولم يكن في الجزيرة طبيبٌ ولا طبيبة ولا مستشفى، وإنما كانت توجد قابلة (داية) عجوز لا تستطيع أن تصنع شيئاً، وبعد عذابٍ كثيرٍ وألم شديد وضَعَتْ مولوداً ذكراً، ولكنها تُوفِّيَتْ

على أثر الولادة، فحزنتُ عليها حُزناً شديداً، فقد كانت نِعْمَ العون لي في غربتي، وكانت نِعْمَ الزوجة والرفيقة.. وبعد بضعة أيام أخرى توفي المولود أيضاً، فازداد حزني وهمي وكربي، وكرهتُ الجزيرة وما فيها، وطلبتُ من أهلها أنْ يسمحوا لي بالسفر إلى بلدي بغداد، فتمنعوا في البدء، ثم وافقوا بعد أن رأوا شدة حزني وكربي، ووصلَتْ أثناء ذلك إلى الجزيرة سفينةٌ مسافرة إلى البصرة في العراق، فجمعتُ أمتعتي، وودَّعْتُ أهلَ الجزيرة، وسافرت مع السفينة إلى البصرة، وأخذتُ عقد اللؤلؤ معي بعد أنْ أصبح ملكي وحدي.

وبعد شهر من السفر في البحر، وصلنا بسلامة الله تعالى إلى البصرة، واشتريْتُ دابَّةً من البصرة أوصلتني إلى بغداد، حيث بعتُ عقد اللؤلؤ بعشرة آلاف دينار، وهكذا رفضتُ خمسمئة دينار لأجل الله تعالى فعوَّضني عنها بعشرة آلاف دينار، سَاعَدَتْنِي على إكمال دراستي وتعلُّمي، إلى أن أصبحْتُ شيخَ الحنابلة في بغداد كما ترون، وما ترونه معي من ثروة الآن، هو من بركة ذلك العقد. والحمد لله تعالى.

العبرة من القصة

الأمانة حمل ثقيل، على الإنسان أن يؤدِّيها إلى صاحبها غير منقوصة، لكي يكسب رضا الله سبحانه وتعالى، فيفوز بالتوفيق والنجاح في الدنيا، وبالسعادة والثواب في الآخرة.



٥٢ الوَالِي الكريمُ

كان يا ما كان، يا قارئين يا كرام، بعد الصلاة والسلام على النبي خير الأنام، وصحابته الكرام.

كان في زمن الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك[١]، أي: منذ أكثر من ألف وثلاثمئة سنة، والٍ على الجزيرة الشامية[٢]، يُدعى عِكْرِمة الْفَيَّاض، مركزه في مدينة الرقة، وكان كريماً يحب الكرماء، وشهماً يحبُّ الأوفياء.

وفي إحدى الليالي، بينما كان يتحدث هو وأصحابه، قال لهم: ما لي لا أرى بينكم صاحبنا خُزَيْمَةَ بن بِشْر؛ لقد صار له مدة طويلة منقطعاً عنّا لا يزورنا؟ هل هو مريض فنَعُودَه، أم مسافر فننتظره؟ فأجابه أحد الحاضرين قائلاً: إنه والله ليس مريضاً ولا مسافراً، ولكنه مُفْلِسٌ، قد أفلسَتْ تجارتُه، وكثرتْ ديونه، لذلك حَبَسَ نفسَه في بيته لا يخرج منه، لكي لا يرى أحداً ولا أحد يراه، خجلاً من الناس؛ فإن الدائنين إذا رأوه تَعَلَّقوا به، وليس معه ما يُسَدِّد ديونه، وهو ينتظر الفرج من الله ﷻ.

فقال الوالي عكرمة: لقد أَحْزَنْتَنِي واللهِ بقولك هذا، فإنّ صاحبنا خزيمة كان شهماً كريماً، وهو لا يستحقُّ هذا البلاء والعذاب.

---

(١) حكم من سنة (٩٦) إلى (٩٩هـ).

(٢) **الجزيرة الشامية:** هي ما بين دجلة والفرات في شمال شرقي سورية.



كان خزيمة بن بشر هذا تاجراً كبيراً في مدينة الرقة، وكان كريماً، يَتَصَدَّق على الفقراء، ويُدَيِّن التجار الْمُفْلِسِين والْمُعْسِرين؛ لكي يجدِّدوا تجارتَهم، ثم تأَخَّرَتْ تجارتُه، وكثرتْ ديونُه، وكان يطالب التجار بديونه فلا يُؤَدُّونها له، ويطالبه الدائنون بديونهم فيؤديها لهم؛ حتى أفلس ونَفدَ ماله كله، فَحَبَسَ نفسَهُ في بيته لا يخرج منه لكي لا يرى أحداً ولا يراه أحد، خجلاً من الناس وهرباً من الدائنين، وجلس ينتظر فرج الله تعالى.

وفي تلك الليلةِ صارَتْ زوجتُه تشكو وتلحّ في الشكوى، وتقول له: إلى متى تحبس نفسك في البيت هكذا؟! لماذا لا تخرج وتعمل؟! ومن أين نأكل نحن وأولادنا؟! لقد نَفدَ ما كان عندنا من الْمُؤَن، وبعنا جميع متاعنا، ولم يبقَ عندنا شيء، والأولاد يبكون من الجوع، فإلى متى هذه الحالة يا خزيمة؟! وأنت تعرف أنّ السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، ولا دراهم ولا دنانير. فقال لها: يا امرأة، كيف أخرج والدائنون ينتظرونني على الباب؟! وماذا أقول لهم؟! إنّ الموتَ أهونُ عليّ من رؤيتهم!.. وإنني والله كنتُ محسِناً للفقراء، مساعداً للمفلسين، ولن يُضَيّعَنِي الله سبحانه وتعالى.

وبينما كان هو وزوجته في هذا الكلام، وقد انتصفَ الليل، إذ سمعوا طرْقاً على الباب، فتعجبوا من ذلك، مَنْ يطرق عليهم البابَ في مثل هذه الساعة من الليل؟! ونهض خزيمة وذهب وفتح الباب، وإذا برجلٍ مُلَثَّم يقف أمامه، يُخْفِي وجهه باللثام حتى لا تظهر إلا عيناه، وبيده كيسٌ، مدَّه إليه.

وقال له: خُذْ هذا المال، استعِنْ به على وفاء ديونك، وتجديد تجارتك. فَتَعَلَّقَ به وقال له: من أنت يرحمك الله تعالى، فقد كدْتُ أَيْئَسُ والله من الفرَج؟! فقال له الرجل الغريب الملثم: أنا جَابِرُ عَثَرَاتِ الكِرَامِ[1]. وتركه

(١) هذا الرجل أراد أن تكون صدقتهُ في السر، وهي أكثر ثواباً بكثير من صدقة العلانية. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إنْ تبدوا =

وانصرف مختفياً في الظلام، وبقي خزيمةُ واقفاً مشدوهاً، إلى أنْ انتبه على نداء زوجته له، فأغلق البابَ ودخل، وهو يقول: أبْشري يا امرأة، فقد جاء الفرجُ من الله تعالى، انظري هذا كيسٌ مملوءٌ مالاً، قالتْ: من أين هذا الكيس؟ قال: من جابر عثرات الكرام.. قالت: ومن جابر عثرات الكرام هذا؟ ما اسمه؟ قال: لا أدري، فقد أعطاني الكيسَ وتركني واختفى في الظلام! ما أكرمك يا ربِّ وما ألطفك! الحمد لك والشكر لك، فقد كِدْتُ أيْئَس من فَرَجك.

جلس خزيمة وزوجته وفتحوا الكيس فوجدوه مملوءاً بالدنانير الذهبية، أفرغوا الدنانير على الأرض وعدّوها فبلغتْ أربعة آلاف دينار، ففرح خزيمةُ بها فرحاً كبيراً، وقال لزوجته: إنها تكفي لوفاء ديوني ولتجديد تجارتي.

وفي اليوم الثاني خرج من بيته منذ الصباح، فَوَفَّى ديونه، وفتح دكانه، وجدَّد تجارته.. وبعد بضعة أيام قال لزوجته: جَهِّزيني للسفر إلى دمشق، فقد علمتُ أنّ سليمان بن عبد الملك قد تولَّى الخلافة فيها بعد أخيه الوليد، وهو صديقٌ قديم لي، لذلك أريد أنْ أذهب لأهنِّئه بالخلافة.

وسافرَ خزيمةُ إلى دمشق، ومعه بعض الهدايا للخليفة، واستأذن في الدخول عليه فأذِنَ له، وعندما دخل سلّم على الخليفة وهنّأه بالخلافة، وقدَّم له الهدايا التي معه، فقال له الخليفةُ: ما أبطأك عنّا يا خزيمة؟ فقد تولَّينا الخلافة منذ مدة طويلة، وكنتُ أنتظر مجيئك بفارغ الصبر لكي أوليك على الجزيرة، فأنا لم أنسَ صداقتنا القديمة.

= الصدقات فنعمّا هي وإنْ تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفّر عنكم سيئاتكم والله بما تعملون خبير﴾ [البقرة: ٢٧١]. وقال النبي ﷺ: «سبعة يظلهم الله يومَ القيامة في ظله، يومَ لا ظلَّ إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله ﷻ، ورجلٌ ذكر الله خالياً ففاضتْ عيناه، ورجل قلبه معلّق في المساجد، ورجلان تحابّا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تُنفق يمينه» متفق عليه، رياض الصالحين، رقم (٣٧٦).

عند ذلك حكى خزيمة للخليفة ما حَدَثَ معه، وكيف تأخرتْ تجارتُه وكثرتْ ديونُه، وكيف حبس نفسه في بيته خجلاً من الناس وهرباً من الدائنين، منتظراً الفرج من الله ﷻ، وكيف طرق عليه الباب في إحدى الليالي رجلٌ مُلَثَّمٌ وأعطاه كيساً فيه أربعة آلاف دينار ذهباً، ولما سأله عن اسمه، قال له: أنا جابر عثرات الكرام.

فقال له الخليفة سليمان بن عبد الملك: لقد شَوَّقْتَني إلى معرفة هذا الرجل، إنه والله شهمٌ كريمٌ، يستحقُّ منا الجزاءَ والتكريم في الدنيا، مع ثواب الله تعالى في الآخرة، لذلك أطلب منك أنْ تبحث عنه وأنْ تأتيني به متى عرفته. فقال له خزيمة: السمع والطاعة، يا أمير المؤمنين.

وعندما أراد خزيمة بن بشر العودة إلى بلده كَتَبَ له سليمان بن عبد الملك كتاب الولاية على الجزيرة، مع عَزْل عكرمة الفيّاض عنها، وأمره أنْ يحاسب عكرمة، وإذا وجد عليه فَضْلَ أموالٍ من أموال الْخَرَاج لم يؤدِّها إلى بيت المال، أنْ يطالبه بها، وإذا لم يدفعها، أنْ يحبسه إلى أن يدفعها، وعندما ودّعه قال له: لا تنسَ أنْ تبحث عن جابر عثرات الكرام، وأن تأتيني به متى وجدْتَه. فقال له خزيمة: السمع والطاعة يا أمير المؤمنين.

وعاد خزيمةُ إلى بلده الرقة، وفي اليوم الثاني ذَهَبَ إلى ديوان الوالي عِكْرمة وسلّم عليه، ودَفَعَ إليه كتاب الخليفة سليمان بن عبد الملك بعزله عن ولاية الجزيرة، وتولية خزيمة مكانه.. وعندما قرأ عكرمة الكتاب قال: السمع والطاعة لأمير المؤمنين، وقام من مجلسه وأجلس خزيمة مكانه. فقال له خزيمةُ: أمَرَني أميرُ المؤمنين أنْ أحاسبك، وأنْ آخذ منك الأموال التي لا تزال بذمتك لبيت مال المسلمين. قال عكرمة: السمع والطاعة لأمير المؤمنين. وعندما حاسبه خزيمة وجد عليه فَضْلَ أموالٍ كثيرة مستحقةٍ لبيت المال، فطالبه بها، فقال له: ليس عندي شيء منها لأنني

صرفتُها كلّها على فقراء المسلمين، فقال له خزيمة: إنّ أمير المؤمنين لا يقبلُ هذا الكلام، إمّا أنْ تدفع المال وإما أنْ تُحْبَسَ. قال عكرمة: ولكن ليس عندي الآن مالٌ أدفعه، لذلك أمر الوالي الجديد خزيمة بحبس الوالي القديم عِكْرمة، فأخذوه إلى الحبس.

وفي اليوم نفسه أرسل خزيمة منادياً ينادي بين الناس: مَنْ كان يعرف شيئاً عن جابر عثرات الكرام، فليخبرِ الوالي الجديد وله جائزةٌ كبيرة. ولكنْ لم يقدِّمْ أحدٌ من الناس شيئاً عن جابر عثرات الكرام.

وكان جابر عثرات الكرام هو عكرمة الفيّاض، الوالي القديم نفسه. فإنه عندما سمع من أصحابه ما قالوه في تلك الليلة عن خزيمة، حَزِنَ كثيراً عليه، وعندما ذهب أصحابه إلى بيوتهم، دخل إلى بيته، وفتش فيه فوجد عنده أربعة آلاف دينار، وضعها في كيس، حمله على ظهره وذهب إلى بيت خزيمة.. وعند ذلك شَعَرَتْ امرأته به، فقامت من فراشها، ووقَفَتْ تنتظر عودته خلف الباب.. وعندما عاد تعلّقتْ به وقالتْ له: أين كنت؟! هل تزوجْتَ امرأةً غيري؟! فحلف لها أنه لم يتزوَّج غيرها، ولكنها لم تقتنع، وقالتْ له: لا أتركك حتى تقول لي أين كنت؟ عند ذلك اضطر أن يقول لها: إنه عَلِمَ بإفلاس صاحبه خزيمة وتراكم الديون عليه، لذلك حمل إليه أربعة آلاف دينار ليفي ديونه ويصلح أحواله، وأخبرها أنّه أخفى شخصيته عن خزيمة، وقال له: أنا جابر عثرات الكرام، وذلك لكي لا يحرج صاحبه، ولكي يكسب ثوابَ الصدقةِ الخفيةِ، التي يكون صاحبها يوم القيامة في ظل الله ﷻ، يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه، وهذا ليس بالشيء القليل في يومٍ يكثر فيه الجوع والعطش والعرق والعذاب.

وعندما علمتْ زوجة عكرمة بحبسه، ذهبَتْ إليه في سجنه، وقالتْ له: كيف يحبسك الوالي وأنت جابر عثرات الكرام، الذي أنقذْتَهُ من

مِحْنَتِهِ التي كان فيها؟!.. لذلك سأخبره أنك أنت جابر عثرات الكرام.
فقال لها: إياك أنْ تفعلي ذلك، وتُضيِّعي عليَّ ثواب الصدقة الخفيّة، وإنّ الله سبحانه وتعالى لن يضيعنا.

ومضتْ بضعة أشهر، وعِكْرمة الفياض في الحبس، وزوجتُه تبيع من متاع بيتهم لكي تعيش هي وأولادها، حتى لم يبقَ عندهم شيء للبيع، فذهبتْ إلى زوجها في الحبس وقالت له: ماذا تريدني أنْ أصنع الآن؟! ومِنْ أين نأكل أنا وأولادي ولم يبقَ في بيتنا شيء نبيعه؟! ألا أذهب إلى الوالي وأخبره أنك أنت جابر عثرات الكرام؟! فتوسَّل إليها أن تصبر ولا تفعل، وسيفرجها الله تعالى عليهم.. ولكنها لم تقتنع وخرجت من سجن زوجها إلى ديوان الوالي، وقالتْ للحاجب: أخبر الوالي أن في الباب امرأة تعرف جابر عثرات الكرام.. وعندما أخبر الحاجب الوالي بذلك قال له: أدخلها بسرعة.. فأدخلها، وعندما مثلَتْ بين يديه، سألها: من هو جابر عثرات الكرام؟ فقالت: هو الوالي القديم عكرمة الفياض الذي هو في حبسك الآن، وقالت له: إنه ذهب إليك في يوم كذا، وأعطاك كيساً صفاته كذا، فيه أربعة آلاف دينار.

وعندما تأكَّد خزيمة من شخصية جابر عثرات الكرام، ضَرَبَ جَبِينَه بيده، كيف حبس جابر عثرات الكرام؟! كيف حبس صاحب أكبر فضل عليه؟!.. وقام من فوره وذهب مع زوجة عكرمة إلى حبسه، وفكّ قيده بيده، واحتضنه وهو يبكي ويعتذر إليه عمّا فعله به، وصحبه إلى بيته، وحمل إليه أربعة آلاف دينار من ماله الخاص، وقال له: تجهَّزْ لنذهب سوية إلى أمير المؤمنين بدمشق.

وذهبا معاً إلى دمشق، وعندما دخلا على سليمان بن عبد الملك، قال لخزيمة: لماذا عدْتَ سريعاً إلينا هكذا؛ فأجابه: لقد أتيتُك بجابر

عثرات الكرام كما أمرتَني يا أمير المؤمنين. قال: أين هو؟ ومن هو؟ قال: هذا هو، عكرمة الفياض الوالي السابق على الجزيرة.. فاستدعاه سليمان وأجلسه إلى جانبه، وشكره على صنيعه مع خزيمة، وقال له: لقد أسأنا إليك لأننا ما كنا نعرفك، والآن بعد أن عرفناك، فقد عَيَّنَّاكَ والياً على أذربيجان والجزيرة معاً، وعيَّنَّا خزيمة والياً تحت إمرتك على الجزيرة. وَوَصَلَهُمَا وكَتَبَ لهما كتب الولاية، وأرسلهما إلى ولايتيهما.

العبرة من القصة

الصدقة الخفية تدفع بلايا كثيرة، والخير والمعروف لا يضيعان في الدنيا ولا في الآخرة.

٥٣ الشَّابُّ الفقيرُ والهميانُ(١)

في يوم من ربيع سنة (١٩٧٥م)، جلس إمام مسجد الفرقان بمدينة حلب السورية بعد صلاة المغرب، خلف طاولة خشبية صغيرة، وضع عليها القرآن الكريم، وبعد البسملة والحمدلة والصلاة على النبي ﷺ، فتح القرآن على سورة سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام، وباشر بتفسير آياتها الكريمة حتى وصل إلى الآية الكريمة رقم (٩٠) من السورة؛ وهي: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ قال: سأروي هذه القصة الواقعية فهي أحسن تفسير لهذه الآية الكريمة:

بطل هذه القصة أعرفه شخصيّاً، وعلى حدِّ علمي كان منذ بضع سنوات لا يزال حيّاً يُرزق، يعيش بمدينة بيروت.. هذا الرجل وُلِد بحيّ الميدان بدمشق في سنة (١٨٩٥م)، وتُوفي والداه أبوه وأمه، وهو صغير، ولم يكنْ له أقارب يعيش عندهم، فأخذه جيرانُه إلى بيتهم، وعاش بينهم كواحدٍ من أبنائهم، وفي سنة (١٩١٣م) أراد هؤلاء الجيران الذين يعيش معهم أنْ يذهبوا إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، فتوسَّلَ إليهم أنْ يأخذوه معهم كي يخدمهم في الطريق، ويؤدِّي بدوره فريضة الحج.

وفي ذلك الوقت كانت سورية ولبنان وفلسطين والحجاز كلها تابعة للدولة العثمانية، أما مصر فكان يحتلُّها الإنكليز، ولكنها كانتْ تابعة بالاسم للدولة العثمانية أيضاً؛ لذلك كان السفر بين هذه البلاد كلها يتمُّ دون الحاجة إلى جواز السفر.

---

(١) **الهميان**: هو حزام من الجلد توضع فيه النقود.



وسافر الجيران ومعهم الشاب الفقير من دمشق إلى بيروت بالقطار، وركبوا السفينة من بيروت إلى الحجاز، حيث مَرَّتْ بهم في قناة السويس، ثم سارتْ في البحر الأحمر إلى أنْ وقفتْ في ميناء اليُنْبُع؛ ومن هناك ركبوا الجمال إلى المدينة المنوَّرة، وبعد سبعة أيام وصلوا إلى المدينة المنوَّرة، فزاروا النبي ﷺ، ومكثوا فيها عشرة أيام، ثم سافروا منها إلى مكة المكرَّمة على ظهور الجمال أيضاً؛ وبعد عشرة أيام وصلوا إلى مكة المكرَّمة، فأدّوا مناسك العمرة من طوافٍ وسعي وحلْق.. ثم استأجروا بيتاً ليقيموا فيه ريثما يأتي وقت الحج والصعود إلى جبل عرفات.

وكان الفتى الشابُّ يستيقظ كلَّ يوم قبل الفجر فيتوضأ ويذهب إلى الحرم فيطوف حول الكعبة سبعة أشواط، ثم يصلي صلاة التّهَجُّد إلى أنْ يؤذن الفجر، فيصلي صلاة الصبح جماعةً مع الإمام ثم يعود إلى البيت.. وكانتْ شوارع مكة المكرَّمة في تلك الأيام ضيقةً مظلمة، ليس فيها كهرباء، وكانتْ مفروشةً بالرمال وليس بالزفت، كما هي اليوم.

وفي إحدى الليالي بينما كان الفتى الشاب يمشي في شوارع مكة المكرَّمة، ذاهباً إلى الحرم، عثرت قدمُه بشيء ثقيل، فتناوله بيده، فإذا هو هميان، أيْ: حزام من الجلد، أسود اللون، ثقيل الوزن، تُسْمَعُ منه خشخشة النقود.. فشده حول جسمه تحت ثيابه، وتابع سيره إلى الحرم، لئلا يفوته الطواف وصلاة التهجد قبل أذان الفجر.

وهكذا طاف وصلّى التهجد، كما صلّى الصبح جماعةً مع الإمام. وبعد الصلاة وَقَفَ رجلٌ مصريّ مُسِنٌّ وقال: يا أيها الحجاج ضاع مني هميان فيه ألف دينار، من وجده فليرده عليَّ، وله خمسون ديناراً حلالاً زُلالاً.

فقام الفتى وقال: ما صفات هميانك؟ فأعطاه المصري صفاته؛ وهي مطابقة لصفات الهميان الذي وجده، فقال له: هميانك عندي.. وهكذا

رضي الشاب الصالح بخمسين ديناراً حلالاً، وفضّلها على ألف دينار حراماً، وفضّل الآخرة على الدنيا، ورضا الله تعالى على سخطه، وقال له المصري: لنذهب إذن إلى بيتنا لكي نعدّ الدنانير وأعطيك منها خمسين ديناراً.

وذهبوا إلى بيت المصري، وفي الطريق سأل المصريُّ الشابَّ: هل أنت متزوج؟ فأجابه: لا.. وفي البيت عدّ المصري الدنانير فوجدها ألف دينار لم تنقص شيئاً، فقال للشاب: هذه والله دنانيري لم ينقص منها شيء.. وقدّم للشاب كأساً من الشاي، وبعد أنْ شربها قال له: ما دمتَ لستَ متزوِّجاً ألا ترى أنّ خمسين ديناراً كثيرة عليك، ألا يكفيك ثلاثون ديناراً فقط؟ فغضب الشاب ولكنه كَتَمَ غضبه، وماذا يستطيع أن يفعل؟! لذلك قال للمصري: كما تريد، يكفيني ثلاثون ديناراً.. عندئذٍ قدّم المصري للشاب كأساً أخرى من الشاي، وبعد أن شربها قال له: ما دمتَ لستَ متزوجاً ألا ترى أن ثلاثين ديناراً كثيرة عليك، ألا يكفيك عشرة دنانير فقط؟ فازداد غضب الشاب، ولكنه كتم غضبه وقال للمصري: كما تريد، يكفيني عشرة دنانير.. عندئذٍ أراد المصري أن يقدم للشاب كأساً أخرى من الشاي.. ولكنّ الشاب شعر بأنّ هذه الكأس ستذهب بالدنانير العشرة الباقية، وسيخرج من «المولد دون حُمُّص»، لذلك رفض أن يشربَ الكأس، ولكنّ المصري أصَرَّ عليه حتى شربه.. وعند ذلك قال له المصري: ألا ترى أنني إذا دَعَوْتُ لكَ دعوةً صالحةً بجوار الكعبة المشرّفة، واستجابها الله سبحانه وتعالى، هي خيرٌ لك من كل هذا المال؟ فأجابه الشاب وهو يكاد ينفجر من الغضب، ولكن ماذا يستطيع أن يفعل؟: افْعَلْ ما تشاء، سلَّمتُ أمري إلى الله تعالى.

عند ذلك أخذه المصري من يده، وذهب به إلى حِجْرِ إسماعيل بجوار الكعبة المشرّفة، ودعا له هناك دعاءً طويلاً، لم يسمعْ منه الشابُّ شيئاً

لأنه كان يتميز غيظاً وغضباً، ولكن ماذا يستطيع أن يفعل، وقد أصبحت الدنانير بيد المصري؟!..

وبعد انتهاء الدعاء، أَفْلَتَ الشابُّ يَدَهُ من يد المصري وذهبَ في سبيله يمشي في شوارع مكة المكرَّمة إلى أن هَدَأتْ نفسه قليلاً، فعاد إلى بيت أصحابه، فتلقوه بالسؤال والاستغراب بسبب غيبته الطويلة على غير عادته؛ فقصَّ عليهم قصتَهُ وما حَدَثَ معه في هذا الصباح، وما فعله معه المصري؛ فصاروا يلومونه كيف يُسَلِّم المصري دنانيره قبل أن يأخذ منها خمسين ديناراً؟! ولكنّ أحدهم قال له: لا تحزنْ ولا تغضبْ يا فتى، فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سَيُعَوِّض عليك خيراً منها، لأنه يقول: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يُوسُف:٩٠].

وجاء موعد الحج فذهبوا في اليوم الثامن من ذي الحجة إلى مِنى، وفي اليوم التاسع صَعَدُوا إلى عرفات؛ حيث وقفوا هناك إلى ما بعد مغرب الشمس، فنزلوا من عرفات إلى المزدلفة، ومكثوا فيها إلى ما بعد طلوع الفجر، فذهبوا إلى مِنى ورموا الجمرات خلال ثلاثة أيام، ثم عادوا إلى مكة المكرَّمة وطافوا طواف الحج وسعوا بين الصفا والمروة، ثم طافوا طواف الوداع، وسافروا بعده على ظهور الجمال إلى جدة.

ومن جدة ركبوا السفينة التي ستعودُ بهم إلى مدينة بيروت.. وكانتْ سفن الحجاج عند عودتها تقف في محطة (الطور) بقناة السويس، وينزل الحجاج إلى البر ليمكثوا في المحطة ثلاثة أيام تحت إشراف الأطباء، لكي يروا هل هناك إصابةٌ بمرضٍ وبائي سارٍ بين الحجاج أم لا، وتُسَمّى هذه المحطة: الحَجْر الصحي (الْكَرَنْتِينَا)، وبعد الأيام الثلاثة قال الشاب لأصحابه: إنني أسمع بجمال مدينة القاهرة، وما دمتُ قد أصبحتُ قريباً منها، فإنني أريد أن أذهب إليها من هنا، ثم أعود إلى

دمشق بعد ذلك في مستقبل الأيام؛ وحاول أصحابُه أن يثنوه عن عزمه هذا، ولكنّه أصرَّ على السفر إلى القاهرة، وكأنّ قَدَرَ الله تعالى يسوقه إلى هناك سَوْقاً.

وبعد أن مكثوا ثلاثةَ أيام في الطور، ركب أصحابه السفينة ليذهبوا بها إلى بيروت، ومنها إلى دمشق بالقطار، وركب هو القطار ليذهب به إلى القاهرة.. وعندما وصل إليها ذهب إلى حيّ الحسين، واستأجر غرفة صغيرة بالقرب من مسجد الحسين رضي الله عنه، وصار يشتغل حمّالاً، يحمل للناس متاعهم وماءهم وحاجاتهم، ويصلي الصلوات الخمس جماعةً في مسجد الحسين.

ومضى على ذلك بضعة أشهر، وفي أحد الأيام، بعد أنْ صلَّى العصر جماعةً، وجلس ليقرأ الْوِرْدَ بعد الصلاة، جلس بجانبه شيخٌ مُسِنٌّ وقورٌ وسلَّم عليه وقال له: إنّي أتَوَسَّمُ فيك الخير، فقد رأيتُكَ منذ بضعة أشهر لا تترك صلاة الجماعة في هذا المسجد، ويبدو عليك أنك رجلٌ غريبٌ عن هذه البلدة، فمن أين أنت؟ قال الشاب: أنا من بلاد الشام، وقد حَجَجْتُ في هذه السنة، وفي طريق عودتي من الحج أتيتُ إلى هنا لأعمل وأعيش، فقد أحببتُ هذه البلدة: القاهرة. فسأله الشيخ: هل أنت متزوج؟ قال: لا، لستُ متزوجاً. فقال الشيخ: هل تحبُّ أنْ تتزوج، وأنْ تكسب مع الزوجة البيتَ والعمل؟ قال الشاب: وكيف يكون ذلك، وأنا ليس معي ما أتزوج به؟! فقال الشيخ: يا بني، إني قد توسمتُ فيكَ الخير، ورأيتكَ رجلاً صالحاً يُوثَقُ به، وهذا الزواج لا يكلفك شيئاً؛ فقد كان لي صديقٌ، وكان تاجراً غنيّاً، وكان رجلاً صالحاً، ذَهَبَ إلى الحج في هذه السنة أيضاً، وبعد عودته من الحج مَرِضَ، وتوفي من أربعة أشهر ونصف، وترك زوجةً وبنتاً واحدة، ليس لهما أحد؛ فإذا كنتَ توافق على الزواج من البنت، فإنك

ستسكن معهما في بيتهما، وستعمل في دكان الأب المتوفى، وتصرف عليكَ وعليهما مما يحصل من الربح. قال الشاب: نعم أوافق على الزواج من هذه البنت، جزاك الله تعالى خير الجزاء. فقال الشيخ: إذن نُصَلِّي اليوم المغرب هنا في هذا المسجد، ونذهب بعد الصلاة إلى بيتهما لنخطب البنت إن شاء الله تعالى.

ذهب الفتى وأصلح من شأنه على قدر الإمكان، ولبس ثوباً نظيفاً، وعندما حان موعد أذانِ المغرب، ذَهَبَ إلى مسجد الحسين وصلَّى المغرب جماعةً هناك، وكان الشيخ يصلي هناك أيضاً، وبعد الصلاة ذهبا سويةً إلى بيت صديق الشيخ المتوفى، وكان قريباً من المسجد.. فطرقَ الشيخُ البابَ واستأذَنَ بالدخول، وقال: إنّ معي شابّاً صالحاً، فَسَمَحَتَا لهما بالدخول.. فدخلا، وبعد أنْ جلسا خاطب الشيخ الزوجة والبنت من وراء حجاب، قائلاً: هذا الشابُّ أتَوَسَّمُ فيه الخير والصلاح، فقدْ رأيتُه لا يترك صلاة الجماعة في مسجد الحسين منذ وصوله إلى هذه البلدة؛ وإذا قبلتم به زوجاً، فإنه سيسكن معكم في هذا البيت، وسيعمل في دكان الحجِّيَ رحمه الله تعالى، ويصرف عليكما وعليه ممَّا يحصل من الربح.

فقالت الزوجة: نحن بعد وفاة الحجِّي ليس لنا بعد الله ﷻ أحَدٌ سواك يَرْعَانَا ويرعى مصالحنا، فإن كنْتَ ترى هذا الشاب صالحاً لبنت صديقك المرحوم، وترضى به زوجاً لها، فنحن نرضى به أيضاً.. عند ذلك قال الشيخ: إذن سنذهب الآن لإحضار المأذون والشهود ونعقد العقد في هذه الليلة، فخير الْبِرِّ عاجله.

وذهب الشيخُ والشابُّ وأحضرا المأذون والشهود وعقدوا عقد الشاب على البنت؛ وبعد بضعة أيام، جَهَّزَتِ الفتاةُ خلالها نفسها، صار العرس، ودخل بها الشاب، وانتقل إلى بيت زوجته وأمها ليعيش معهما، وصار يعمل

في دكانهما.. وكان الشاب صالحاً صادقاً مستقيماً، لذلك أحبّه الناس وأقبلوا عليه، وكثر زبائنُه وزادت أرباحُه.

وبعد بضعة أشهر، بينما كان يرتاح في غرفته بعد الغداء، وقد اسْتَلْقَى على قفاه وأخذ ينظر إلى السقف، ويفكر في أحواله، منذ أن كان يتيماً في دمشق، إلى ما صار إليه أمره هنا في القاهرة، ويشكر الله تعالى ويحمده على ما أنعم به عليه، حانت منه التفاتَةٌ إلى نافذة علوية في الجدار، فرأى قطعةً من الجلد الأسود تتدلّى منها، فارتاب فيها، وأتى بكرسي وَقَفَ عليه، ومدَّ يده إلى الجلدة وسحبها، وإذا بها هميان طويل، أسود اللون، ثقيل الوزن، تُسْمَعُ منه خَشْخَشَةُ النقود، فنظر إليه فوجده يشبه الهميان الذي وجده في مكة المكرَّمة، فاندهش واستغرب، ونادى على حماته في الحال، فأتتْ مسرعةً وقالت: ماذا تريد يا بني؟ قال: ما شأن هذا الهميان؟ ولمن هو؟ ومَنْ وضعه هنا؟ فلما رأتِ الهميان في يده ارتبكَتْ، وبَكَتْ قليلاً، ثم جلست وقالتْ له: يا بني، هذا الهميان لعمك والد زوجتك رحمه الله تعالى، وقد كان رجلاً تقيّاً، صالحاً، مُسْتَجَاب الدعوة، ذهب في هذه السنة إلى الحج، وأخذ معه هذا الهميان، احتياطاً، لعلّه يحتاج إليه، لأنَّ سفر الحج طويل كما تعلم، وفي مكة المكرَّمة ضَاعَ منه هذا الهميانُ دون أنْ يشعر به، فنادى عليه، فردّه إليه رجلٌ شاميٌّ، وقد توسَّم عمُّك الصلاحَ والتقوى في ذلك الرجل؛ لأنه لو لم يكن كذلك لما ردّ إليه الهميان، لذلك دعا له في حجر إسماعيل أنْ يصبح صهره لكي يعطيه الهميان كلّه فيكون مُلكاً له.

وعندما عاد عمُّك رحمه الله تعالى من الحج حكى لي هذه القصة، وقال: أنا لا أشك أنّ الله ﷻ سيستجيب لي ويجعل ذلك الرجل زوجاً لابنتي، لذلك سأضع الهميان في هذه النافذة العلوية فإياك أن تلمسيه

أو يلمسه أحدٌ، لأنه ليس ملكنا، وإنما هو ملك ذلك الرجل. ولكنّ الظاهر أنّ الله ﷻ لم يستجبْ دعوةَ عمك هذه المرة، لأن ذلك الرجل لم يأتِ ليتزوج ابنة عمك، وإنما تزوجتَها أنت.

فقال لها: والله يا امرأة عمي أنا ذلك الرجل الذي وجد الهميان وردَّهُ إلى عمي، ودعا لي في حجر إسماعيل، وفي هذا الهميان ألف دينار عدّها عمي رحمه الله تعالى أمامي، ثم أفرغ الهميان أمام حماته وعدّ دنانيره؛ فإذا بها ألف دينار كما كانت! فقال: سبحان الله، والحمد لله الذي لا يضيعُ أجر المحسنين، وقد استجاب الله تعالى دعوة عمي رحمه الله تعالى.

وبعد ذلك توسَّعتْ أعمال الشاب وتجارته حتى أصبح من كبار تجار مصر وأنشأ مصنعاً كبيراً للنسيج.. وعندما صدرت قراراتُ التأميم في مصر، في سنة (١٩٦١م) أمّموا مصنعه وتجارته، فانتقل هو وعائلته إلى بيروت، وأنشأ فيها تجارة وصناعة ناجحة من جديد.

ثم قال إمام مسجد الفرقان: وقد زرتُه ببيروت منذ بضع سنوات؛ حيث كان لا يزال حيّاً يُرْزَق.

العبرة من القصة

إنّ الله ﷻ لا يضيع أجر المحسنين الصالحين، وسينالون جزاءهم في الدنيا ولو بعد حين، كما سينالون في الآخرة الأجر والثواب من الله تعالى ربِّ العالمين.



٥٤ مَدَاسُ أبِي القَاسِمِ

نتيجة البخل

كان يا ما كان، يا قارئين يا كرام، بعد الصلاة والسلام على خير الأنام، وصحابته الكرام.

كان يعيش في مدينة بغداد، في قديم الزمان، رجل اسمه أبو القاسم الطُّنبوري، وكان غنيّاً ولكنه بخيل، لا يشتري لعائلته حاجاتها إلا بصعوبة بالغة، ولا يغيِّر ثيابه إلا إذا أصبحت بالية تماماً[١]، حتى انفضَّتْ عنه عائلته وأصبح يعيش وحده في بيته.. وكان له مَدَاسٌ[٢]، ظلَّ يلبسه سبع سنين، كلَّما تمزق من ناحية وضع عليه رقعة، حتى أصبح مجموعةً من الرقع بعضها فوق بعض، وحتى أصبح ثقيلاً جدّاً، لا يستطيع المشي به إلا بصعوبة، بسبب كثرة الرقع فيه، ومع كلِّ ذلك ما كان يبدله، ولا يشتري مداساً جديداً غيره، على الرغم من سخرية الناس منه، وضحكهم منه ومن مداسه.

دخل أبو القاسم يوماً إلى السوق، فقال له بائع الزجاج (البللور): يا أبا القاسم، قد أتى تاجر من مدينة حلب ومعه زجاجٌ مُذَهَّب جميل، كاساتٌ وقوارير، وقد كَسَدَ عنده هنا، اذهبْ واشتره منه فهو رخيص، وسوف تبيعه بعد مدة قصيرة وتربح به كثيراً، فذهب أبو القاسم واشترى الزجاج بستين ديناراً.

---

(١) يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾ [الأعراف: ٣٢]. ويقول النبي ﷺ: «إن الله يحبُّ أن يرى أثرَ نعمته على عبده» حديث حسن، رواه الترمذي.

(٢) المداس: هو نوع من الأحذية، أو هو الخفّ.

ثم دخل أبو القاسم إلى سوق العطارين، فقال له أحدُ السماسرة: يا أبا القاسم، قد أتى اليوم من مدينة الموصل تاجر معه ماءُ وَرْد فاخر، اذهبْ واشترِه منه، وسوف تبيعه بعد مدة قصيرة وتربح به كثيراً.. فذهب أبو القاسم واشترى ماء الورد بستين ديناراً أيضاً، وملأ قوارير الزجاج التي اشتراها بماء الورد ووضعها على الرفِّ في بيته.

ثم ذهب أبو القاسم إلى الحمام لكي يغتسل، وخلع ثيابه ومداسه ودخل إلى الحمام، فقال له صاحب الحمام: يا أبا القاسم، مداسُكَ هذا قد أصبح بَشِعاً جدّاً وثقيلاً جدّاً، والناس يضربون المثل بمداس أبي القاسم، بسبب بشاعته وكثرة الرقع فيه، بَدِّلْه بغيره يا رجل! فأنتَ رجل غني.. فسكَتَ أبو القاسم ولم يردّ عليه؛ لأنه لا يريد أن يدفع ثمن مداس جديد، وعندما خرج من الحمام وجد مداساً جديداً بجانب مداسه المهترئ، فظن أنَّ صاحب الحمام قد أهداه هذا المداس الجديد، لذلك لبسه وذهب، وترك مداسه المهترئ في الحمام، وبعد قليل خرج من الحمام صاحبُ المداس الجديد وهو القاضي، فلم يجدْ مداسه الجديد، ووجد بدلاً منه مداس أبي القاسم المهترئ، فقال: لمن هذا المداس؟ قالوا: هذا مداس أبي القاسم، لأنَّ كلَّ أهل البلد أصبحوا يعرفونه.

فأرسل القاضي رجاله فأتوا بأبي القاسم وبالمداس الجديد الذي أخذه، واتهمه القاضي بسرقة مداسه؛ لذلك أمر بضربه وحبسه.. عند ذلك كره أبو القاسم مداسه بسبب هذه الإهانة التي سبّبها له؛ وعندما خرج من السجن ذهب إلى السوق واشترى مداساً جديداً رخيصاً، وأخذ مداسه المهترئ ورماه في نهر دجلة لكي يتخلَّص منه، فغاص في الماء إلى قعر النهر بسبب ثقله.

وبينما كان أحد الصيادين يصطاد في نهر دجلة، رمى شبكته، ثم سحبها فأحسَّ بشيء ثقيل فيها، فقال في نفسه: هذه سمكة علقت في الشبكة والحمد



لله تعالى.. ولكنه عندما أخرج الشبكة من الماء لم يجد فيها سمكة كبيرة، وإنما وجد فيها مداس أبي القاسم، فعرفه، لأن كلَّ أهل البلد أصبحوا يعرفون مداسَ أبي القاسم، وقال لنفسه: الظاهر أن مداس أبي القاسم قد وقع منه في النهر، لذلك سوف آخذه له لعلّه يعطيني درهماً أو درهمين.. وأخذ المداس وذهب إلى بيت أبي القاسم فلم يجدْه في البيت، فحمل المداس ورماه من فوق الجدار إلى داخل البيت، فوقع على الرفّ الذي عليه قوارير ماء الورد فانكسر أكثرها، وسال منها ماء الورد على أرض البيت!..

وعندما أتى أبو القاسم ورأى ذلك لطم وجهه وصاح وبكى، فقد خسر ثمن الزجاج وثمن ماء الورد، ورأى مداسه فحمله بيده وقال له: ما الذي أتى بك إلى هنا أيها اللعين؟! ألم أرْمِكَ في نهر دجلة لكي أتخلَّص منك؟! والله لأدفنَنَّكَ في التراب كما يُدْفن الأموات.. ثم أتى بمجرفة وصار يحفر الأرض بجوار حائط الجيران.. وسمع الجيران صوتَ الحفر فظنوا أن أبا القاسم يريد أن ينقب الحائط عليهم، لذلك ذهبوا واشتكوا إلى القاضي، فأرسل القاضي رجاله فأتوا بأبي القاسم، فأمر بضربه وحبسه وتغريمه بعض المال؛ لأنه يؤذي جيرانه.. فأخذ أبو القاسم يلعن هذا المداس الذي سبّب له هذه الإهانات والغرامات.. وحلف أن يهينه كما أهانه.

لذلك عندما خرج من السجن أخذه ورماه في كَنيف[1] الخان، فانسدّ به مجرى الكنيف، وبعد بضعة أيام فاضَ الكنيف وانتشرتِ السوائل والروائح الكريهة، وجاء العمال لينظفوا مجرى الكنيف ويفتحوه، فوجدوا مَدَاسَ أبي القاسم هو الذي سدّ مجرى الكنيف، فذهب أصحاب الخان واشتكوا للقاضي، فأرسل رجاله، فأتوا بأبي القاسم، فقال له القاضي:

---

(١) **الكنيف**: هو المرحاض، أي: مكان التبرز والتبول.

مداسك سدّ كنيف الخان، وقد حكمنا عليك بدَفْعِ تكاليف إصلاح الكنيف، ودَفْعِ تعويض العطل والضرر لأصحاب الخان.

دفع أبو القاسم الغرامة التي عليه، وأخذ مداسه وذهب وهو محتارٌ ماذا يصنع بهذا المداس اللعين الذي سبّب له الإهانة والسجن وخسارة المال؟!.. وأخيراً قرر أن يغسله من القاذورات التي لحقتْ به وأن يرميه على السطح لكي يجفَّ.

وبعد أن رماه على السطح مَرَّ به أحدُ الكلاب فظنه قطعةً من العظم أو الجلد، فحمله بفمه وركض به، وأثناء قفزه من سطح إلى سطحٍ سَقَط من فمه بسبب ثقله، فوقع على رأس رجل كان يمشي في الطريق فجرحَهُ وطرحه أرضاً، فنظر الرجل حوله فرأى مداس أبي القاسم هو الذي أصابه، فأخذه وذهب إلى القاضي، واشتكى على أبي القاسم، فأمر القاضي بإحضاره، فأحضروه، فقال له القاضي: لم يبقَ لنا شغلٌ إلا أنت ومداسك يا أبا القاسم!.. ماذا تريد أن نصنع بك وبمداسك؟! لقد أعييتنا وأتعبتنا.. ادفع لهذا الرجل تكاليف علاجه وتعطله.. فدفعها.

وفي اليوم الثاني عاد أبو القاسم إلى القاضي وهو يحمل مداسه ووضعه أمامه، وقال له: يا سيدي القاضي أنا أشهدك أني بريء من هذا المداس وهو بريء مني، وليست لي أية علاقة به بعد اليوم، خذوه عني واكفوني شرَّه، فقد سبّب لي الإهانة والحبس والإفلاس!.. فضحك القاضي وأمر رجاله أن يأخذوا المداس ويدفنوه في التراب في مكان بعيد.

العبرة من القصة

قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: «البخيل يعيش في الدنيا عيش الفقراء، ويحاسب في الآخرة حساب الأغنياء».. فما أتعسه وما أشقاه! لا تكن يا بني شحيحاً بخيلاً، وكُنْ جواداً كريماً، فإنّ الله سبحانه وتعالى جواد يحبُّ الجود والكرم.



قلبُ الأمّ

مسكينةٌ هي الأم، تُضحّي في سبيل أولادها بالغالي والنفيس، ثم كثيراً ما يتنكرون لها إذا ما شبّوا وكبروا!.. يعيش الولد في بطن أمه تسعة أشهر، يتغذّى من دمها، ثم ترضعه حولين كاملين من لبنها، تقاسمه طعامها، وتظلِّلُ عليه بجسمها، وكثيراً ما يُؤَرِّق ليلَها ببكائه، ويُنَغِّصُ عيشها بصراخه، لا تنام حتى ينام، ولا تفرح إلا إذا كان نشيطاً مسروراً.

لذلك قَرَنَ الله ﷻ رضاه برضا الوالدين، فقال جَلَّ شأنه:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۞ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء:٢٣-٢٤].

وحثَّ النبيُّ ﷺ المسلمين على اكتساب رضا والديهم، فقال عندما سأله أحدهم: يا رسول الله! من أحق الناس بحسن الصحبة؟ قال: **«أمك، ثم أمك، ثم أمك، ثم أباك[١]، ثم أدناك أدناك»**[٢] متفق عليه[٣].

وقال أيضاً: **«رغم أنف[٤]، ثم رغم أنف ثم رغم أنف من أدرك أبويه عند الكبر أحدهما أو كلاهما فلم يدخل الجنة»** رواه مسلم[٥].

---

(١) أي: ثم اصحب أباك.

(٢) أي: ثم الأقرب فالأقرب، أي برّ إخوتك ثم أعمامك وأخوالك وهكذا...

(٣) رياض الصالحين، رقم (٣١٧).

(٤) **رغم أنف:** أي ذلّ وخسر.

(٥) رياض الصالحين، رقم (٣١٨).

وقال أيضاً: «**من أحبّ أن يُبسط له في رزقه**[١]**، ويُنْسَأ له في أثره**[٢]**، فليصل رحمه**[٣]» متفق عليه[٤].

ولكن الإنسان عندما يشبّ ويكبر كثيراً ما ينسى ذلك كله، ينسى أين كان أثناء الحمل، وكيف وُلدَ، وكيف تربَّى وعاش، وينسى كيف أنه كان لا يطيق فراق أمه في صغره، حتى إذا كبر وتزوج بارزها بالإساءة والعصيان.

يُحكى أنّ رجلاً كانت له أمٌّ عجوز، وتزوَّج من فتاة شابة جميلة.. ومنذ أن دخلتْ زوجته البيت كرهتْ أمه، ولم تتحملْها، لا لسبب إلا لأنها عجوزٌ تثرثر كثيراً، وتتكلم بسبب ودون سبب، وتتدخل بكلِّ صغيرة وكبيرة من شؤون البيت، ومن شؤون ابنها صاحب البيت؛ فالزوجة تريد أن يكون هذا البيت لها وحدها لا يتدخَّل في شؤونه أحد، وتريد أن يكون زوجها لها وحدها لا يتدخَّل في شؤونه أحد، حتى ولو كانت أمه، ونسيتْ أن حماتها كانت صاحبة هذا البيت كله، فكيف تزيحها منه دفعةً واحدة؟! وأنّ زوجها هو ابن هذه الحماة، حملتْه في بطنها، وغذّتْه من دمها ولبنها وربَّتْه كل شبر بنذر، كما يقال، فكيف تريد أنْ تستأثر به وحدها، وتقطعه من أمه بتاتاً؟! ولم تفكّر أنها ستصبح في يوم من الأيام حماةً، وتأتيها كنّة تعاملها كما تعامل هي حماتها الآن.

لذلك صارتْ تزنّ في أذن زوجها على أمه، في كلِّ ساعة من ساعات الليل والنهار، حتى جعلتْ حياتَه جحيماً، وحتى جعلتْه يتغير على والدته،

---

(١) أي: أن يزداد ماله.

(٢) أي: أن يطول عمره.

(٣) أي: أن يحسن إلى أقاربه.

(٤) رياض الصالحين، رقم (٣٢٠).

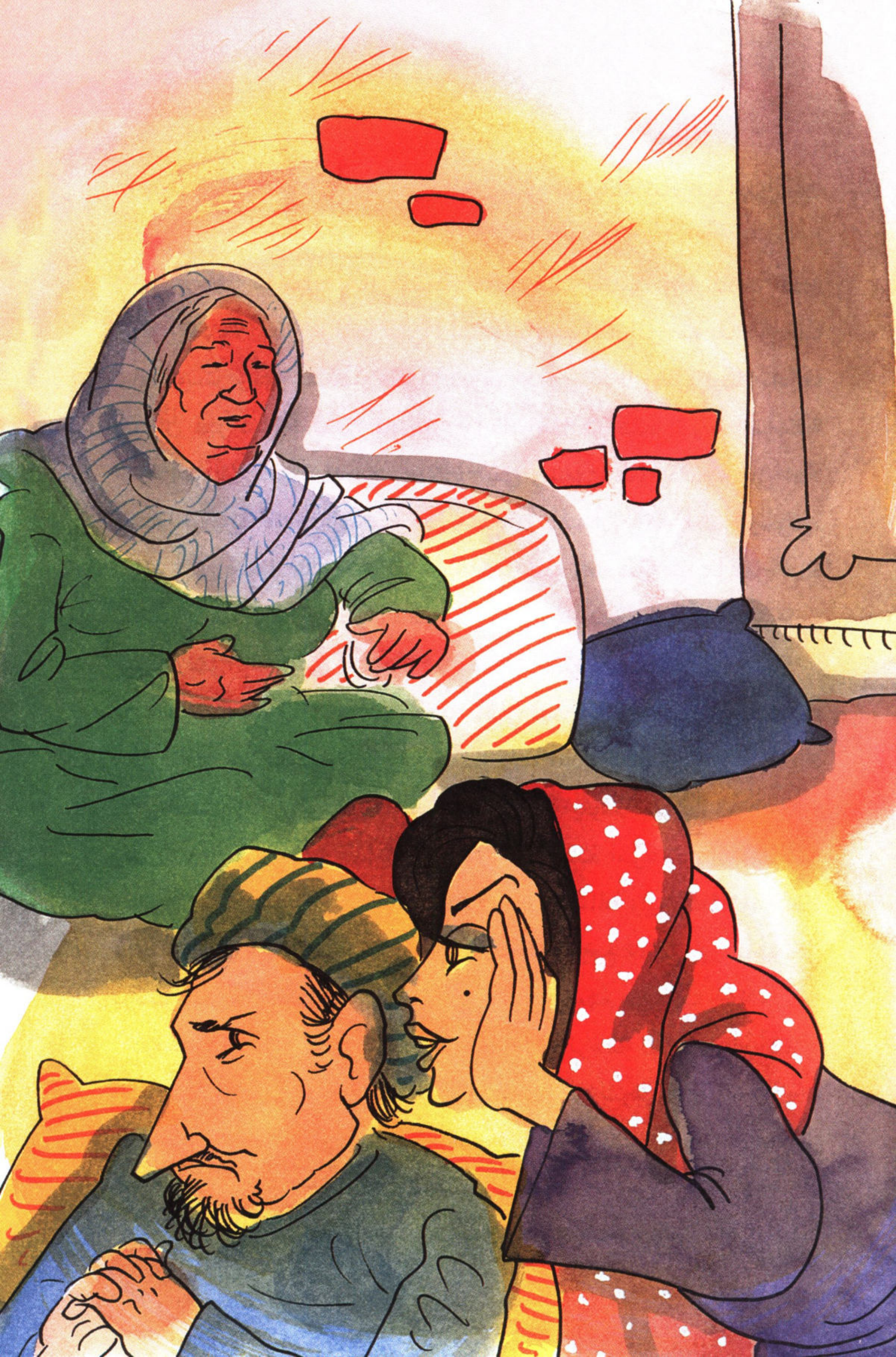
وينسى كيف وُلد، ومن رباه وغذّاه، ومن سهر عليه الليل، ومن كان يرعاه إذا مرض، ويطعمه إذا جاع، كما نسي قول الله ﷻ، وقول النبي ﷺ، في الوصية بالوالدين، ونسي أنّ عقوق الوالدين من أكبر الكبائر[1]، وأنه يستوجب العقاب في الدنيا والآخرة.

نسي هذا كلَّه أمام جمال زوجته ورضاها، فقال لها: ماذا تريدين أن أفعل بأمي؟ قالت له: احملْها في الليل وارمِهَا في البرية حيث توجد وحوشٌ كثيرة، فيأكلها أحدُ الوحوش ونتخلَّص منها، وإذا سُئلْنا عنها نقول: إنها امرأةٌ خَرِفَةٌ، خرجَتْ من نفسها في الليل، ولم نعلم بخروجها إلا في الصباح.

وهكذا طلب الرجل من أمه أن تلبس ثيابها في الليل، فقالتْ له: لماذا يا بني؟ قال: سنذهب أنا وأنت إلى مكان جميل نسهر فيه ثم نعود. فقالت له: ألا تذهب زوجتُكَ معنا أيضاً لتتسلّى معنا؟! حرامٌ أن تبقى وحدها في البيت.. قال: لا، لن نأخذها معنا هذه المرة.. ولبست الأم ثيابها، وخرجت مع ابنها، وهي لا تدري ماذا يُدَبَّرُ لها، وأَمسك ابنها بيدها، وسار بها في اتجاه البرية، حتى أصبحوا بعيدين عن المدينة، وهم يسيرون في برية موحشة وظلام دامس، وحتى صاروا يسمعون عواء الذئاب ونباح الكلاب، فقالت له أمه: إلى أين نذهب يا بني؟ وأين ذلك المكان الجميل الذي حدثتني عنه، فقد أصبحنا في برية موحشة، فيها وحوشٌ كثيرة؟!.. فقال لها: اجلسي هنا يا أمي؛ فجلستْ، وتركها وذهب، فصارت تصيح به وتناديه: إلى أين تذهب وحدك يا بني، لا يأكلك أحد الوحوش، فهنا توجد وحوش كثيرة؟!.. ولكنه لم يرد عليها وتركها وحدها وسار.

---

(١) قال النبي ﷺ: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر، ثلاثاً**، قلنا: بلى يا رسول الله! قال: **الإشراك بالله، وعقوق الوالدين**، وكان متكئاً فجلس وقال: **ألا وقول الزور وشهادة الزور...** فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت» متفق عليه - رياض الصالحين، رقم (١٥٤٨).



وبعد قليل استيقظ ضميرُهُ وإيمانه، وتذكّر قول الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

فندم على ما فعل، وقال لنفسه: ماذا فعلت بأمي؟! وما الذنب الذي أذْنَبَتْهُ معي؟! أهذا جزاؤها مني؟! لذلك عاد أدراجه إلى أمه بعد أن قلب ثيابه، وستر وجهه بالخمار لكي لا تعرفه أمه، وعندما وصل إليها، ناداها بعد أن غيّر صوته: لماذا تجلسين وحدك هنا في هذه البرية الموحشة أيتها المرأة؟ فقالت له وهي تبكي: ابني وضعني هنا وذهب. قال لها: ولماذا تبكين؟ فقالت: ابني ذهب وحده وأخاف أن يأكله أحد الوحوش، لذلك أبكي خوفاً عليه. قال لها: أتخافين عليه وقد فعل بك ما فعل؟! ألا تغضبين عليه وتدعين عليه؟! فقالت: لا، لا، لا أدعو عليه أبداً، إن قلبي لا يطاوعني، إنه ابني، وأنت لا تعرف قلب الأم.

عند ذلك كشف ابنُها عن وجهه وقال لها: أنا ابنك يا أمي، اذهبي معي لنعود إلى البيت الآن، وسامحيني فيما فعلتُه معك..

وعندما وَصَلا إلى البيت، فُوجِئت الزوجةُ بعودة حماتها مع زوجها، ولكنّ الزوج سارع إلى مخاطبة زوجته بقوله: هذه أمي، ولن أتخلى عنها ولا عن رضاها أبداً، وعليك أن تختاري بين رضاها وبين الطلاق.. عند ذلك عادَتِ الزوجةُ إلى رشدها، واختارت العيش مع حماتها ورضاها لكي يرضى الله سبحانه وتعالى عنها وعن زوجها، وعاشوا جميعهم في حبٍّ وسلام.

وهكذا قلبُ الأم يبقى دائماً ممتلئاً بالحب والرحمة للأولاد، ولو أساؤوا إليها، حتى ضُرِبَ بها المثل، فقال الشاعر أحمد شوقي:

وإذا رَحِمْتَ فأنتَ أمٌ أو أبٌ ... هذانِ في الدُّنيا هما الرحماءُ

- يُحكى أنه في زمن سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام، تنازعَتِ

امرأتان في طفل رضيع، كلٌّ واحدة منهما تقول: هذا ابني، أنا الذي حملتُهُ ووضعته وأرضعته، لم يكنْ لأيّة واحدة منهما شهود يشهدون بأنّ هذا الطفل طفلها، وأخيراً تحاكمتا إلى سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام، فسألهما: هل لديهما شهود؟ فقالتا: لا، عند ذلك سَلَّ سيفَه، وقال: سأقسم هذا الطفل بينكما نصفين بهذا السيف، لتأخذ كلٌّ واحدة منكما نصفاً!.. فسكتَت إحداهما، وصاحَتِ الأخرى: كلا يا نبيَّ الله، لا تقسمه، وأعطه كلّه للأخرى؛ فهو ابنها وليس ابني؛ فقال سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام: بلْ أعطيه كلّه لكِ؛ فأنت أمه وليست الأخرى، لأنها لو كانت أمه لخافت عليه أن يموت أو أن يُؤذى.

• ويُحكى أيضاً: أنّ رجلاً كانت له أمٌّ عجوزٌ مُقْعَدَة، لا تستطيع المشي، وأراد أن يحجّ، فطلبَت منه أمّه أن يأخذها معه لتحجَّ هي أيضاً، فلبَّى طلبها، مع أنّه لا يجب عليها الحجّ لأنها مُقْعَدَة، ولكنه لَبَّى طلبها لكي ترضى عنه وتدعو له؛ ولم يكن يوجد في ذلك الزمن سيارات ولا طائرات، ولم يكن مع الرجل ثمن دابّة ليحج عليها هو وأمه، لذلك حَمَلَ أمه على ظهره وسار بها، وكلَّما تعب كان يجلس ليستريح، حتى وصلا إلى مكة المكرَّمة، فطاف بأمه على ظهره حول الكعبة، ثم سَعَى بها على ظهره بين الصفا والمروة، ثم صَعَدَ بها على ظهره إلى مِنَى ثم إلى عرفات، ثم أَفَاضَ بها من هناك على ظهره إلى المزدلفة، ثم إلى منى، حيث رمى عنها الجمرات، ثم ذَهَبَ بها على ظهره إلى مكة المكرَّمة وطاف بها طواف الفَرْضِ، وبعد أن انتهى ذَهَبَ بها إلى أحد الصالحين وقال له: هذه أمي حَمَلْتُها على ظهري من بلدنا إلى هنا، وأدَّيْتُ بها جميع مناسك الحج على ظهري، فهل أدَّيْتُ حقها عليَّ؟ قال الرجل الصالح:

لا يا بني! لم تؤدِّ حقها عليك، لأنكَ حملتَها وأنت كارهٌ لحملها، وتتمنَّى موتها لتتخلَّصَ من مسؤوليتها.. أما هي فكانت تحملكَ وتعطف عليكَ وهي تتمنى سلامتك وطول عمرك.

العبرة من القصة

رضا الوالدين لا يقدَّر بثمن، لذلك أنصحكم يا أبنائي الأعزاء أن تكسبوا رضا والديكم، فهو غالٍ جدّاً؛ لأنه من رضا الله سبحانه وتعالى، وهو سبب سعادتكم في الدنيا والآخرة، فالجنة تحت أقدام الأمهات، والأم تبيع رضاها بالشيء القليل، تبيعه ببضع كلمات معسولة، بالمعاملة الحسنة، بدريهمات قليلة، بل تمنحه دون مقابل أيضاً، فاحصلوا عليه بما تستطيعون، فأنتم الرابحون على كلِّ حال.

٥٦ الزَّواجُ مِنَ الأجْنَبِيَّاتِ غيرِ المُسْلمَاتِ

هذه قصة واقعية، سأرويها كما حدثتْ، لن أبدّل فيها شيئاً، سوى أسماء أبطالها، ولا يزال بطلُها حيّاً يُرزق حتى الآن(١).

آثرتُ أن أرويَ هذه القصة لأبيّن لأبنائنا وشبابنا بعضاً من المآسي والمصائب التي تحدثُ بسبب الزواج من أجنبيات غير مسلمات، مع أن الله ﷻ يقول لنا: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١].

المرأة غير المسلمة عقيدتها غير عقيدتنا، وسلوكها في الحياة غير سلوكنا، وثقافتها وعاداتها غير ثقافتنا وعاداتنا، وإذا حدث انسجام في البدء بين الشاب المسلم والشابة غير المسلمة أدّى بهما إلى الزواج، فسرعان ما تذهب السكرة وتأتي الفَكرة بعد الزواج، وسرعان ما تظهر التناقضات في السلوك والأفكار، وتتحول الحياة إلى جحيم لا يُطاق، ويكون الضحية في أكثر الأوقات هم الأولاد.. أما إذا أسلمت المرأة قبل الزواج عن قناعة واعتقاد وإيمان، لا عن حب في سبيل الزواج، فقد تتحسن الصورة تحسُّناً كبيراً.



---

(١) في سنة (١٩٩٤ م).

لذلك على الشاب المسلم أن يفكّر كثيراً قبل الإقدام على الزواج من فتاة غير مسلمة، وأن يعتبر بغيره، فالعاقل من اعتبر بغيره، والجاهل من اعتبر بنفسه، واعتبر به غيره.

ولكن أنَّى للشاب المسلم أنْ يفكّر ـ إلا مَنْ عَصَمَ الله تعالى ـ إذا أُلْقي في خِضَمِّ المجتمع الغربي الصَّاخِب، المملوء بالمغريات، والمتحلل من القيم والأخلاق، إذا لم يكن أساسُه الإسلاميُّ قويّاً متيناً، وإذا لم يُنَشَّأ تنشئة صالحة تقية، منذ نعومة أظفاره، فالمغريات كثيرة، والنفس أمّارة بالسوء، وشياطين الإنس والجن لا يكلُّون ولا يملُّون.. لذلك على الآباء أن لا يرموا بفلذات أكبادهم في تلك المستنقعات إلا بعد أن يربُّوهم تربيةً صالحة، وإلا بعد أن يزوِّجوهم من بلدهم قبل سفرهم، على أن يصطحبوا زوجاتهم معهم؛ فكلُّ راعٍ مسؤول عن رعيته، ودرهم وقاية خير من قنطار علاج.

الشابُّ صالح، نشأ في بلده من عائلة عريقة غنية، وكان مجتهداً في دروسه، متميِّزاً بين أقرانه، يأتي في الطليعة بين الناجحين في أكثر الأوقات، لذلك كانتْ آمالُه كبيرةً في المستقبل، وكان طموحه أن يصبح طبيباً مشهوراً يُشار إليه بالبنان.

ونجح صالح في الشهادة الثانوية بتفوُّق، وأخذ يفكّر في إخراج طموحه وآماله إلى حيّز التنفيذ، وكان يسمع أنَّ الطب هو أرقى ما يكون في ألمانيا، لذلك أخذ يلحّ على والده لكي يرسله إلى ألمانيا ليدرس الطب هناك؛ ويعود إلى بلده طبيباً مشهوراً، يُشار إليه بالبنان، فيفتخر به بين الناس، إذ يقولون: هذا فلان ابن فلان.. ولم يفكّر بما سيحدث له في هذا المجتمع الغريب، كما لم يحاول تزويجه قبل سفره ليحصنه تجاه المغريات.

وسافر صالح إلى ألمانيا، ممتلئاً نشاطاً وحماساً، وعزماً على أن يكون من الطلّاب المتفوقين، وعلى أن يصبح من الأطباء المشهورين.

تسجَّل صالح في البدء في معهد للغة، لكي يدرس اللغة الألمانية ويتْقنها قبل التحاقه بالجامعة، وبعد مضي سنة على الدراسة في هذا المعهد أتقن اللغة الألمانية، فتسجَّل في كلية الطب.

وتابع دراسته في كلية الطب بكل همّة ونشاط، وكان من المتفوِّقين فيها، ولكنّ الدراسة طويلة في كلية الطب تستمر سبع سنوات على الأقل، والمغريات في ألمانيا كثيرة، والأبواب مفتوحة، والحريات مكفولة، والنساء كثير، والرجال قليل، بعد أن حصدتْهم الحربُ العامة، وصالح في فورة الشباب، لذلك وجد نفسَه مُنْسَاقاً للتزوج من فتاة ألمانية جميلة، وضعها القدرُ في طريقه، والزواج على كلِّ حال خيرٌ من الانغماس في الرذيلة والموبقات[1].

وعاش صالح مع زوجته أياماً هنيئة سعيدة، وأنجب منها ولداً وبنتين، وأكمل دراسة الطب، ونجح بتفوُّق حتى على الطلاب الألمان الذين يعدّون أنفسهم فوق الجميع.. ولم يكتفِ صالح بذلك، بل سجَّل نفسه في الدراسات العليا لكي ينال الاختصاص بالأمراض الداخلية، ويعود بعد ذلك إلى بلده مزْهُوّاً على أقرانه؛ فهو قد نال شهادة الاختصاص بالطب من أعظم مصادره وأقوى ينابيعه، من أشهر جامعات ألمانيا.

وأمضى صالح ثلاث سنوات أخرى في دراسة الاختصاص حتى نال شهادته، وامتدتْ مدة غيابه عن أهله ووطنه عشر سنين، كان خلالها في غاية الشوق إليهم، يعدُّ الساعات والدقائق لكي يعود إليهم.. لذلك كان يوم حصوله على شهادة الاختصاص يوم عيد عنده، وما أن تناولها بيده حتى

---

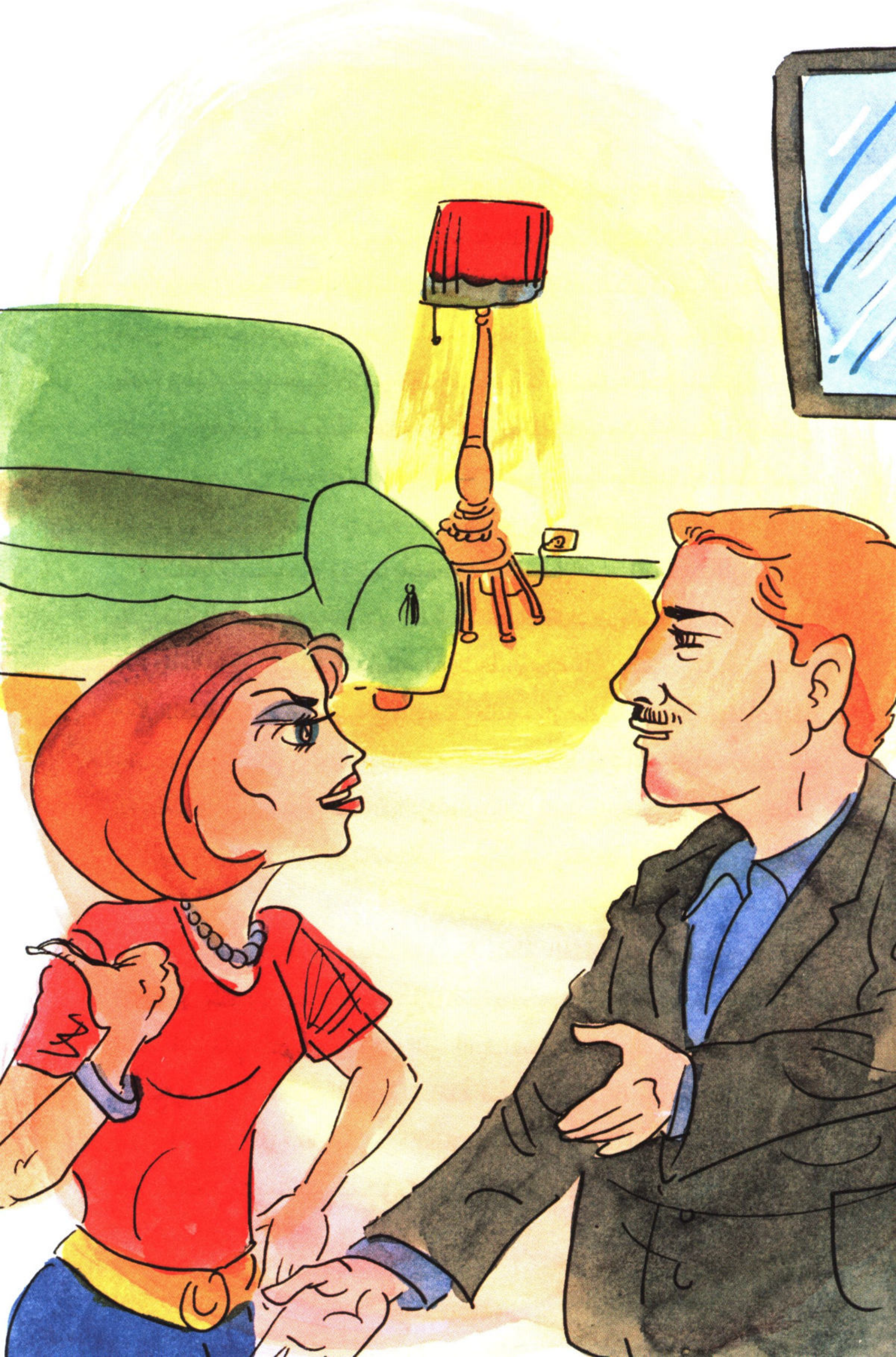
(١) **الموبقات**: المهلكات من الأمراض وغيرها.

أسرع بها إلى زوجته وأولاده، وما أن دخَلَ البيت حتى صار يلوِّح بها بيده، ويقول لهم: وأخيراً تحقَّقَ حلمي الكبير، ونلْتُ شهادةَ الاختصاص من أشهر جامعات ألمانيا، وحَانَ وقتُ سفرنا إلى أهلنا ووطننا.. وكان يقول ذلك وهو في غاية السعادة والفرح والسرور.. وإذا به يُفَاجأ بزوجته تصرخ به وتقول: أيُّ سفر؟! وأيُّ أهل ووطن هذا الذي تتحدَّثُ عنه؟! نحن أهلنا هنا، ووطننا هنا، وكيف نترك هذا البلد الراقي، ونذهب إلى بلدك المتخلِّف؟! وكيف أتركُ أنا عملي هنا - وكانت تعمل في إحدى الشركات - وأذهب إلى بلدك؟!.

وصُدِم صالح بهذا الموقف غير المنتظر، وقال لها: ألم نَتَّفقْ قبل الزواج على العودة إلى بلدي متى أنهيتُ الاختصاص؟! ثم إنّ بلدي ليس متخلِّفاً كما تقولين، صحيح أنه ليس متقدِّماً كألمانيا، ولكنه ليس متخلِّفاً على كلِّ حال.. ولكنها أصرّتْ على قولها، وقالت له: إذا كنتَ تريد أن تسافر فسافر وحدك! قال: والأولاد؟ قالت: لا علاقة لك بالأولاد، هؤلاء ألمان، ويجب أن يبقوا هنا، فقال لها: كيف لا علاقة لي بهم وهم أولادي؟!.. وسكت على مَضَض.. وصار في كلِّ يوم يعاود الكرة عليها لعلّها تلين، ويقول لها: كيف تحكمين قبل أن تذهبي وتشاهدي بنفسك؟! اذهبي وانظري ثم احكمي بعد ذلك.. وهكذا إلى أنْ لانَتْ وقبلَتْ بالسفر معه هي والأولاد.

وفي بلده استقبله أبوه وأهله بالترحاب بعد طول الغياب، واشترى له والدُه بيتاً في أرقى أحياء البلد، وجَهَّزَ له عيادةً في أكبر شوارعها.. وتدفَّق المرضى على عيادته لأنه كان موفَّقاً في تشخيصه ومعالجته.

وعاش سعيداً في عمله، ولكنه شقيٌّ في البيت، فما أن يدخلُ البيتَ في كلِّ مرة حتى تصرخ فيه زوجته قائلة: أنا ما عدْتُ أطيق العيش هنا، أنا أعيش في سجن، أنا أريد العودة إلى ألمانيا؛ وحقّ لها ذلك، فهي لا



تستطيع التكلم باللغة العربية جيداً، والناس في الأسواق وغيرها لا يفهمون غير العربية، وصحيح كان هناك بعضُ الزوجات الألمانيات اللائي عُدْنَ مع أزواجهنَّ بعد انتهاء دراستهم في ألمانيا، وكانت تتبادل الزيارة معهنَّ، ولكن ذلك لم يكن كافياً في نظرها، وكان الفَرْقُ واسعاً بين بلدها وبين بلد زوجها، من حيث الأسواق والمؤسسات والمنتزهات والحريات وكلِّ شيء... وهكذا أصبحَتْ حياة الدكتور صالح في بيته جحيماً لا يُطاق، حتى عرض على زوجته أن تعود وحدها إلى ألمانيا، ولكنها رفضَتِ العودة إلّا مع أولادها.

وعندما يئسَتْ من زوجها أخذت تخطِّط بالخفاء للهرب بالأولاد، ولم يكن ذلك صعباً، لأنَّ الدكتور صالح كان مشغولاً في عيادته في الصباح والمساء، ولم يكن يخطر بباله أن تلجأ زوجته إلى ذلك.

لذلك استولتْ أولاً على جواز سفرها وجواز سفر أولادها، وخبّأتها في حقيبتها دون علم زوجها؛ وكَلَّفَتْ إحدى معارفها من الألمانيات المقيمات في دمشق أن تشتري لها تذاكر سفر إلى ألمانيا، على أن يكون السفر بطائرة الخطوط الجوية الألمانية، وأن يكون موعد السفر في منتصف النهار.

وفي اليوم الموعود، هيأت لزوجها طعامَ الفطور في الصباح، وطلبتْ منه أن يشتري لها بعض الأشياء عند عودته من العيادة، زيادَةً في التَّعْمِيَة، ولكي يتأخر وصوله إلى البيت بعض الشيء.. وذهب الدكتور صالح إلى عيادته في الساعة الثامنة صباحاً كعادته، وما أن غادر البيت حتى اتصلَت الزوجة بمركز انطلاق السيارات، وطلبت سيارةً حملتْها مع أولادها إلى مطار دمشق، وفي منتصف النهار طارت بهم الطائرة الألمانية إلى ألمانيا.

وفي الساعة الواحدة بعد الظهر عاد الدكتور صالح إلى البيت فلم يجد أحداً، ونادى على زوجته وأولاده فلم يردَّ عليه أحدٌ؛ فاحتار في أمره، أين ذهبوا؟ وأخيراً سأل الجيران عنهم، فقالوا له: رأينا زوجتك وأولادك يركبون سيارةً، ومعهم حقائِب السفر، بعد ذهابك إلى العيادة، ولا ندري إلى أين ذهبوا.. فأدرك الدكتور صالح اللعبة، وفتّش عن جوازات سفر زوجته وأولاده فلم يجدْهَا! عند ذلك اتصل بمطار دمشق فأخبروه بأن طائرة ألمانية قد أقلعت منذ ساعة تقريباً، فطلب منهم أن يعطوه أسماء ركَّابها، فأعطوه أسماءهم، وإذا بينهم أسماء زوجته وأولاده، فحزن كثيراً، وبكى، وندم كيف لم يراقبهم مراقبة جيدة، ولكن ما عاد يفيد الندم.

وأخيراً قَرَّر السفر إلى ألمانيا والالتحاق بزوجته وأولاده هناك؛ فأغلق عيادته، واشترى تذكرة سفر، وسافر إلى ألمانيا، وذهَبَ إلى بلد زوجته وسأل أهلَها عن بيتها الجديد فدَلُّوه عليه، وذهب إليه، فاستقبله أولاده بالفرح والسرور، واستقبلتْهُ زوجتُهُ بالفتور.

وعاتب زوجته على هربها بالأولاد، وقال لها: كنتِ أخبريني أنّكِ مصرَّةٌ على العيش في ألمانيا، لكي أُهَيِّئَ نفسي وأسافر معكم، ونعيش كلنا هنا في ألمانيا..

وعاش مع زوجته وأولاده، وعاد إلى وظيفته في المستشفى الذي كان يعمل فيه قبل عودته إلى سورية.. وكانت زوجتُه قد عادت أيضاً إلى وظيفتها في الشركة التي كانت تعمل فيها قبل سفرها إلى سورية مع زوجها.

وأخَذَ الدكتور صالح يتودَّدُ إلى الأولاد كثيراً، ويأخذهم إلى النزهة كلَّ يوم بالسيارة.. أما الزوجة فكانت مشغولةً أكثر يومها في الشركة، ولا تستطيع التفرُّغ للأولاد والخروج معهم إلا في يومي العطلة الأسبوعية: السبت والأحد.

وقرر الدكتور صالح أن يعامل زوجته كما عاملتْهُ، وأن يهرب بالأولاد كما هربتْ هي بهم، وأخذ يخطّط لتنفيذ ذلك.. فتّش أولاً عن جوازات سفر الأولاد حتى وَجَدَها، ولكنَّه لم يمسَّها بل تركها في مكانها إلى حين الحاجة، ودرس المسافة بين البلد التي هم فيها وبين الحدود، وكم تستغرق من الوقت بالسيارة.. وحدّد في فكره يوم السفر..

وفي اليوم المعيَّن، بعد أن ذهبَت زوجته إلى عملها في الشركة في الصباح، حَمَلَ أولادَهُ في السيارة وقال لهم: سنذهبُ اليومَ إلى النزهة طول النهار، وسأريكم أمكنةً جميلةً لم تروها قبل اليوم ولم يأخذ معه شيئاً من الحقائب والثياب لئلا يثير شكوك الجيران والأولاد.. وسار مسرعاً بالسيارة نحو الحدود حتى وصلها وقطعها بسلام، عند ذلك فقط اطمأنَّ قلبُهُ وارتاحت نفسه، واشترى بعض الثياب له ولأولاده، وقال لهم: أنتم سوريون عَرَبٌ مسلمون، يجب أن تعيشوا في بلدكم سورية، ولستم ألماناً لكي تمضوا حياتكم في ألمانيا.. فبكى الأولاد أولاً، لأنهم يريدون أمهم معهم، ثم سكتوا.. وتابعوا سيرهم حتى وصلوا إلى بلدهم في سورية.. فوضع أولادَهُ عند أهله لكي يشرفوا عليهم؛ وفتح عيادته، وأخذ يعمل في الصباح والمساء كما كان سابقاً.

أمّا الزوجةُ فإنها عندما عادت من عملها في المساء إلى البيت في ذلك اليوم، لم تجد أحداً، فسألَتِ الجيران عن زوجها وأولادها فقالوا لها: إنهم ذهبوا بالسيارة إلى النزهة منذ الصباح، فقالت في نفسها: ما هذه النزهة طوال النهار؟! واتصلت بالمستشفى الذي يعمل فيه زوجها، فقالوا لها: إنه لم يأتِ إلى المستشفى اليوم.. فساورتْها الشكوك، وبحثَتْ عن جوازات سفر أولادها فلم تجدها، فأدركَتْ عند ذلك أنَّ زوجها قد هَرَبَ بهم.. ونَدِمَتْ كيف اطمأنَّت إلى زوجها ولم تراقبْهُ مراقبةً جيدة!.. وأسرعَتْ إلى الاتصال بالمطارات القريبة من بلدها، فنفوا أن تكون أية طائرة قد سافرت اليوم

إلى سورية، فلجأت إلى الاتصال بالشرطة وأعطتهم أوصاف سيارة زوجها، وطلبَتْ منهم الاتصال بمراكز الحدود لمعرفة فيما إذا كانت قدِ اجتازت الحدود أم لا.. وجاءها الجوابُ بعد مدة من الزمن بأن هذه السيارة التي أعطتهم أوصافها قد اجتازَت الحدود منذ بضع ساعات.

عند ذلك تأكَّدتْ أن زوجها وأولادها قد أفلتوا منها، وأنهم في طريقهم الآن إلى سورية، وقررت أن تلحقهم إلى هناك، ليس سريعاً، ولكن بعد تفكير وتدبير وروية.. واتصلت بوزارة الخارجية الألمانية، وحكتْ لهم قصتها، وهرب زوجها بأولادها إلى سورية، وطلبتْ منهم أن يأمروا السفير الألماني بدمشق أن يمنح أولادها جوازات سفر ألمانية، وأن يساعدها على إخراجهم من سورية إذا طلبت منه ذلك.. وأخذت بعد ذلك تستعد للسفر إلى سورية، وسافرت إلى هناك على إحدى الطائرات الألمانية.

وذهبت إلى مدينة زوجها، ذهبت أولاً إلى بيتهم فلم تجد فيه أحداً، فذهبت إلى عيادة زوجها فوجدتْهُ هناك يعاين المرضى، فعاتبته لماذا فعل هذا، ولو أنه أخبرها لأتت معهم طائعةً مختارةً، فلم يصدقها ولكنه سكت.. وسألته عن الأولاد، فقال: هم عند أهلي.. وذهبَتْ معه إلى بيت أهله، فاستقبلوها بالترحيب واستقبلها الأولاد بالفرح والسرور، وبعد بضعة أيام طلبت من زوجها أن يعودوا إلى بيتهم، وأفهمته أنها قَرَّرَت العيش معه ومع أولادها في سورية، وأنها لن تعود إلى ألمانيا أبداً.. وانتقلوا إلى بيتهم ليعيشوا فيه كما كانوا من قبل.

واتخذ الدكتور صالح كلَّ الاحتياطات لكي لا تهرب بالأولاد مرة أخرى، فأتلف جوازات سفر الأولاد، وطلب من الجيران أن يخبروه حالاً إذا رأوها تركب سيارةً هي والأولاد، كما كان يتصل من عيادته بالبيت عدة مرات في اليوم، ليتأكَّد من وجودها فيه.

وبقيتْ هي مدة سنة كاملة تُبْدي الفرح والسرور بحياتها الجديدة، لم تذكر أثناءها بلدها ألمانيا ولا مرة واحدة.. حتى اطمأنَّ إليها زوجُها، وبدأت رقابتُه تتراخى، وبدأت اتصالاتُه بالبيت تقلّ شيئاً فشيئاً حتى انقطعت.. عند ذلك أخذت تخطط للهرب؛ فاتصلت بالسفير الألماني ليرسل لها جوازات سفر للأولاد مع إحدى معارفها الألمانيات، فأرسلها لها.. ثم اشترتْ تذاكر السّفر، وفي اليوم الموعود، بعد أن ذهَبَ زوجها إلى عيادته، تسَلَّلَتْ من البيت هي والأولاد، دون أن يراها الجيران، ودون أن تحمل معها حقائب سفر، ودون أن تطلب سيارةً، وذهبت هي والأولاد إلى مركز انطلاق السيارات حيث استأجرت سيارةً نقلتهم إلى مطار دمشق، وهناك ركبوا طائرة الخطوط الجوية الألمانية التي نقلتْهم إلى ألمانيا.

وعندما عاد الدكتور إلى البيت لم يجدْ فيه أحداً، وسأل الجيران فقالوا له: لم نرها، ولم نعلم عنها شيئاً.. وسأل معارفها الألمانيات زوجات زملائه الأطباء فنفوا علمهنَّ بها.. وقال لنفسه: إذا كانت هربتْ بالأولاد فكيف خرجت بهم دون جوازات سفر! ثم اتصل بالمطار بدمشق ليتأكّدَ من ذلك، فقالوا له: إنّ طائرة ألمانية قد غادرت المطار منذ قليل، وسألهم عن أسماء الركاب فكان من بينهم اسم زوجته وأولاده.

عند ذلك أصيب بالصدمة والإحباط، فكيف حدث هذا على الرغم من كل الاحتياطات؟! وقرر التفكير بهدوء لمعرفة ما يجب عليه عمله.

وأخذ يشيع في بلده أنه يريد تصفية أعماله في بلده لكي يلتحق بزوجته وأولاده ويعيش معهم نهائيّاً في ألمانيا، وعَرَضَ عيادَتَهُ وبيتَه للبيع، ثم باعهما بيعاً صوريّاً ـ أي: غير حقيقي ـ وكان يعلم أن كل هذه الأخبار تصل إلى زوجته عن طريق الزوجات الألمانيات اللائي يعشن في سورية مع أزواجهنَّ السوريين.

وبعد ذلك اشترى تذكرة السفر، وسافر إلى ألمانيا، وذهب إلى بلد زوجته، وكان عتاب وكلام، ثم صلح وانسجام. وقال لها: لقد قطعت كلَّ صلتي بسورية، وبعتُ بيتي وعيادتي، وجئتُ لأعيشَ بقية عمري معكم هنا في ألمانيا، فقالتْ له: إنني أعرف كلَّ ذلك.. وعاد إلى وظيفته في المستشفى.

وعاشوا جميعاً بضعة أشهر في ودٍّ وانسجام، وحبٍّ واتفاق، رأى خلالها أنّ الرقابة عليه صارمة، من قِبَل زوجته وأهلها ومعارفها؛ وأنه لا يستطيع عمل شيء أو التصرف بشيء.

وفي أحد الأيام ذهب الدكتور صالح إلى مستشفاه، وزوجته إلى عملها في الشركة، ولكنها لم تعد في المساء، وسألوا عنها في الشركة فقالوا لهم: إنها لم تأتِ اليوم إلى عملها، عند ذلك أخبروا الشرطة لكي تفتش عنها.. وفي اليوم الثاني وَجدَتْهَا الشرطةُ مقتولةً في إحدى ضواحي البلد، عند ذلك اتهم أهلُها زوجَها بقتلها بسبب خلافهما على السفر والأولاد.

وأخذوا الدكتور صالح إلى السجن رهن التحقيق، وكان هناك أَضْيَعَ من الأيتام في مأدبة اللئام، لم يسألْ عنه أحدٌ، ولم يدافع عنه أحد.. لم تستطع المحكمةُ أن تثبت التهمةَ عليه؛ لأنها لا تملك الدليل القاطع على ارتكابه الجريمة، كما أنها لم تبرئه وتفرج عنه، لأنه لم يكن هناك من يدافع عنه؛ ولبث في السجن بضع سنين.

وأخيراً سافر إلى ألمانيا أحدُ زملائه الأطباء الذين درسوا معه في ألمانيا، ووكَّل له أحد كبار المحامين، وتَتَابَعَتْ جلساتُ المحاكمة.. ولم يستطع محامي أهل الزوجة إثبات التهمة على الدكتور صالح، فاضطرت المحكمة إلى تبرئته والإفراج عنه تحت إلحاح محاميه وحججه الدامغة.

وخرج الدكتور صالح من السجن، وعاد إلى بلده وحيداً.. وَضَاعَ الأولاد.

وعاد إلى عمله وعيادته، وتزوج امرأة من أهل بلده، ورزق منها الأولاد، وعاشوا في حب ووئام.

هذه قصة واحدة من قصص كثيرة عن زواج الأجنبيات، فليعتبر من كان ذا عقل وفهم، فالعاقل من اتعظ بغيره، والجاهل من اتعظ بنفسه، واتعظ به غيرُه.

يا أيها المسلمون! لا ترسلوا أولادكم إلى ديار الغرب وترموا بهم في جحيمه قبل أن تحصِّنوهم بالعلم والفقه والزواج من المسلمات.

٥٧ العَبْدُ الكَذَّابُ

الكذب من أخطر الآفات التي تُصيب المجتمع، لأنّه يقلب الحقائق، ويخدع الناس، ويضيِّع الحقوق، ويهدي إلى الفجور.. لذلك قال النبي ﷺ: **«إنّ الصدق يهدي إلى الْبِرّ، وإن الْبِرّ يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يُكتب عند الله صِدِّيقاً؛ وإنّ الكذب يهدي إلى الفجور، وإنّ الفجور يهدي إلى النار، وإنّ الرجل ليكذب حتى يُكتب عند الله كذّاباً»** متفق عليه[١].

والكذبُ من صفات المنافقين، فقد قال النبي ﷺ: **«آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وَعَدَ أخلف، وإذا اؤتمن خان، وإنْ صام وصلَّى وزعم أنه مسلم»** متفق عليه[٢].

كان يا ما كان، يا قارئين يا كرام، بعد الصلاة والسلام على النبي خير الأنام وصحابته الكرام.

كان يوجد تاجر غنيّ[٣]، وأراد أن يشتريَ عبداً يخدمه في بيته ودكانه؛ وكان أَسْرَى الحروب يُباعون في الزمن القديم، كما تُباع جميع الأشياء؛ لذلك ذهب ذلك التاجر إلى سوق العبيد ليشتري عبداً.

---

(١) كتاب: رياض الصالحين، رقم (٥٤).

(٢) كتاب: رياض الصالحين، رقم (٢٠٠).

(٣) وردت هذه القصة مختصرة في كتاب: الكبائر، للذهبي.

وفي السوق طلب من تاجر العبيد عبداً نشيطاً قويّاً ذكيّاً، فقدم له تاجر العبيد عبداً شابّاً، قويَّ الجسم، جيد الصحة، متين الأعضاء، وقال له: إنّ هذا العبدَ ذكيٌّ، قويٌّ، يعرف القراءة والكتابة، كما يعرف عدة مهن أُخرى، ولكنّ فيه عيباً واحداً؛ فسأله التاجر: ما هو هذا العيب؟ قال: له يومٌ واحدٌ في السنة كلها يكذب فيه. قال التاجر: يومٌ واحدٌ في السنة أمر هيّنٌ بسيطٌ لا يؤثر فيه.. واشتراه من تاجر العبيد ودفع له ثمنه، وأخذه معه.

لقد استهان التاجر بأمر هذه الكذبة في السنة، وسنرى ما ستكون النتيجة.

صار العبد يخدم سيده التاجر في بيته ودكانه بكلِّ همة ونشاط، وذكاء وإخلاص، حتى راجَتْ تجارةُ التاجر، وازدادَتْ أرباحه بفضل هِمّة هذا العبد وإخلاصه.. فإذا احتاج التاجر لكتابة شيء كتبه له العبد، وإذا احتاج لقراءة شيء قرأه له العبد، وإذا احتاج لشراء بضاعة اشتراها له العبد بأقلِّ الأسعار، وإذا احتاج لبيع بضاعة؛ باعها له العبد بأعلى الأسعار، كما استقامتْ أمور البيت أيضاً، فإذا احتاج الأمر لإصلاح شيء خشبي أو حديدي أصلحه العبد؛ فهو نجار وحداد، وإذا احتاج لخياطة شيء خاطه العبدُ فهو خياط أيضاً.

وهكذا حتى أُعْجِبَ التاجرُ بهذا العبد أيَّما إعجاب، ووثق به كلَّ الثقة، وحمد الله تعالى على شرائه، ونسي العيب الذي فيه.. وجاء اليوم الذي سيكذب العبد فيه.

في صباح ذلك اليوم ذَهَبَ العبدُ إلى بيت سيده، وقال لزوجة التاجر: إني أريد أن أقولَ لك خبراً وإن كان سيئاً، ولكن حرصي على مصلحتك يدفعني إلى قوله؛ لعلّك تتداركين الأمر قبل فوات الأوان؛ قالت: وما هو هذا الخبر، قلْ وأسرعْ؟ قال: سيدي يحبُّ امرأةً أخرى، وقد اتفقا على الزواج بعد بضعة أيام، فيجب أن تتداركي الأمر قبل فوات الأوان.



ولما كانت المرأةُ ـ بصورة عامة ـ تُصدِّقُ بسرعة إشاعة زواج زوجها عليها، ولما كانت زوجة هذا التاجر تثقُ بهذا العبد كلَّ الثقة، كثقة زوجها به، لذلك صدّقَت ما قاله العبد لها، وقالت له: ما العمل؟ وكيف أستطيع منع ذلك؟ قال: إني أعرف السحر أيضاً، فإذا أردْتِ منع ذلك، ما عليك إلا أن تحلقي بضع شعراتٍ من رقبة زوجك بموسى الحلاقة وهو نائم،

دون أن يشعر، وأنا أصنع بها سحراً يجعله يكره تلك المرأة ولا يتزوج بها أبداً.. فوافقت زوجة التاجر على ذلك.

ثم ذهَبَ العبدُ بعد ذلك إلى دكان سيده، واقتربَ منه وأَسَرَّ له في أذنه قائلاً: إني أريد أن أقولَ لك خبراً وإن كان سيئاً، ولكنّ حرصي على مصلحتك وحياتك يدفعني إلى قوله.. قال التاجر: وما هو هذا الخبر؟ قال العبدُ: إني علمْتُ أنّ زوجتك تحبُّ رجلاً آخر، وتريد أنْ تتزوج منه، وبما أنهما لا يستطيعان الزواج إلا بعد موتك، لذلك اتفقا على أن تذبحك زوجتُك الليلةَ بموسى الحلاقة، لكي تتخلَّص منك، وتتزوج من الرجل الذي تحبه، لذلك فعليك بالحذر، ووالله لا يدفعني إلى قول ذلك إلا حبي لك وحرصي على سلامتك وحياتك.

وعندما سمع التاجر ذلك، استغرب هذا القول كثيراً، فهو يعرف إخلاص زوجته له وحبّها له، وهو يلبِّي لها طلباتِها كلَّها، فلماذا تخونه؟! وقال في نفسه: سوف لن أنام هذه الليلة لكي أتأكَّد من صحة هذا القول، وكان التاجر قد نسي العيبَ الذي في العبد، وأنّ له يوماً في السنة يكذب فيه، وذلك بعدما رأى من صِدْق العبد وإخلاصه وأمانته.

وفي المساء ذهب التاجر إلى بيته، وبعد العشاء ذهَبَ إلى فراشه للنوم، ولكنّه لم ينمْ، بل تَظَاهر بالنوم، وكان من عادة زوجته أن تذهب للنوم أيضاً عندما يذهب هو، ولكنها لم تفعل هذه المرة، وظلّت جالسةً، تصلح ثوباً لها، فارتاب الزوج في الأمر، وتظاهر بالنوم، وصار يشخر شخيراً عالياً، لكي تعتقد زوجتُهُ أنّه قد نام نوماً عميقاً.

وعندما سمعت الزوجةُ هذا الشخير اعتقدتْ فعلاً أنَّ زوجها قد نام نوماً عميقاً، فَرَمَتِ الثوبَ من يدها، وقامتْ بهدوء على رؤوس أصابعها، وكان زوجُها يلاحظها بعينه المفتوحة قليلاً، فرآها تذهب إلى الخزانة

التي في الجدار وتفتحها، وتخرجُ منها موسى الحلاقة، وتفتحه، وتتقدّمُ نحو زوجها بهدوء على رؤوس أصابعها؛ فأيْقَنَ الزوج بصدق قول العبد، وقال في نفسه: يا لها من زوجة خائنة فاجرة.

وعندما وصلت الزوجة إلى فراش زوجها، ومدَّتْ يدَهَا إلى عُنُقِهِ، هَبَّ الزوج في وجهها وهو يصيح: يا خائنة، يا فاجرة، يا كلبة، تريدين أن تذبحيني لتتزوجي من عشيقك، بعد كلِّ المعروف الذي صنعتُه معك؟!..

وأمسكَ بيدها؛ فَفُوجِئَتِ الزوجة، وارتاعَتْ، وارتبط لسانها، وسقط الموسى من يدها، فتناوله الزوج وهو في ثورة غضبه وانفعاله، وذبحها به.

واستيقَظَ الأولاد على الضَّجَّة فجاؤوا يتراكضون إلى غرفة والديهم، فرأوا أمهم مذبوحة، فأخذوا يصيحون ويُوَلْوِلُون، فسمعهم جيرانُهُم وهم أهلُ الزوجة، فأتوا مسرعين إلى بيت التاجر، ولما رأوا ابنتهم مذبوحةً والموسى بيد الزوج، هجموا عليه وأخذوه منه، وذبحوه به.

وهكذا، بسبب هواية هذا العبد اللعين بالكذب في يوم من أيام السنة، وبسبب استهانة التاجر بهذا العيب، حدثت فتنةٌ كبيرةٌ، قُتِلَ فيها الزوجُ والزوجةُ، وتيتّم الأولاد وانخرب البيت، وسيق الجيران إلى المحاكم والسجون.

العبرة من القصة

إياكم يا أولادي والكذب، فإنه من أكبر الكبائر، فهو يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار، وحَبْلُ الكذب قصير، سرعان ما ينكشف، فينقلب الربح الذي يأمل فيه قائله إلى خسارةٍ كبيرةٍ في الدنيا، وفي الآخرة عذابٌ شديد.. وعليكم بالصدق؛ فهو يهدي إلى الْبِرّ، والبر يهدي إلى الجنة، وفي الصدق النجاة في الدنيا، وحسن الثواب في الآخرة.



٥٨ أَيْنَ العَدْلُ(١)؟

يُرْوَى أنَّ سيدَنَا موسى عليه وعلى نبينا الصلاةُ والسلامُ، سَاحَ مرةً في الأرض حتى وَصَلَ إلى عَيْنٍ من الماء، فتوضَّأَ وصلَّى ما شاءَ اللّٰهُ تعالى أنْ يصلي، ثم ذَهَبَ إلى كَهْفٍ صغير في سَفْحِ الجبل لِيَسْتريح فيه، وجَلَسَ هناك في الظِّلِّ، وعَيْنُ الماءِ أمامه، وأخَذَ يُرَاقِبُ ما يجري على مَسْرَحِ الحياة.

بعد بُرْهَةٍ مِنَ الزمن ظَهَرَ من بعيد فارسٌ على فرسه، وهو يتَّجِهُ إلى عَيْن الماء، حتى وصَلَ إليها، فنزلَ عَنْ فرسه وتركها لِتَرْعَى حَوْلَ العين، وسيدنا موسى عليه السلام يراه، وهو لا يَرَى سيدنا موسى، ونَزَعَ ثيابَهُ، وكان حَوْلَ وَسَطه حزامٌ من جلدٍ فيه مالٌ، نَزَعَهُ أيضاً وَرَمَاهُ بينَ العشب الطويل إلى جَانِب ثيابه، ونَزَلَ إلى العَيْنِ فاغْتَسَلَ وَتَبَرَّدَ، ثم صَعَدَ فَلَبِسَ ثيابَهُ ورَكِبَ فرسَهُ، وذَهَبَ، وقد نَسِيَ حزَام المال.

وبعدَ بُرْهَةٍ أخرى ظهَرَ راعِي غَنَم يسوقُ غنمه نحو العين، حتى وَصَلَ إليها فَسَقَى غنمه، واغتَسَلَ وتبرَّدَ، ثم ساقَ غنمه ليذهَبَ فعثرَتْ رجلُهُ بِحِزَام المال، فنظر حوْلَهُ ليرى هل له صاحِبٌ، فلم يَرَ أحداً فأَخَذَهُ وانصرف.

وبعد بُرْهَةٍ أخرى أيضاً ظَهَرَ من بعيد شيخٌ كبيرٌ يمشي بِبُطْءٍ وهو يَتَوَكَّأ على عصاه حتى وَصَلَ إلى العين، فشَرِبَ منها وغَسَلَ وجهَهُ ويديه، ثم جَلَسَ بالقرب منها ليستريح.

---

(١) وردتْ هذه القصةُ في أول كتاب: عجائب المخلوقات، للقزويني رحمه الله تعالى؛ كما ورد شبيهٌ لها في كتاب: الأربعين في أصول الدين، للإمام أبي حامد الغزالي رحمه الله تعالى، عند كلامه عن الرضا بالقضاء، في الأصل التاسع، ص ١٩٦.



وعند ذلك ظَهَرَ الفارسُ الأولُ من بعيد، وهو يركُضُ بفرسه نحو العين حتى وَصَلَ إليها فَنَزَلَ عن فرسه وأخَذَ يبحثُ بين العشب عن حِزَامِه،

فلم يجدْهُ، ورأى الشيخَ جالساً فاتجه إليه وسألَهُ عن الحزام، فقال له: أنا لم أَرَ شيئاً، ولكنَّ الفارسَ لم يقتنعْ وقال له: لا يوجَدُ هنا أحدٌ غيرك، وحزامي كان هنا، فأينَ أخْفَيْتَهُ؟ ورَفَعَ عصاه ليُهَدِّدَهُ بها، فوقَعَتْ على رأسِ الشيخ فسَقَطَ مَغْشِيّاً عَلَيه، وما لبث أنْ ماتَ، فخافَ الفارسُ وركبَ فرسَهُ وفَرَّ هارباً.

مَرَّ كلُّ ذلك أمامَ سيدنا موسى عليه السلام في بُرْهَةٍ قصيرةٍ من الزمن، فصَاحَ في نفسه: أينَ العدلُ؟ ثم توجَّهَ إلى ربه فناجاه وقال: يا ربّ! أين العدل؟ فارسٌ يضيِّعُ مالَهُ، وراعٍ يأخُذُ ما ليس له، وشيخ كبيرٌ يفقدُ حياتَهُ دون ذنبٍ، فأينَ العدل يا ربِّ؟!..

فأوْحَى اللّه سبحانه وتعالى إليه: يا موسى! لقد حَكَمْتَ بالظاهر، ولو اطَّلَعْتَ على الْغَيْبِ لعلمتَ أنَّ العدلَ هو في ما حَدَثَ. قال: وكيفَ ذلك يا ربّ؟ قال تعالى: الراعي له في ذِمَّةِ الفارسِ مبلغٌ من المال أجرة رَعْيه غنمه يعادِلُ المبلغَ الموجود في الحزام، والفارسُ يماطِلُ في دفعه له، والآن أخَذَ الراعي حقه. وهذا الشيخُ كان قد قَتَلَ في شبابه والِدَ هذا الفارسِ دون أنْ يراه أحدٌ أو يعلم به أحد، والآن مات على يَدِ ابن الشخص الذي قتله في شبابه؛ فهل في كلِّ ذلك شيء من الظلم، أم هو العدل بعينه؟..

فقال سيدنا موسى عليه السلام: اللّهم لا عِلْمَ لنا إلا ما علمتنا، إنَّك أنتَ السميع العليم، وأنتَ الحقّ المبين، ولا اعتراض لأحد على حكمك.

العبرة من القصة

علينا ألا نَتَسَرَّعَ في الحكم على ظَوَاهِرِ الأشياءِ قبل مَعْرِفَةِ حَقِيقَتِهَا.

٥٩ الدُّعَاءُ مُفرِّجُ الكُرُوْبِ

قصة أبي مِعْلَق رضي الله عنه واللص

يقولُ اللّه سبحانه وتعالى في القرآن الحكيم: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].
وقال أيضاً عز وجل: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢].

لذلك فإنَّ اللّه سبحانه وتعالى يستجيبُ الدعاءَ إذا صَدَرَ من قلب مؤمن، تقيٍّ، مخلصٍ، متذللٍ، متضرِّعٍ، مظلومٍ، مستغيثٍ برحمة اللّه تعالى.

وقد قالَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «الدعاءُ هو العبادة» حديث حسن صحيح[1]؛ وفي روايةٍ أخرى: «الدعاءُ مخُ العبادة»[2]؛ لأنه يُجَسِّدُ عبودية المرء لربه واحتياجه إليه، وتوكله عليه.

من أجل ذلك كلّه كان الدعاء مُفَرِّجاً للكروب، إذا استوفى شروطَهُ المطلوبة.. ولعلّ قصة أبي مِعْلَق رضي الله عنه أكبر دليل على ذلك.

وقد روى هذه القصة ابنُ أبي الدنيا في كتابه (مُجَابو الدَّعوة)[3]، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وهي كما يلي مع تصرُّفٍ في الشرح والكلام:

الصحابيُّ أبو مِعْلَق رضي الله عنه عنه كان متوسِّطَ الحال، يعملُ في التجارة، يشتري ويبيع، وما يُحَصِّلُه من الربح كان يُنْفِقُهُ على عياله وأولاده، وكان أحياناً إذا كَسَدَتْ بضاعتُهُ في بلده يحملها على دابته ويَجُوبُ بها القُرَى

---

(١) رواه أبو داود والترمذي. رياض الصالحين، رقم (١٤٦٥)، وجامع الأصول، رقم (٧٢٣٥).

(٢) رواه الترمذي. جامع الأصول، رقم (٧٢٣٧).

(٣) كتاب: مجابو الدعوة،، لابن أبي الدنيا، الطبعة الأولى، سنة (١٤٠٦هـ. ١٩٨٦م)، دار الكتب العلمية، ص٦٤-٦٥؛ كما ورد ذكرها أيضاً في: أسد الغابة، لابن الأثير: ٦/٢٩٥؛ وفي كتاب: الإصابة، لابن حجر العسقلاني: ٤/١٩٢.

ليبيعَها لسكانها الذين يَصْعُبُ عليهم السفر إلى المدينة ليشتروا حاجاتهم منها.

وفي إحدى المرات حَمَلَ بضاعَتَهُ البسيطةَ على دابته وراحَ يَجُوبُ بها القرى ويبيعُ منها إلى الذين يحتاجون إليها، إلى أن باعها كلها، وحقّقَ بها ربحاً لا بأسَ به، حمدَ اللّه تعالى وشكَرَهُ عليه، وَوَضَعَ مَالَهُ في وَسَطِهِ واتجه عائداً إلى بلده لينفِقَ منه على عائلته وأولاده الذين كانوا بانتظاره يتسَقّطُونَ أخبارَهُ وينتظرون عودَتَهُ بفارغ الصبر، بعد أن طالَ غيابُهُ ونَفِدَ المالُ الذي تركَهُ لهم لينفقُوهُ على معيشتهم، وأخذوا يستدينون من أقاربهم وجيرانهم ومَعَارِفِهم إلى حين عودته.

وأَخَذَ أبو مِعْلَق رضي الله عنه يحثّ دابتَهُ على السير لكي يصِلَ إلى بلده في أقصر مدَّةٍ ممكنة؛ لكي يرى أهلَهُ وعيالَهُ؛ فقد زادَ شوقُه إليهم بعد أن طالَ غيابُهُ عنهم.

وكانَتِ الجزيرةُ العربية ـ في ذلك الوقت ـ تنعَمُ بالأَمْنِ والأمان، بعد أن انتشر فيها الإسلام، وعمَّ قراها ومدنَها وقبائلها، وبعد أَنْ توعَّدَ اللّهُ سبحانه وتعالى الذين يقطعون الطريقَ ويُفْسِدُون في الأرض بأَنْ تُقَطَّعَ أيديهم وأرجلهم مِنْ خِلاَفٍ وأن يُنْفَوا من الأرض.

ولكنَّ الأرضَ لم تَخْلُ من النفوسِ السيئة الشرِّيرة في يوم من الأيام، حتى في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، وفي زمنِ صحابته الكرام، مع أنّ قرنَهُمْ كان خيرَ القرون، لأنّ الشيطانَ لم يَمُتْ منذ أَنْ نَزَلَ إلى الأرض، وسيبقى حيّاً إلى يوم القيامة، وهو يُوحِي إلى أعوانه من ذوي النفوس الشِّريرة زُخْرُفَ القول غُروراً، ويُمَنِّيهم بالغِنَى والمال، والجاه والسلطان، ويُزَيِّنُ لهم الفواحِشَ ما ظهر منها وما بطن، ويُغْرِيهم بارتكاب الحرام والمنكرات، وبخاصة إذا كانوا بعيدينَ عن أعين الناس، ولكنَّ عينَ اللّهِ سبحانه وتعالى لا تغفَلُ ولا تنام.



وبينما كان أبو مِعْلَق رضي الله عنه يجوب الْفَيَافي والقِفَار[١] مُسْرِعاً في العَوْدَةِ إلى بلده وأهلِه وأولادِه، كانَ هناكَ رجلٌ آخر مِنَ الأَعْرَاب، مِنْ ذَوِي النفوسِ الشِّرِّيرَةِ، الذين استولى الشيطانُ عليهم، وعشَّشَ في عُقُولهم وقلوبهم، وزيَّنَ لهم طريقَ الشرِّ والرذيلَةِ والحرامِ، فأخذُوا يُفْسِدُونَ في الأرض، يقتلونَ ويَنْهبُون ويَسْرقون، ويعيشون على الحرام مما ينهبون ويسرقون.

كانَ في تلك الْفَيَافي والقِفَار طريقان: طريقُ الخير يسيرُ عليه أبو مِعْلَق رضي الله عنه يَبْغِي الحلالَ ويكسبُ الحلالَ ويعيشُ بالحلال، وطريق الشرِّ يسيرُ عليه أَحَدُ أعْوَانِ الشيطانِ مِنَ الأَعْرَابِ يَبْغِي الحرامَ ويكسبُ الحرامَ ويعيشُ بالحرام.. وتَقَاطَعَ الطريقان في نقطة الالتقاء عند الشجرة.

وَجَدَ أبو مِعْلَق رضي الله عنه في طريقه شجرةً كبيرةَ الأغصانِ وَارِفَةَ الظِّلالِ، وكانَ قد أَتْعَبَهُ السيرُ السريعُ، فَوَقَفَ تحت الشجرةِ ونزلَ عن دابته لينالَ قِسْطاً من الراحة. وَرَبَط دابته بالشجرة، وأخرجَ مِنْ رَحْلِه قُرْبَةَ ماءٍ فشربَ منها وتوضأ وصلَّى، ثم أخرجَ مِنْ رَحْلِه أيضاً بِضْعَ تمراتٍ، أكلها وحمدَ الله تعالى وشكرَهُ على ما تفضَّلَ به وأَنْعَم، ثم اضطجعَ ليستريحَ فأخذَتْهُ غَفْوَةٌ من النّوم.

في هذه اللحظةِ وَصَلَ عَوْنُ الشيطانِ مِنَ الأَعْرَاب إلى الشَّجَرَةِ، وَنَظَرَ فَوَجَدَ دَابَّةً مربوطةً بالشجرة وعليها متاع، وَوَجَدَ رجلاً نائماً تحت الشجرةِ وبجانبه سلاحه، سيفُهُ وقوسُهُ ونبلُهُ، فأَسْرَعَ في الاستيلاءِ على السِّلاح، السيفِ والقوسِ والنبلِ أولاً، ثم شَهَرَ سيفَهُ وصَاحَ بالرجلِ النائم، فهَبَّ أبو مِعْلَق من نومِهِ مذعوراً، ونظر حولَهُ فرأى رجلاً شاهِراً سيفَهُ، فأَهْوَى بيدِهِ إلى جانبه ليلتقط سيفَهُ وسلاحَهُ فلم يجد شيئاً، وضحِكَ الرجلُ

---

(١) الفيافي: جمع فَيْف وفَيْفاء. والقِفَار: جمع قَفْر، وهي الأرض الصحراء الخالية.

الواقفُ أمامه شاهراً سيفه، وقال له: إنّ سلاحَكَ أصبح تحتَ يدي، وقد أصبحْتَ الآن دون سلاح، كما أصبح متاعك ودابتك لي، والآن أَخْرِجْ ما معكَ من المالِ قبلَ أنْ أضربَ عنقَكَ بهذا السيف.

ولم يكنْ أبو مِعْلَق جباناً، ولكنّه بعد أن فَقَدَ سلاحَهُ، وأصبحَ السلاحُ كلّه بيد ذلك الرجلِ الشيطان، ماذا يستطيعُ أن يفعلَ غيْرَ الامتثال؟! لذلكَ أخرجَ مالَهُ مِنْ وسطه ووَضَعَهُ بين يَدَي الرجل، وهو يقول: هذا كلُّ ما معي مِنْ مال؛ فأخذَهُ الرجلُ ثم قال: والآن استعدّ للموتِ فإني سأقتلك. فقال له أبو مِعْلَق ﵁: ولماذا تقتلُنِي يا رجل وقد أخذتَ دابتي وكلَّ سلاحِي ومتاعِي ومالي؟! وفي بلدي زوجةٌ وأولادٌ صغارٌ ينتظرونني، أليسَ عندكَ رحمة؟! ألستَ مسلماً؟! فأجابَهُ الرجلُ: إنني لا أفهمُ شيئاً مما تقولُ، ولا بُدّ مِنْ قَتْلِكَ لأنني إنْ تركتكَ حيّاً فإنّكَ ستخبرُ عني، فيقطعونَ يدي ورجلي من خلافٍ وينفونَنِي من الأرض. فقالَ له أبو مِعْلَق: أقسِمُ لكَ إنني لن أخبرَ عنكَ، وأنا لا أعرفكَ فكيفَ أخبرُ عنك؟! اتْركْنِي لزوجتي وأولادِي الصغار، إن لم ترحَمْني فارحمْ أولادِي فليس لهم أحدٌ سواي!.. فصاحَ الرجل: كَفَى ثرثرةً وكلاماً، لا بد من قتلكَ فاستعدّ لذلك.

فلما رأى أبو مِعْلَق ﵁ الجِدَّ في قوله قال له: إذا كان لا بُدَّ من قَتْلِي فَدَعْنِي أُصلّي ركيعات قبل قتلي، سنّها لنا خبيبُ بن عدي ﵁[1] عندما قتلَهُ كفارُ قريش وأقرَّهُ النبي ﷺ فأصبحَتْ سنَّةً. فقالَ له الرجل: صَلِّ ما شئتَ فأنا بانتظارِكَ، وجلسَ غير بعيد عنه يراقبه وبيده سيفه.

---

(١) **خبيب بن عدي** ﵁: أسره مشركون من قبيلة هُذَيْل عند ماء (الرجيع) بين عَسْفَان ومكة المكرَّمة في أواخر السنة الثالثة للهجرة، وباعوه إلى أولاد الحارث بن عامر بن نوفل من قريش ليقتلوه بأبيهم الحارث الذي كان خبيب قد قتله يوم بدر، وعندما أرادوا قتله طلب منهم أن يصلي ركعتين، فسمحوا له، وقد أقر النبي ﷺ ذلك فأصبحت سنة لمن يراد قتله أو إعدامه.

وقام أبو مِعْلَق إلى قربته فتوضأ منها، وأخَذَ يصلي أربع ركعاتٍ بتذلُّلٍ وخشوعٍ، واستغاثةٍ وخضوعٍ، ولسانُ حاله يقول: أمَّنْ يجيبُ المضطرَّ إذا دعاه ويكشفُ السوء، يا حيُّ يا قيُّومُ برحمتكَ أستغيثُ فإني مظلوم.

وفي السجدة الأخيرة[١] من صلاته دَعَا بهذا الدعاء ثلاثَ مراتٍ متواليات: «يا ودودُ، يا ودودُ، يا ودودُ، يا ذا العرشِ المجيد، يا فَعَّالٌ لما يريد، أسألكَ بعزِّكَ الذي لا يُرام، ومُلْكِكَ الذي لا يُضام، وبنوركَ الذي ملأَ أركانَ عرشِكَ، أن تكفِيَنِي شرَّ هذا اللص، يا مغيثُ أغثني، يا مغيثُ أغثني، يا مغيثُ أغثني».

وما أكْمَلَ المرةَ الثالثةَ من الدعاءِ حتى سمعَ جَلَبَةً[٢] من بعيدٍ وصوتَ حَوافِرِ جوادٍ يعدو نحوهم بسرعةٍ كبيرة، وصوتَ شخص يقولُ: نُصِرْتَ يا عبدَ الله، فرفَعَ رأسَهُ ونظر أمامه فرأى فارساً يعدو نحوهم على فرسِهِ، وبيده حربةٌ قد وضعها بين أُذُنَيْ فرسِهِ، وبسرعَةِ السّهْم وَصَلَ إليهم وطعَنَ اللصَّ بالحربة في صدْرِهِ فخرجَتْ تلمعُ من ظهره فخرَّ ميتاً على وجهه.. وعند ذلك أسرعَ أبو مِعْلَق ﵁ صلاته وسلَّم منها، وقامَ فتعلَّقَ بالفارسِ وقال له: مَنْ أنتَ يرحمكَ الله؟ لقد أنقذتني من موتٍ أكيدٍ على يدي هذا اللصّ اللعين. فأجابَهُ الفارسُ: أنا مَلَكٌ من السماء الرابعة، عندما دعوتَ في سجودِكَ المرةَ الأولى اهتزَّتِ السماء، وعندما دعوتَ المرةَ الثانية حدثت قعقعةٌ ارتجَّتْ لها السماء، وعندما دعوتَ المرة الثالثة استأذنتُ ربي أن أنزلَ لِنُصْرَتِكَ فأذِنَ لي.. ثم طلبَ أبو مِعْلَق الرجلَ فلم يجدْهُ فقد اختفى فجأة كما ظهر.

ويقولُ ابنُ أبي الدنيا في تَعْلِيقِهِ على هذه القصة: كلُّ إنسان مظلوم

---

(١) في الحديث النبوي: **«أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء»** رواه مسلم . رياض الصالحين، رقم (١٤٩٨).

(٢) **الجلبة**: الصياح والصخب.

ومَطْعَمُه حلالٌ ومشربه حلال[١]، يُستجابُ دعاؤه إن شاء اللهُ تعالى ما لم يدعُ بإثم أو بقطيعة رحم.

ويقولُ العلماءُ: لِقَبُول الدّعاءِ شروطٌ في الأزمنة والأمكنة والأشخاص: فَيُقْبَلُ الدعاءُ في ليلةِ القدرِ، ويوم عرفة، وشهرِ رمضان، وليلةِ الجمعة ويومها، وفي جوفِ الليل وخاصةً في الثلث الأخير منه، وعند الأذان، وبين الأذان والإقامة، وعند الإقامة، وبعد الصلاة المكتوبة، وفي السجود، وقبل السلام من الصلاة، وعند تلاوة القرآن، وعند الصفِّ للجهاد في سبيل الله تعالى، وعند شرب ماء زمزم، وعند رؤية الكعبة، وعند نزولِ الغَيْثِ.

ويُقْبَلُ الدعاءُ في البيتِ الحرام، وعلى جَبَلِ عَرَفَات، وعند الصَّفَا والمروة، وعند رمي الجمار، وعند تقبيل الحجر الأسود، وفي المُلْتَزَم (بين الحجر الأسود وباب الكعبة)، وفي حِجْر إسماعيل، وفي الطوافِ، وعند الركن اليماني، وفي مَقَام إبراهيم، وفي المَسْعَى، وفي المزدلفة، وفي الحرم النبوي، وعند قبر النبي ﷺ، وفي الروضة، وفي البقيع، وعند استقبال القبلة.

ويُقْبَلُ دعاءُ المضطرّ والمظلوم، والوالدين والولد البارّ، والإمام العادلِ والرجلِ الصالح، والصائم حين يفطر، والمسافر والتائب من الذنب، ودعاء المسلم لأخيه المسلم بظهر الغيب، كلّ ذلك بشرط أن يكون المطعم حلالاً والمشربُ حلالاً والملبس حلالاً، وألا يدعو بإثم أو بقطيعة رحم.

وإذا قُبِلَ الدعاءُ إمّا أنْ يُعَجَّلَ في الدنيا، أو يُدَّخَر إلى الآخرة، أو يُصْرَف عن الداعي مِنَ السوءِ ما يماثله.

العبرة من القصة

الدعاء يفرِّجُ الكروبَ إذا تحققَتْ شروطه.

---

(١) ذكر النبي ﷺ: «الرجلَ يطيلُ السفرَ، أشعث أغبر، يمدّ يديه إلى السماء، يقولُ: يا ربّ يا ربّ، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذي بالحرام، فأنّى يُستجاب له» رواه مسلم، كتاب الزكاة: رقم (١٨٥).

٦٠ الخَيَّاطُ المِسْكينُ (١)

ذكر القاضي أبو الحسن محمد بن عبد الواحد الهاشمي، عن شيخ من التجار، قال: كان لي على بعض الأمراء في بغداد مالٌ كثير، فماطلني ومنعني حقِّي، وجعل كلَّما جئته أطالبه حجبني عنه، وأمر غلمانه بإيذائي، فاشتكيتُ إلى الوزير فلم يفدْ شيئاً، واشتكيتُ إلى أولياء الأمر من الدولة فلم يفيدوا شيئاً أيضاً، فأَيِسْتُ من المال، وجلستُ كئيباً محزوناً، أندب حظي وأجترُّ آلامي، وإذا برجلٍ من أصحابي يسألني عن سبب حزني واكتئابي، فأخبرته بخبري مع ذلك الأمير، وكيف أكل أموالي، ولم تُجْدِ معه جميع الشكاوى والتوسُّلات، ففكَّر صاحبي قليلاً ثم قال: هل أتيتَ فلاناً الخياط؟ قلت: لا، لم آتِهِ، وما عسى الخياط أن يفعل مع هذا الأمير الذي عجز عنه الوزراء ورجال الدولة كلُّهم؟!.. قال: أنا أنصحك أن تأتيه، لعلّه يستطيع أن يحصِّل لك مالك. قلت: أين أجده؟ قال: هو إمام المسجد الذي يقع بالقرب من قصر الخليفة المعتضد.. صلِّ عنده وقصَّ عليه قصتك.

---

(١) كتاب البداية والنهاية؛ لابن كثير: ٨٩/١١، وسير أعلام النبلاء، للذهبي:٤٧١/١٣ بتصرّف.

يقول التاجر: ذهبتُ إلى المسجد المذكور، وأنا أقدّم رِجلاً وأؤخّر أخرى، فماذا يستطيع خياطٌ مسكين، إمام مسجدٍ، أن يصنع مع أميرٍ عاتٍ ظالم؟! وصليتُ في المسجد، وبعد الصلاة اقتربتُ من الإمام، فوجدتُه شيخاً ضعيفاً مسكيناً!.. سلمتُ عليه، وسألته: هل أنت الخياط فلان؟ قال: نعم، ما شأنك؟ فسكتُّ، وصرت أفكّر: أهذا الشيخ المسكين الضعيف يستطيع أن يستخلص لي حقي من ذلك العاتي الجبار؟!.. وهممتُ أن أسلّم عليه وأنسحب بسلام خشيةً من أن أورِّطه في شيء لا طاقة له به. ولكن صوته رنّ في أذني مرة ثانية: ما شأنك أيها الرجل؟ فقصصتُ عليه قصتي كلَّها مع ذلك الأمير الظالم، وكنت أتوقع أن يقول لي: لا طاقة لي به.. ولكنني فوجئتُ به يقول لي: دُلَّني على بيته. فقلت له: يا شيخنا إن عنده غلماناً أتراكاً أشداء، أخشى أن يؤذوك، وأنت لا تتحمَّل ذلك. قال: قلت لك: دلَّني على بيته، ولا شأن لك بي بعد ذلك.

فسلمتُ أمري إلى الله تعالى، وذهبتُ معه ودللته على بيته، فتقدم هو وطرق الباب، وتواريتُ أنا بالجدار خوفاً من أن ينالني شيء من الأذى، وفتح غلامٌ الباب، فلما رآه الخياط، قال له: أبلغ سيدك أن الخياط فلاناً بالباب يريد أن يراك، فلم يمضِ إلا قليل حتى خرج الأمير مرحّباً ومسلّماً، وقال للخياط: تفضَّل يا سيدي إلى الداخل، ما وقوفك هنا؟ فأجابه الخياط: لا أريد الدخول، وإنما جئتُك في حاجة لتقضيها. فقال: حاجتك مقضية، قلْ ما هي؟ فناداني الخياط، فظهرت أمام الأمير، ولما رآني اصفرَّ وجهُهُ، وتلعثم لسانه. فقال له الخياط: هذا الرجل له حق عندك؛ فأدِّ إليه حقَّه كاملاً الآن. فأخذ الأمير، يبربر بنعم، وأمرك، وحالاً، والآن، وسألني: كم لك عندي؟ فقلت له: كذا وكذا من آلاف الدنانير. فدخل إلى بيته، وغاب، ثم عاد ومعه الغلمان يحملون أكياس الدنانير،

ووضعوها أمامي، قال لي الخياط: عدّها، فعددتها ووجدتها كاملة غير منقوصة. فقال لي الخياط: احملها وهيّا بنا، فحملتُها وسرتُ وأنا أحتمي بظلِّ الخياط، وأنظر ورائي خشيةً من أن يهجم عليَّ غلمان الأمير ويأخذوا مني الدنانير مرة أخرى، وأنا لا أكاد أصدّق ما تمّ وما حدث، وأتلمس الدنانير بين الفينة والفينة لأتأكَّد أنني في علم وليس في حلم.

وما أن ابتعدنا قليلاً عن بيت الأمير واطمأننتُ على سلامتي وسلامة الدنانير، حتى التفتُّ إلى الخياط وقلتُ له: يا سيدي! إنني أشكرك غاية الشكر على ما فعلتَهُ من أجلي، فقد عجز الوزراء وأولياء الأمور كلُّهم عن تحصيل حقي، وحصلتَهُ لي أنت كاملاً، فبالله عليك، ما سرّ خوف هذا الأمير منك، وأنت رجل شيخ مسكين كما أرى؟..

قال: إن كنتَ تريد أن تعرف سرَّ ذلك، فاذهب معي إلى دكاني في السوق لأقصَّ عليك قصتي فيها، فقد طال غيابي عنها.. فذهبت معه إلى الدكان، وبعد أن جلسنا واسترحْنا قليلاً التفتَ إليَّ وقال:

أنا شيخ ضعيف مسكين، كما قلتَ، أصلي إماماً في المسجد الكائن قرب قصر المعتضد بالله، أمير المؤمنين، ولكنني لا أستطيع السكوت عن المنكر، ولو كان في ذلك ذهاب نفسي، هكذا خلقني ربي ﷻ.

في أحد الأيام منذ سنة أو أكثر، صليتُ المغرب إماماً في المسجد، وخرجتُ بعد انتهاء الصلاة أريد الذهاب إلى بيتي.. وإذا بامرأة تخرج من الحمام القريب من المسجد وهي ترتدي ثياباً فاخرة.. وكان ثمة قائد تركي يجلس على باب بيته القريب من المسجد أيضاً، هو وغلمانه، وما أن رأى المرأة حتى أشار إلى غلمانه، فهجموا عليها وأخذوا يسحبونها إلى بيت قائدهم، وهي تصيح وتستغيث بالمسلمين أن ينقذوها من هذا البلاء، وهي تقول: أنا امرأة شريفة طاهرة، وقد حلف زوجي إن تأخرتُ في العودة إلى البيت أكنْ طالقاً..



وعندما سمعت ذلك ثارت الحمية في رأسي وهجمت على الغلمان الأتراك أريد استخلاص المرأة منهم، وصاروا هم يسحبونها إلى البيت، وأسحبها أنا إلى الخارج، ولكنهم تغلبوا عليَّ وأدخلوا المرأة إلى البيت ورموني خارجه وأغلقوا الباب، وبعد أن استرددْتُ روعي قليلاً، قلت لنفسي: كيف يحدث هذا؟!.. امرأة شريفة تُنتهك حرمتها غصباً عنها، وتطلق من زوجها، هذا لا يمكن أن يكون..فنهضتُ وصرتُ أصيح بالمسلمين الخارجين من المسجد والمارين في الطريق، وأستحثهم على استخلاص هذه المرأة المظلومة من براثن هؤلاء الظالمين، فاستجابوا لي، فذهبنا جميعنا وطرقنا باب القائد التركي، ففتح غلمانه الباب، وعندما رأوني والناس من حولي، صاحوا بسيدهم وحملوا علينا بالعصي والدبابيس، وحمل قائدهم عليَّ من دون الناس بدبوس كبير في يده، وانهال عليَّ ضرباً ولكماً حتى شجّ رأسي وأسال دمي، فارتميتُ على الأرض مغمًى عليَّ، وهرب الناس من حولي.. ودخل القائد وغلمانه بيتهم وأغلقوا الباب عليهم.

وبعد أن هدأت نفسي قليلاً، وعادت إليَّ بعض قوتي، تحاملتُ على نفسي ونهضتُ وذهبتُ إلى بيتي القريب من المسجد، فغسلوا الدماء عن رأسي ووجهي وثيابي، وضمّدوا جروحي، واضطجعتُ لأنام.. ولكنني لم أستطع، فصورة المرأة المظلومة وهي تستغيث بالمسلمين، لم تنفكَّ عن خاطري، ولم تتركني أهدأ أبداً، كيف يحدث هذا أمام سمعي وبصري، وأنا لا أزال حيّاً؟!.. ولكن ماذا أستطيع أن أفعل أكثر مما فعلت؟!.. وفجأة خطرت لي فكرة نفذتها على الفور، خطر لي أن أؤذن أذان الفجر في هذا الوقت من الليل، لعلّ القائد التركي يسمع الأذان فيظن أن الفجر قد بزغ، فيخلي سبيل المرأة لتذهب إلى بيتها قبل أن يقع عليها الطلاق. فنهضتُ وأخذتُ مفاتيح المسجد وأسرعتُ إليه ففتحته، وصعدتُ إلى

المئذنة، وأذَّنْتُ أذان الفجر، وأنا أنظر إلى باب القائد التركي لعلّه يُفتح وتخرج منه المرأة المخطوفة.. ولكن الباب لم يُفتح، فهممتُ أن أؤذن أذان الإقامة للصلاة، ولكنني فوجئت بباب قصر الخليفة المعتضد يُفتح ويخرج منه حرس كثيرون بيدهم المشاعل حتى امتلأت الساحة بهم، وصاح كبيرهم: من الذي يؤذن في هذا الوقت من الليل؟ فخفتُ وسكتُّ ولم أُجِبْ، فعاد كبير الحرس يصيح: من الذي يؤذّن في هذا الوقت من الليل؟ فتشجعتُ وقلتُ على خوف ووجل واستحياء: أنا يا سيدي، فقال: انزل وأجبْ أمير المؤمنين، فإنه قد سمع أذانك الآن فأمرنا بإحضارك بين يديه.. فازداد خوفي واضطرابي، لأن المعروف عن المعتضد أن سيفه قبل كلمته! ولكنني نزلتُ مضطراً وأنا أرتجف من الخوف، فأخذوني من يدي، وأدخلوني قصر الخليفة، وأحضروني بين يديه.

وكان الخليفةُ المعتضد جالساً في صدر المجلس يسمر هو ووزراؤه وندماؤه، وعندما رآني صاح بي: لماذا أذنت في هذا الوقت من الليل؟!.. فالفجر لم يبزغ بعد، وبأذانك تغشّ الناس، فالنائم ينهض يظن أن الفجر قد بزغ، والصائم يمسك عن الطعام والشراب، والقائم يتوقف عن الصلاة، والعامل يتهيأ للصلاة ثم للذهاب إلى العمل، فلماذا أذنت؟ ولماذا تغشُّ الناس؟.. فسكتُّ ولم أجب، وقد ازداد ارتجافي واضطرابي، ولما رأى الخليفة حالتي، قال لي: هوّنْ عليك يا رجل، اجلس، اجلس واسترح، وهدّئ من روعك، فأنا لا أريد بك شرّاً، وإنما أريد معرفة سبب أذانك في هذا الوقت من الليل.

فجلست حتى هدأ روعي، وعند ذلك أعاد عليَّ السؤال: لماذا أذنت في هذا الوقت؟ فقلتُ له: هل تعطيني الأمان لأتكلم؟ فقال: تكلّم، ولك الأمان.. فقصصتُ عليه قصة المرأة والقائد التركي من أولها إلى آخرها،

وأريته جروح رأسي وأثر الدماء على شعري وثيابي.. وعندما سمع ذلك غضب غضباً شديداً، وقال: أيحدث هذا في ملكي وأنا لا أدري؟!.. إن كان حقّاً ما تقول سأريك ما أفعل، وإن لم يكن حقّاً فسأقطع رأسك.

ثم صاح على صاحب الشرطة فحضر، فقال له: خذ هذا الرجل وخذ معك ثلة من الحرس واذهب إلى البيت الذي يدلك عليه، وادخلوه مهما كان مركز صاحبه وفتشوه، فإن وجدتم فيه امرأةً مخطوفةً فائتوا بها وبصاحب البيت.

فذهب صاحب الشرطة ومعه ثلة من الحرس وذهبتُ معهم، وأنا أخشى أن يكون القائد التركي قد خلّى سبيل المرأة فيظنني الخليفة كاذباً فيقطع رأسي، ودللتهم على البيت فطرقوا الباب، وعندما فُتح دخلوا دون استئذان وأخذوا يفتشون البيت وأنا معهم، إلى أن عثرنا على المرأة المخطوفة في إحدى الغرف، وعندما رأتني عرفتني فأخذت تصيح وتستغيث بي، فهدّأها رئيس الحرس وأخذها واقتاد معها صاحب البيت، القائد التركي، وعدنا جميعنا إلى مجلس الخليفة، وعندما رأى الخليفة المرأة سألها عن شأنها، فأخبرتْه بقصتها كما قصصتُها أنا عليه، وتأكد



بذلك من صدقي.. فغضب غضباً شديداً حتى احمرت عيناه، والتفت إلى القائد التركي وقال له: أما تستحيي؟! أما تخاف الله تعالى؟! كيف تنتهك حرمات الناس وتعتدي على أعراضهم؟! كم راتبك في الشهر؟ قال: كذا ألف من الدنانير. قال: كم زوجة عندك؟ قال: أربع زوجات. قال: وكم جارية عندك؟ قال: كذا جارية. قال: كل ذلك لا يغنيك عن الحرام؟!.. أنت رجل فاسد يجب بتره.. وأمر به أن يوضع في كيس من الخيش وأن يضربَ بالمخابط حتى يموت، فوُضعَ وضُرِب حتى همدَ ومات وأنا أنظر إليه، ثم أمر به أن يُرمى على باب بيته ليكون عبرةً لكلِّ من تسوّل له نفسه الاعتداء على حرمات الناس.. ثم أمر صاحب الشرطة أن يأخذ المرأة إلى زوجها وأن يوصيه بها خيراً لأنها بريئة ومظلومة. ثم قال لي: قد وليتُك الحسبة في بغداد، كلما رأيتَ منكراً غيّرْه، وإن لم تستطع فأذِّنْ في غير وقت الأذان، وهكذا منذ ذلك الوقت وأنا أنصر المظلومين وآخذ لهم حقوقهم.

رحم الله تعالى ذلك الخياط الضعيف المجهول في أهل الأرض، المعروف في أهل السماء، وكَثَّر من أمثاله بين المسلمين.. ولعلّ المثلين الشعبيين اللذين يقالان في بلدي حماة: «لا أعملُه ولو أذّنْتَ» و«لا أعمله ولو صعدت إلى المئذنة» أصلهما هذه الحكاية.. والله أعلم.

وراء كل صورة حكاية

بعد قراءتك للكتاب اكتب العِبَر المستفادة من القصص التي تذكّرك بها الصور الآتية:



١ ....

....

....

٢ ....

....

....

٣ ....

....

....


٤
٥
٦



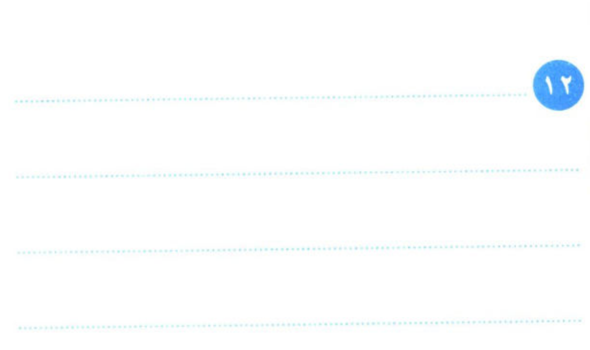
٧

٨

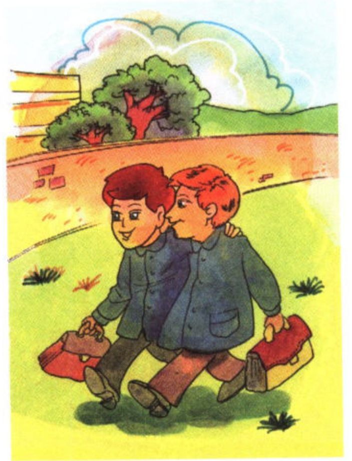
٩

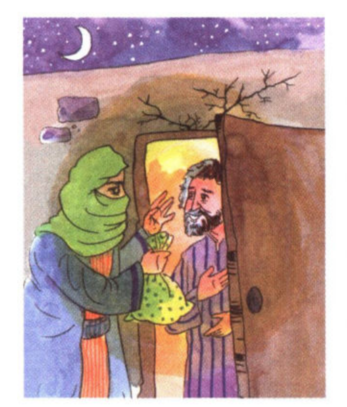
۱۰

۱۱



۱۲





١٣



١٤



١٥



الفهرس